ضابط برتبة عنكبوت

ضابط برتبة عنكبوت

إيهاب عصمت

ضابط برتبة عنكبوت

الغلاف / هانيبال – هيبو
رواية/إيهاب عصمت
الطبعة الأولى / القاهرة 2014

ISBN: 978 – 977 – 6299 – 34 – 11

وكالة سفنكس
٧ شارع معروف، الدور السابع
وسط البلد – القاهرة
ت/ف: ٠٠٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥
www.sphinxagency.com
info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه، وبأية وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية أو التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة أخرى للنشر دون إذن كتابي من الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية.

ضابط برتبة عنكبوت

إيهاب عصمت

ربما تكون هذه الرواية تعبيرًا عن الواقع؟!..

لكنها في الحقيقة من نسج الخيال، وليس لها علاقة بأشخاص بأعينهم.. أو أحداث وقعت بالفعل، ولا علينا أية مسئولية.. إذا ربط القارئ الرواية.. بأشخاص أو أحداث حقيقية.

امتلأ البانيو وفاض.. فتساقط الماء منه سابحًا على الأرض، وبعنفوان راح يجذبه، فأسقطه أرضًا.. مرتميًا فوقه، فانفجرت قطرات الدماء من عينيه، لتختلط بالماء فيتحول لبركة من اللون الوردى ...

في زهو يملؤه ويتملك منه، مثلما يتملك المرض من الإنسان فيفتك به،خرج حاتم من كلية الشرطة بالعباسية.. صباح الخميس ١٩٩٠/٣/١٩ إنه ما زال في الفرقة الأولى.. لم يشبع رغبته بعد في رؤية نفسه بزي الكلية الرسمي، رغم أن أخاه الأكبر في الفرقة الثالثة، وقد ملّ مشاهدته بسترة الأكاديمية.

بحث عن أخيه لم يجده، فأخذ تاكسيًا هو وزملاؤه إلى مصر الجديدة، حيث يقطن مع أسرته في شقة من طابقين. عندما دخل البيت لم يجد إلا الخادم، منال.. الاسم الذي أطلقه عليه حاتم، بينما اسمه الحقيقي سعيد.. طفل في الثانية عشرة من عمره، سأله حاتم عن أمه..

خرجت هي وأخته الصغيرة.. دينا.. طفلة في المرحلة الابتدائية.

رن جرس الهاتف.. كانت الفتاة التي ما زالت ترسب في الثانوية العامة، أتحبه هي؟.. محتمل، لكنها تواعده كثيرًا.. ولم يأخذ منها ما

يبتغيه من الغصن الساكن فخذيها أو حتى رشفة من رحيق شفتيها، فراح يبتسم عندما منحته موعِدًا لمقابلتها بعد ثلاث ساعات من الآن،دلف سريعًا إلى الحمام كي يستحم.. ويغير ملابسه؛ تهيئاً لمقابلة فتاته، زخات الماء كانت تتساقط من فوقه.. وهو يدلك جسده بشاور برائحة الفل التي يعشقها... فجأة فتح عينيه.. فأغمضهما سريعًا عندما شعر بالصابون يتسلل إلى عينيه، لكنه عاد وابتعد من أسفل الدش.. تاركه يعمل، ينظر إلى الماء المتساقط منه، محاولاً إبعاد شبح الفكرة التي تراوده الآن. حاول.. لكنه لم يستطع؛ فهي فرصة.. أمه ليست في المنزل.. وسعيد بمفرده الآن، حاول أن ينسى.. فهو ذاهب لمقابلة فتاته.. وربما يأخذ ما يريده هذه المرة، إلا أنه خرج من البانيو.. تاركًا الدش يعمل.. ووضع سدادة الإحكام فأوقفت تسريب الماء؛ كي يحدث الماء المتساقط من الدش صوتًا عاليًا، ونادى على سعيد متعللاً أن يناوله شيئًا ما من خلف باب الحمام: منال أحضري لي الفوطة الكبيرة..

وجاءه سعيد بما طلب مادًا يده من خلف الباب الموارب، فقبض حاتم على يده بإحكام وسحبه إلى داخل الحمام وأغلقه، وما إن رأى سعيد منظر حاتم العاري، وقطرات الماء تتساقط من رأسه وجسده، ونظر فوجد عضوه منتصًبا.. ففهم.. فصرخ، مستنجدًا مستعطفًا.. لكن حاتم يجرده من ملابسه.. وهو يقول له: كل مرة تتعبيني كده يا منال..

وغرس عضوه بين أردافه.. وأخذ يأتيه.. فراح نشيجًا صاخبًا.. متقطعًا من سعيد يتحد مع صوت الماء المتساقط من الدش، فيصنع سيمفونية سوداء أشبه بأجراس الموت، وامتلأ البانيو وفاض.. فتساقط الماء منه سابحًا على الأرض، وبعنفوان الشهوة الصارخة.. جذب حاتم سعيد بقوة.. فأسقطه على الأرض مرتميًا فوقه يأتيه، فانفجرت قطرات الدم من عين الولد.. لتختلط بالماء.. فتحوله لبركة من اللون الوردي .

في البدء اعتقد أنها من حاجبيه، عندما أسقطه على أرض الحَمَام، لكن عندما دقق النظر، وجد عين سعيد تتساقط منها قطرات من الدماء.. شبه لازجة عبر جرح.. لم يبال مستمرًا، شيء واحد كان يتذكره أفلام الفيديو العارية، التى يشاهدها هو وأخوه، فى نفس هذه الأشياء.. وكيف كان يستمر الذَكر منهم مع من يضاجع فترة طويلة فى الممارسة دون قذف، هذا كل ما كان يشغله.

وفي هذه المرحلة عادةً ما يكون سعيد تحول إلى جسد من الصقيع الجامد، يصنع حراكًا متنافرًا من حين لآخر، وكأنه شيء مذبوح.. ينتفض والروح تخرج .

بعدما انتهى.. غسل لسعيد وجهه وهو يقول: حذار أن تتفوه بكلمة واحدة.. وضع بنًا على الجرح الصغير هذا.. ولو سألتك أمي.. قل لها اصطدمت بشيء فى المطبخ .

لم يجب سعيد وهو ينتفض.. غيامًا وسحبًا أمام عينيه من كثرة

بكائه، وأثار اصطدام رأسه في الأرض، ارتدى سرواله وهو يترنح.. يخرج من الحمام يصل إلى المطبخ بالكاد، يجلس دافنًا رأسه بين يديه وركبتيه.. مستمرًا في البكاء، حتى يسقط.. وتغشاه أوقات من نوم.. أشبه بالموت .

بينما حاتم جالس على حافة البانيو، بعدما أغلق الدش.. وسمح للماء أن يتسرب، يشعر بإعياء شديد.. يدغدغ جسده؛ فهو: لا يأكل بصورة جيدة في الكلية، ويدخن الحشيش.. والبانجو مع أصدقائه، فصحته لم تعد تتحمل كل هذا، وعندما نظر في مرآة الحمام.. وجد نِنِ عينيه بدأ يكبر، ويتسع ليملأ العين كلها، مداريًا وحاجبًا بياض العين، لتصبح عيناه اليسرى كلها عسلية اللون، بلون النِنِي فقط.

هذا ما حدث بالفعل.. ويحدث.. فى بيت "محمود الجبالي"، وزوجته "شهيرة فؤاد "، وأولادهما حسب الترتيب العمرى " طارق"، "حاتم" ، و"دينا" والخادم الذى يعمل عندهم " سعيد".

حاتم .. ليس حقيقيًا أن بداخل كل منا رجل واحد، بل من المؤكد أن بداخلنا تسكن كتائب من الرجال مختلفة الأجناس والألوان.

حاتم الجبالي .. الأخ الأصغر بعد طارق، متوسط الطول يميل إلى النحافة، خمري اللون، بعينين عسليتين.. مثل عين أمه شهيرة.. وشعرٍ ذي كسرة خفيفة يميل إلى اللون البني.

كان حاتم وهو رضيع ينهل من صدر أمه فى نهم، وما يلبث دقائق قليلة.. حتى يشبع، على غير عادة طارق أخيه الأكبر وهو رضيع، فكان يرضع ببطء.. ويرضع كثيرًا، ولا يطلب صدر أمه بعد ذلك إلا بمضي ساعتين أو أكثر، الشيء الذى جعل شهيرة تندهش لعادة حاتم، والذي يصرخ بصوت عال.. وكأنه لم يرضع منذ ساعات طوال، وما إن ترضعه أمه لثوان.. يترك ثديها؛ دليل على أنه شبع.. فتقوم أمه بإدخال صدرها، فيعود إلى البكاء والصراخ بصورة أشد، فتسرع بإخراج صدرها.. يصمت لكن لايرضع!.. يظل معلقًا عينيه على حلمة أمه النافرة.. وبعض قطرات اللبن تتدفق منها، وينتقل من النظر لحلمة صدرها إلى عينيها المراقبة له.. فتداعبه فيبتسم لها، ومن الممكن أن يرضع

قليلًا.. ويترك صدرها، تعود الأم إلى إدخال صدرها.. يصرخ، فتضطر للمثول لرغبته.. حتى يتلاهى في شيء آخر أو ينام.

وليس بالضرورة أن يكون لهذا مردود جنسي، فربما هي الأنانية.. وحرصه على ذاته، فهو لا يريد أن يرضع في الوقت نفسه يريد ألا يختفي من أمامه صدر أمه، والذي هو مصدر السعادة، والإطعام، وكفل لكل شهوات الرضيع.

ولو تفحصت حياة حاتم الجنسية، في البداية سوف تعتقد أنه عاشق للمرأة، والحقيقة أنه ذكر توجهاته مختلفة؛ فهو لا يهتم بشيء أكثر من إفراغ شهوته.. بأي شكل، لا فرق عنده: إذا كان هذا عن طريق يده، أو عن طريق طفل جميل، أو عن طريق امرأة عجوز، أو امرأة لعوب، أو .....، أو .....، فمن الممكن أن يتحدث مع فتاة عبر الهاتف.. ويمارس معها الجنس صوتيًا.. فيستمني، وصديقات في المدرسة يلهون معه: افعل كل شيء.. لكن كن حذرًا فأنا مازلت...

وربما يقذف حاتم.. قبل أن تفك ضفيرة شعرها الأخرى؛ فهذا الإفراغ هدفه.. وليست هذه الساحرة التي ماثلة الآن بين يديه.

وكأن بعضًا من الحيوانات المنوية التي يجددها جسده كل ثلاثة أشهر هي جبال ثقيلة.. يحملها على ظهره؛ فينوء بحملها كل دقيقة؛ حتى يلقي بها، فيكون هذا فقط مبتغاه.. أيًا كانت هذه الآلية التي أحدثت هذا.

حتى قبل بلوغ حاتم.. كان لديه رغبة جنسية شوهاء، وأول من شهدها.. كان مصعد عمارتهم؛ فلو منحته الفرصة وركب معه طفل أو طفلة، يظل يلتصق ويحتك بمؤخرة هذا الطفل أو هذه الطفلة حتى يشعر أنه ارتاح أو مثلما .... تمامًا.

وعند بلوغ حاتم.. كان يفعل هذا، لكنه تفاجأ أن شيئًا تفجر منه، كان يعلم مسبقًا من " أحمد العسقلاني"ابن خالته.. وأعز أصدقائه، كذلك من طارق أخيه: أن هذا هو المني.. أى أنك "حمدًا لله" بلغت.. وكبرت، ولو تزوجت الآن سوف تنجب.

ويوم بلوغه هو اليوم الذي لم ينقطع بعده قذف حاتم.. واستمنائه بأية وسيلة. فكم من مرة استمنى حاتم أثناء شرح مدرساته في الفصل؟!.. وهو جالس في آخره يراقب أردافها وهي تحتك في جيبتها أثناء تنقلها أو كتابتها على السبورة، كم من مرة استمنى في جلسات دروسه الخصوصية؟!.. لمجرد تلامسه بابنة صديقة أمه التي تحضر معه الدرس، فيظل يلامس فخذها.. ويده الأخرى تحتك في تؤدة بعضوه وفي ثوانٍ معدودة يكون قد قذف.

كانت تلاحظ شهيرة أمه سوء صحته وضعفًا في ركبتيه، تفهم لكنها تخفي فهمها، وإدراكها أنه أتى لتوه من عند " إستر"، تلك الفتاة الهيستيرية.. التي كانت تكبره بعامين، وهي تعيد الثانوية العامة تحسين مجموع؛ من أجل الالتحاق بكلية الفنون الجميلة،

وبمجرد خروج أبيها وأمها إلى العمل، نجد حاتم تسلل من المدرسة إلى منزلها.

وكان حاتم نحيفًا شاحبًا دائمًا، وشيء مثل إستر تستدعى مجموعة من عينة حاتم معه؛ فهى فتاة: خمرية اللون تميل إلى السمرة المصرية، بشعر مجعد والذي تتركه دائمًا منسابًا لتتعايش ونفسها جو الفنانين، طولها يزيد عن طول حاتم، ممتلئة.. لكنها بجسد متناسق.. مسحوبة الخصر بضة الملمس، حائزة على أفضل نهدين وردفين ساحرين، كما أن لحوارها دلالًا مميزًا.

وتظل تسرسر هى وحاتم فى أعمالها الفنية، ويشاهدا أفلامًا إباحية ويشربان البيرة.. ومجرد ما يبدأ حاتم نجده انتهى، وتكون إستر لم تصل حتى للانتهاء من خلع ملابسها كاملة، بينما هي تريد أن يستمر حتى تنتفض وتسكن شهوتها.. ولا مانع من مزيد. الشيء الذي جعلها تتجه إلى طارق فيما بعد، ومن ثم اختزل حاتم هذا لأخيه.

وكان حاتم يضطر أن يرضيها؛ فيقوم بمرة.. والأخرى، لكنها لا تفرق كثيرًا.

حتى يذهب لأمه بعينين غائرتين، اليسرى منهما بلون النِني فقط، ووجه شاحب.. يحاكى وجه الموتى، ومجرد أن تراه شهيرة تصرخ:

أين كنت يا حاتم؟!.. وعائد بمثل هذا المنظر.. ماذا أخذت من

أصدقائك؟!.. أتشرب المخدرات؟!..

لا يستطيع حاتم الرد عليها، ويدخل سريعًا إلى غرفته.. ينام بملابسه، فقط دون الحذاء.. تلاحقه شهيرة وهي تنظر له بقلب يرتجف، وفي بعض الأوقات تتقدم نحوه.. تنصحه، حتى إنها في إحدى المرات قالت له: إن الزوجة لا تترك منزل أبيها.. وتمكث في منزل زوجها إلا لهذه الأشياء، وأنت بما تفعله سوف تقضي على صحتك.. وتجعل زوجتك تعايرك قائلة لك إنك مثلك مثلها لا فارق بينكما.

تخرج شهيرة.. تتركه يفكر بينه وبين نفسه في زاوية جديدة مرددًا ما سمعه من أمه: لا تجلس المرأة في بيت زوجها إلا من أجل هذه الأشياء؟! أتبالغ أمي؟!.. أم أن هذه هي الحقيقة؟!.. وكل النساء إذن عاهرات؟!.. ولكن.. ولكن..

يقوم يهرول خلف أمه، والتي يجدها تشرب الشاي.. مندمجة في مشاهدة مسلسل "نصف ربيع الآخر"، يقف لها أمام التليفزيون.. وهو يقول لها:

- كيف إذن ما تقولين وأنت بعيدة عن أبي منذ خمسة عشر عامًا ،لا تلتقين به سوى أسبوعين كل عام أو عامين؟!..

تنظر له.. وتبكي؛ فيقبل نحوها :

- ألهذا الحد يؤرقك ويؤلمك غياب تلك الأشياء التي تتم بين المرأة وزوجها؟!..

ترميه بكوب الشاي الذي فى يدها، فيهرول سريعًا من أمامها:

- اذهب من أمامى يا نجس.. أنا أبكي عندما ذكرتنى بغربة أبيك من أجل أن يصنع منك أنت وأخيك رجلين، يأتي ليرى ثمن غربته ..

- ونحن رجالة جدًا، أنتِ لا تعلمين ماذا تصنع من أجلنا الفتيات .

- إنهن يأخذن منكما (البزازة) وبعدها.. تصفعكما بحذائهن.

الحوار متكرر.. تكرار سطوع الشمس، وتعاقب الليل والنهار.

وبعد عشر دقائق يُنسى الأمر برمته، ويرن جرس الهاتف.. تجيب الأم تجد داليا، داليا هذه.. تخص طارق، فتنادي عليه: طارق احضر بالخطوة.. السريعة..

يقدم نحوها.. مبتسمًا، تعطيه السماعة وهي تنظر له من أسفل إلى أعلى:الست داليا هانم.. أأخبرها أنك على صلة بمريم صديقتها.. وفهمتها أنك "باسم" ومسيحي؟!..

يأخذ من يدها سماعة الهاتف.. وهو يبتعد عنها.. ومازال مبتسمًا، يقبل حاتم على صوت هذه الوليمة.. وبيده "دمبل" من الحديد يتدرب، وبيده الأخرى "كاسيت"صغير وحكيم يغني" ...."، يحاول حاتم مناورة طارق السعيد بمكالمة داليا الجميلة، تتجه الأم نحو حاتم تشغله.. حتى تبعده عن طارق، لتتفادى نشوب حرب طاحنة، بعد انتهاء طارق من مكالمة داليا.. تقول

لحاتم: انظر لم أحرمكما من أي شيء.. أي شيء، فحذار أن تظهر النتيجة آخر العام، وأجد أحدكما راسبًا، ستريان مني الوجه الآخر.

غير أن حاتم ما زال مراقبًا لطارق وهو يتحدث مع داليا، أو كما يسمونها " فرجينيا "، ينظر له في غيرة قاتلة.. يقول بينه وبين نفسه: بهذا تكون يا طارق أخذت كل الفتيات من حولنا لنفسك، لكني سعيد.. فأنت تستحق ما فعلته بك، فقد نجحت وأخذت منك"ريم" حبيبة القلب.. دون أن تعلم!!.. .

ريم الفتاة الوحيدة التي اختارها.. طارق لقلبه، حلم مع نفسه أن تكون هذه زوجته، وما إن رأى في عينيها علامات غير صريحة أو واضحة تنُم عن إعجابها بحاتم؛ فاتفق مع أخيه، أن "ريم" هذه هي حبه الأول والأخير، وحتمًا عليه.. أن يتفهم هذا، ويبتعد عنها نهائيًا. وعاهده حاتم على هذا.

وريم ليست ببعيدة عن العائلة.. فهي ابنة خالهم"ممدوح" الرجل الوحيد الشقيق لشهيرة، يعمل طبيبًا.. يقطن في المنوفية.. مسقط رأسه، ومتزوج من " ابتسام " مترجمة هي في مديرية أمن المنوفية وأنجب ممدوح، حسب الترتيب العمرى"ريم" و" أحمد".

وعندما انتهت ريم من المرحلة الابتدائية، بدأت ثمار البرتقال المتوسط الحجم تظهر.. لتمنحها نهدين صغيرين، فضلًا عن بياض بشرتها.. وجمال وجهها، وقوامها الممشوق، فأصبحت مثل عروس البحر التي تظهر في المسلسلات الأجنبية هكذا كان طارق وحاتم يطلقان عليها بعدما اتفقا على ما بينهما.

غير أن ريم وعند بداية هذا البزوغ.. ضرب إعصار لقلبها، وكان وراءه حاتم. فأصبحت تحبه وتعشقه، لدرجة المرض، ولأن حاتم رأى طارق مكتسحًا لكل الفتيات من حولهما؛ فخان العهد معه.. مجاريًا ريم الحب زيفًا، ليجمع خلسة وسرًا ثمار البرتقال من نهدين بريئين، وشفتيها.. حتى ما بين فخذيها، بالطبع كان حذرًا على بكارتها؛ حتى لا تتفجر مشكلة.. لا يستطيع التصدي لعواقبها.

استمر هذا كلما زارت شهيرة شقيقها، أو العكس، حتى بدأت ريم المرحلة الثانوية.. وصار النهدان بحجم الرمان، وأصبحت ريم ليست عروس البحر، بل عروسًا حقيقية يتهافت عليها الخطاَب، وهي لا ترى في هذه الدنيا رجالًا سوى حاتم. فكانت أشبه بجوهرة نادرة.. موضوعة في متحف، وممنوع الاقتراب منها أو اللمس أو التصوير إلا لشخص واحد.

إجازة الصيف.. وأثناء زيارة شهيرة وأولادها لممدوح، والتي مكثت خلالها شهرًا كاملًا وقد يزيد.. لتعلق أخيها بها، ومحاولة منه تخفيف حدة غياب زوجها محمود عنها.

وكان ممدوح مواظبًا على عادته.. في الانتقال من المنوفية إلى "منوف" حيث دار أبيهم الكبير، يفتحه وينظفه.. مستقبلًا فيه أختيه آمال وشهيرة، والمعروف أن وسط هذا الدار شجرة كبيرة، في نفس زمام البيت، وهي شجرة يشاهدونها منذ نشأتهم؛ ولذلك لم يقتلعوها.

خلف هذه الشجرة حظيرة كبيرة، تربي فيها ابتسام طيلة الإجازة الطيور وخلافه؛ ليأكلوا منها فترة الإجازة بأكملها، والباقي تذبحه لتأخذه معها للمنوفية، كخزين لهم طوال فترة العمل.

وفي هذا الصباح ذهبت كعادتها هي وإحدى الخادمات؛ لتنظف الحظيرة.. وتطعم الدواجن، بينما جلست ريم مع حاتم أسفل الشجرة، يلعبان السلم والثعبان، لعبة مشهورة آنذاك، وعندما انتهت ابتسام، طلبت من ريم الانصراف معها، لكن ريم ترجتها أن تتركها، إلى أن تنتهى اللعبة.. وتلحق بها مباشرة، خصوصًا أن الجو أفضل من الداخل.

وما إن إنصرفت أمها والخادمة، حتى اندمج السُلم والثعبان معًا.. إلى ثعبان فقط، هو حاتم.. الذي زحف سريعًا نحو جسدها،

ناظرًا إلى الرمان وكل الثمار.. مقبلًا شفتيها بحرارة ملهبة.. مجردها من بلوزتها، فظهرت حمالة صدرها السوداء.. وسط النور المشع من بياض جسدها، فكاد يُخلب عقله، محاولاً فك حمالة صدرها، ترفض.. يحاول.. تتباطأ عزيمتها شيئًا فشيئًا، كلما زادها حروفًا معسولة، مدغدغًا غازيًا قلبها بكلمات زائفة، حتى فك الحمالة، لتمنحه باكورة جمالها.. نهدين عجيبين، والذي ارتمى فوقهما.. مقبلاً لها كل جسدها.. حتى احتواها نائمًا فوق فراشها المخملي.

وبينما هو هكذا.. وجد أحمد شقيقها فوق رأسه، فقد أرسلته أمه فور دخولها لأخته، فهي لا تأمن مكر هذا الولد.

كثيرًا من الآلام في هذه الدنيا، يمكن للإنسان أن يذوقها، ويمكن للرحمن أن يُنجيه منها: فموت عزيزغالٍ عندك فجأة أمام عينيك شيء مُفزع. وأن تفقد أحد أولادِك.. وهم قُرة عينك شيء مريب. وأن ترى جسدًا مما ينتمي لعرضك عاريًا.. وآخر ينهشه.. يمزق كرامتك من خلاله شيء مميت. وقد تمر في هذه الدنيا، دون أن يُحرق قلبك.. ويُمكن ألا.

هذا ما حدث لأحمد شقيق ريم، عندما رأى أعز ما عنده في هذه الدنيا، جسدها عاريًا وحاتم نائمًا فوقه.. يلعق منه، مثل كلب ظمآن

تائه، ورغم أنه يصغر حاتم سنًا وجسدًا، إلا أنه أمسك بعنقه يخنقه بقوة.. حتى كاد حاتم أن يلفظ أنفاسه، لكنه أفلت منه.. وكال له ضربًا مبرحًا، وهو يصرخ فى وجهه: ماذا تعتقد؟!.. إننا نلعب.. ونتراهن من يغلب، يخلع ملابسه أمام الآخر ليس أكثر، ماذا تظن أنت؟!.. إنها ابنة خالي، أي مثلها مثل دينا شقيقتي.. أنت من المؤكد مجنون..

هكذا كان يقول له.. بينما قطرات الدم تتساقط من فم أحمد.. والذي ينظر لهما في استنكار وهو يتهاوى: تلعبان ؟!!..

كانت قد ارتدت ريم ملابسها فى لمح البصر، وفرت زاحفة تخونها خُطاها.. فتقع وتنهض، حتى اختفت داخل المنزل.. الذي ضاق بجنباته عليها.

وأخيرًا ظلا يتوسلان أحمد ألا يخبر أحدًا بهذا، لأنهم أخوة جميعًا فيما بينهم، هذا مختلف بالطبع لو أحد علم من والديهما فلن يصدقا الحقيقة، وسوف يتشاجران.. وتقطع الصلة بينهما بسبب هذه المشكلة، ثم إن ريم عاجلاً أو أجلاً ستكون زوجة لي، فأنت تعلم الحب الذي يجمع بيننا، وأومأت ريم برأسها.. مؤكدة ومساعدة لحاتم، وهي تتوسل أخيها.

تتبقى الكارثة الكبرى، عندما يعلم طارق بما حدث.

لم يتوقع أحد أبدًا، أن يكون وقع الصدمة على طارق شديدًا هكذا فريم الفتاة الأولى التي أحبها.. وتعلق بها، والأخريات كلهن.. لسن إلا أجساد جميلة، يستدعيها هو عندما يريد.

لكنه.. علم ورأى يد حاتم وأثارها العابثة، في مواضع لم يكن في مقدوره إصلاحها. ورغم أن ريم كانت الحلم الأكبر في حياة طارق، ولم يؤيِد هذا الحلم.. ويشوهه سوى حاتم؛ صدقه طارق في كل كلمة ادعاها على ريم، بل وجعله حاتم بدلاً من أن يقف ضده وقف معه.. وكان ظهيرًا له في إخراجه من هذه الورطة.

وظل حاتم يوسوس في أذن طارق: هي التي كانت تهرول خلفي.. وتلاحقني، وكثيرًا ما كانت تراودني عن نفسي.. ذاكرة لي دومًا أن طارق نصف رجل، فضلاً عن"دمه الثقيل"، والتي لا تتخيل مطلقًا أن تصبح زوجة لرجل ضخم الجسد مثله، فغضبت.. وكان حتمًا علي أن أثأر لكرامتك، وصدقني هذه هى المرة الأولى.. كنت لن أفعل هذا، الأمر كله حاولت التأكد من شيء.. أهذه الفتاة لعوب أم لا؟!.. وقد ظهرت الحقيقة.. ونجانا الله منها، صدقت أمك عندما تقول "أفعالكما كبيرة.. وينجيكما الله منها.. بفضل دعائي المستمر لكما"، حقًا نجانا الله من هذه العاهرة، بفضل دعاء أمك، وخرجت من هذه الواقعه بشيء غريب، إنه لا يوجد أخ في هذا الزمان يحب أخاه، ويحرص على كبريائه.. وكرامته مثلي، لكني

فخور بهذا الحب؛ فأنت تستحقه يا طارق ..

وتعانقا أخوين مخلصين، على دربٍ واحدٍ.. وعهدٍ واحدٍ يسيران.. دون خيانة، هكذا اعتقد طارق.

مرت السحابة السوداء.. ومعها هذه الكارثة، لكن حاتم لم ينته..ولم يصمت، بل أخذ يعذب أحمد شقيق ريم، بنظراته له.. والتي تحمل عبوات ناسفة لكرامة أي شاب ..

فكان حاتم كلما التقى بأحمد يقول له:" UNDER THE TREE.. أندر ذا تري"..

ظل سنوات على هذا الحال ، كلما رآه.. ردد هذا في وجهه، حتى عندما تكون هناك مناسبة، تجتمع خلالها العائلة بأكملها، لا حرج أن يقول هذا على الملأ، وعندما تأتي أغنية في التليفزيون.. وتحتوى على اسم شجرة "مثل تحت الشجر يا وهيبة"، نجده يغمز بعينيه لطارق.. ويتغامز الاثنان لأحمد، وهما يقبلان نحوه، يغنيان له "تحت الشجر يا ريم" "تحت الشجر يا ريم".

حتى نفد صبر أحمد، وانتهز فرصة وجوده هو وحاتم بمفردهما، في الحديقة الخلفية للمنزل، وأمسك بيد فأس وانهال عليه ضربًا، وما إن وقع حاتم حتى نظر له أحمد وهو يزفر أنفاسه بصعوبة، يقول له: أنت الآن تحت الشجر.. أكمل غناءك إذن..

وتركه وخرج.

ابتلع حاتم الأمر صامتًا.. وكأن شيئًا لم يحدث، وعند نهاية الإجازة خرج طارق وحاتم وأحمد وريم للتمشية، خارج الدار.. وقت الغروب، وانتهز حاتم وطارق فرصة استفرادهما بأحمد، وقاما بإرسال ريم لتحضر شيئًا تعلَّلَ حاتم أنه نسيَه بالداخل، وما إن انصرفت ريم حتى انهالا عليه ضربًا، بجذع شجرة غليظ.. حتى كُسر ذراعه. وعندما عادت ريم من الداخل، ورأت أخاها واقعًا على الأرض.. يتلوى وهما يقفان فوق رأسه، ينظران له في صمتٍ ولذة، شعرت أن هناك مؤامرة، وأن حبها لحاتم لم يعد ملوثًا لجسدها فحسب، بل إنه كاد يلوث كل شيء من حولها، وراحت تنظر في عين من أحبت.. وهو ينظر لها، فوجدت نفسها واقفة في منتصف الطريق، لا تستطيع أن تدفع بنفسها للأمام وتُكمل أو تعود للخلف وتهرب؛ فالنجاة معه أصبحت أشبه بالغرق.

وما حدث كان أكثر أسفًا، فقد أقنع حاتم ريم أن تقول(إن أحمد هو الذي سب طارق، وقال له كلامًا جارحًا، وعندما انفعل طارق أوقفه حاتم، إلا أن أحمد لم يُنهِ الأمر، باحثًا عن شيء يضرب به

طارق.. حتى صعد الشجرة، ليكسر جذعًا منها، يضرب به طارق فسقط على ذراعه.. وما إن رأه طارق هكذا، فحمله سريعًا إلى الدار ..)، وأخذ حاتم يحرضها على هذا وهو يقول لها:

- تشهدين بهذا وإلا.. سوف تنتهي قصتنا للأبد، بعدما أحببتك كل هذا الحب، وكُشف جسدك أمامي.. وفعلنا كل شيء معًا تمامًا مثل زوجين، نفترق أنا وأنتِ.. وتتزوجين من شخص آخر، أي وكأنكِ مثل أية عاهرة.. وتفقدين حبيبك.. وكل شيء..

- لكنك تريد مني أن أشهد ضد أخي.. وأشهد بالكذب..

- كيف ضد أخيكِ؟!.. ولماذا كذب؟!.. أرأيتِ عكس ما أقول؟!.. ثم من أقرب إليكِ أخوكِ أم حبيبك.. وزوجك في المستقبل؟!..

كان هناك جان باسم الحب، ما زال يسيطر عليها من قبل حاتم، ويقينًا تامًا أن هذا الشاب هو زوجها.. وأخوها، بل الدنيا كلها من الأرض إلى السماء، فأقنعها حاتم بما قال.

وما إن اجتمعت العائلة بأكملها واستشهد أحمد بأخته لتقول.. إن طارق وحاتم قاما بتسريبها متعللين بشيء نسياه داخل المنزل، ثم انهالا عليه ضربًا بجذع شجرة.. وبطريقة وحشية، إلا أنه وجد ريم مثل "بغبغان"، تردد ما لقنه حاتم لها تمامًا.

ثار أحمد.. وكاد يقول كل شيء، لكنه عاد ونظر لعين شقيقته، والذي قرأ خلالهما ترجيًا.. ألا يفضحها، فلم يستطع البوح بما

حدث، آبيًا أن يكسر كبرياء وكرامة أبويه أمام الجميع، واكتفى أن يتحمل هو وحده عواقب كل ما حدث، وربما ما سوف يحدث.

ولسوء الحظ وحسنه في ذات الوقت، أن واحدة من الجارات رأت ما حدث، وحكت لابتسام كل شيء، مما زاد من كراهيتها لشهيرة وأولادها، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى أن تكره ابنتها ريم، التي فقدت صوابها وشهدت كذبًا على أخيها.

هكذا أبلغت ابتسام ريم ابنتها وهي توبخها: قد انهارت مكانتك في قلبي، ولم أعد أثق فيكِ مرة ثانية؛ إن ما فعلتيه لا تَقدم عليه مطلقًا.. فتاة نالت ولو شيئًا صغيرًا من التربية أو الأخلاق، وإذن ما يقال ويردده بعض من فتيات العائلة صحيح، وأن هناك شيئًا يجمعك بهذا الضائع، وأنا الذي كنت أقول لا.. لا إلا ابنتي؛ فهي أعقل وأرقى وأكبر من هذا العبث، لابد أنها ترى صورته الحقيقية .

أبكتها كلمات أمها وجعلتها تغلق على نفسها حجرتها بالأيام.. وهي تنظر لصورة حاتم طويلاً، تسأله في نفسها هل تشعر بما ضحيت وأضحى به من أجلك؟!.. هل واثقٌ أنت من حبك.. مثلما أثق أنا في قلبى؟!..

وبعد أسبوعين كاملين من العزلة، دخل عليها أخوها أحمد حجرتها، يقترب منها.. ينظرفي عينيها، فتهرب منه.. مبتعدة، يحاول مرة أخرى النظر إلى عينيها التي احتقنتا من دموعها،

فوجدها منهمرة في بكاء صامت، راح في حنان يضمها إلى صدره، فانفجر صوت البكاء المحبوس وهي تحدثه:

- سامحني.. فقد شهدت ضدك.. وعاملتك معاملة رديئة، رغم ذلك.. قابلت السوء مني بالحسنى.. وأبيت أن تفضح أمري، أنا لا أستحق منك كل هذا الكرم، صدقني أنت تذبحني بحنانك معي

- لا تقولي هذا.. فأنتِ أختي الوحيدة، وأعز وأحب.. إنسانة لي في هذه الدنيا، غير أن كل ما أخشاه عليك هو خداع حاتم.. واستغلاله لكِ.. فهو لا يستحق منكِ كل ما تفعليه من أجله، فهو كاذب.. وتافه عبدًا لشهواته ورغباته ليس أكثر، أو تعلمين.. ماذا قال عنكِ لطارق الذي كان يحبك من أعماقه ويراكِ الملاك الطاهر البريء في هذه الدنيا؟!

وعندما سألت طارق أجابها بكل صدق.. راح يبلغها بما أخبره حاتم عنها، طالبًا منها أن تبتعد عنهما، فهما ليس بحاجة لممارسة الجنس مع أخريات.

هكذا شعر طارق أنه ثأر لشيء من كرامته.. وأوجاعه، التي تسببت له فيها .

وهكذا سقطت ريم على الأرض.. فاقدة الوعي، سقطت.. واحترقت كل الحدائق والثمار..البرتقال والرمان، طار الحمام

الأبيض من داخل قلبها.. مات حاتم وكل الرجال بالنسبة لها.

وأصيبت ريم بما وصفه الأطباء صدمة.. أدت إلى حالة اكتئاب حاد..

في مثل هذا السن؟!.. هكذا سأل والداها الأطباء، وقلوبهما تتجرعان الحزن خناجر.. تمزق صدورهما على ابنتهما، وراح الأطباء يؤكدون لهم حالة ريم، وأنها في حاجة إلى رعاية نفسية كبيرة، وفترات علاج مكثفة.

ودخلت ريم في عزلة، لا تتكلم مع أحد.. تأكل وتشرب وتذاكر، لكنها لا تتحدث مع أحد من صديقاتها أو عائلتها أو مدرسيها، سوى مُدرسة واحدة .

والعلاج لم يصنع تقدمًا في حالتها، وأصبحت لا تشاهد التليفزيون.. ترتدي الملابس الواسعة.. تصلي كثيرًا.. وتقرأ القرآن كثيرًا.. وعيناها كانت دائمًا تدمعان.

أكان حاتم جبانًا؟!.. هو دائمًا يقول في هذله، مع الآخرين أن الجبن سيد الأخلاق، ولم يكن هذا هذلاً.. بل هي أكبر حقيقة منبعثة من أعماقه.

حاتم يعي تمامًا ضعفه التام في مواطن عدة؛ ولذلك فهو يلجأ كثيرًا إلى الحيلة، ويتربص بالفريسة.. منتهزًا غفلة منها، ولا ينقض عليها أبدًا وجهًا لوجه. فهو لا يتشاجر مطلقًا في المدرسة إلا ومعه

أصدقاؤه أو طارق، وإذا ما رفع أحد الحذاء وضربه به وهو بمفرده، يناوله الحذاء قائلاً: خذ حذاءك الذي طار منك.. كان سيأتى فَي..

هذا ومن الممكن أن تحين الفرصة، وينفرد بهذا الشخص وهو مع أصدقائه.. أو طارق، فيظل يكيل له ضربات متتالية.. بلا رحمة، وهذا لا يعني أنه لا ينسى حقه.. ويثأر حتمًا لنفسه، لا مطلقًا الأمر كله أن الفرصة أتت.. وسمحت له بهذا، وإن لم تأتِ وتسنح؟.. لا شيء.. ينسى.. أو بعبارة أوضح يتناسي، وبداخله مجموعة كبيرة من الأطباء والصيادلة، الذين يستطيعون تخييط الجروح، ووضع المضادات الحيوية عليها، حتى تلتئم وتصبح كأن شيئًا لم يكن.

هذا وفي جوف شخصية حاتم كانت تسكن صفات أخرى، كرتوش متناثرة من فضائل، وعادات أخرى.. غير سيئة. فمنذ مهد حاتم وكذلك طارق، كان يأتي لهما " الشيخ عبدالرحمن "، يعلمهما الوضوء والصلاة.. ويحفظهما بعضًا من آيات الكتاب الحكيم.. وكذلك بعض الأحاديث النبوية.. يحدثهما عن فضل الصلاة وعقوبة تاركها.. وطاعة الوالدين.. وعذاب القبر.

وهذا ما نعلمه، إلا أننا لسنا متأكدين من نتيجة دروس الشيخ عبدالرحمن"رحمه الله".

وكذلك لم يتجرأ حاتم يومًا على أمه، بأي شيء.. أو لفظ خارج، وكثيرًا ما كان ينحني هو أمامها.. إذا ما استدعى هذا، أما والده محمود الجبالي.. فتعامل حاتم معه قليل، لوجوده في الدوحة.. منذ عدة أعوام، وفي الاتصالات الهاتفية بينهما كان محمود يتحدث مع حاتم بحنان وأسلوب راقٍ؛ ودائمًا يبدأ كلامه معه بكيف حالك يا حاتم بيه؟!..

كما كان حاتم: يصلي الجمعة، يحب أصدقاءه، يوفي لهم بعهوده، ويقدس الصداقة. ليس حبًا فيهم.. لكن حبًا في ذاته، وحرصه الدائم على التواجد بين مجموعة؛ لذلك إذا ما غضب على أحد من أصدقائه.. يختفي حتى ينصب له فخًا، يسحقه من خلاله.. وكأنه لم يعرفه من قبل.

وحاتم أيضًا طالب لم يهمل دروسه، ليس من أجل النجاح والتفوق، بل.. حتى لا يجعل نفسه عرضة للرسوب .

طارق .. طارق وحاتم متشابهان تمامًا، إلا في بعض الأشياء: فطارق مقدام شجاع، يضرب في الوجه، ولا يجيد الضرب أسفل الحزام، هذا إذا ما كرر الضرب.. فهو نعم لا يشترك مع حاتم في جبنه، إلا أنه يهوى تجنب المشاكل.. يؤمن أن الحل لأية مشكلة.. أو نزاع هو السلم أولاً، ولم يكن طارق هاجرًا للصلاة مثل حاتم، بل يصلي من وقت لآخر، وهو عريض الجسد، طويل القامة، أبيض البشرة.

كذلك لم يكن طارق كحاتم في شهوته وإفراغها بأية طريقة والسلام، بل إن طارق صاحب مزاج.. مدمن خطير للمرأة، بداخله براكين متفجرة دومًا.. تدفعه نحوها، ونحو كل شيء متعلق بها.. ملابس النساء تشده، كلام النساء الناعم يسحره، مشاهدة أجساد النساء مختلفة الألوان تجعله يجن، هو لا يملَ من هذه.. وهذه والأخرى، يعشق السمراء والبيضاء.. الخادمة والأميرة، يثمل عندما يرى أنثى تغير ملابسها أمامه.

المرأة هي محور حياته بصورة مفزعه، فهو يصنع كل شيء ابتغائه، أوهدفه الأول والأخير من صنع أي شيء صالح أو طالح، هوالوصول إلى سر التجويف الأعظم.

وطارق لم يجعل شيئًا يمرمن تحت يده، لمجرد أنه يحمل صفة المؤنث، حتى صديقات شهيرة كان يظل طيلة جلوسهن مع أمه، يرمقهن بنظرات ثاقبة.. معلقًا عينيه على ما بين فتحات جيباتهن، والتي غالبًا ما تُظهر أجزاء من أفخاذهن.

فلسفة طارق الجنسية كانت تحمل أكثر من شعار، فعلى سبيل المثال: كان يؤمن أن الحياة لا تستحق العيش دون الأنثى، ولا أحد يستطيع العيش دون جنس.. وأرداف ونهود وفروج رصينة الشفتين، لا حياة دون "سكس ".. و" سكس " يعني امرأة رهيبة.

كذلك كان دائمًا يرفع لواء أن البُعد عن المرأة يجلب الاكتئاب، والدنو منهن يجلب السعادة.

وعلاقات طارق.. وولعه الهيستيرى للمرأة، ظهرت عليه في سن مبكر، فعندما كان طارق في الخامسة من عمره، كان والده.. وقبل سفره إلى الدوحة، يربى صقر شاهين، في بلكونة آخر الشقة، والذي لا يقربها أحد غيره لحدة الصقر، وأثناء زيارة جارة لهم وابنتها الصغيرة اختفت البنت.. بحثوا عنها مفتشين في كل الأماكن، لم يجدوها.. ولم تتوقع شهيرة أبدًا، أن تكون ابنة جارتها في بلكونة الصقر، لأن زوجها يغلقها بإحكام، ولذلك.. لم تفتش فيها، وعندما لم يتبقِ غيرها ذهبت شهيرة تنظر من خلف الزجاج، فوجدت طارق ابنها أوصد باب البلكونة من الداخل.. منكمشًا مثل فأر أسفل الفتاة.. بعدما جردها من ملابسها يقول لها: أريد أن أرى ....

لكن هذا يعني أنه لم يشارك حاتم غزو دبر سعيد؟..

بينما كانت شهيرة في زيارة لإحدى صديقاتها، مصطحبة معها دينا ابنتها، وسعيد في المنزل يقوم بعمله.

كان طارق وحاتم مغلقين على أنفسهما باب حجرتهما، لا تسمع لهما صوتًا، ومن الداخل كانا يجلسان على الأرض، أمام التليفزيون والفيديو.. وأمامهما علب البيرة وبعض من لفائف التبغ والحشيش،وقتها كان طارق في الصف الثانى الثانوى، وحاتم في الصف الثالث الإعدادى.

ها وقد تمسرح الجو من حولهما، محلقاً بعقولهما البازخة الماثلة أمام الأجساد التي تتلوى فوق بعضها، من فتيات: في سن الثامنة والتاسعة عشرة من عمرهن، بأجساد شديدة البياض والنحافة، ونهود بارزة، وأرداف عامرة، ورجال من فوقهن يأتيهن بضراوة شديدة. بينما حاتم وطارق مزعنين لصوت تأوهاتهن، وهما ينظران إلى بعضهما البعض.. ثم يشربان البيرة مع أنفاس.. ومن حين لآخر يمسك كل منهما عضوه وينتشى .

حتى حان الوقت الذي لايستطيعان فيه الإمساك بزمام أعصابهما، فاقترح حاتم على طارق– ودومًا تكون هذه الاقتراحات.. من هذا النوع من قبل حاتم – أن يجربا فكرة أحمد العسقلاني الجديدة.. والمبتكرة في ممارسة العادة السرية، وبالفعل دخلا لحجرة"الخزين"والتي تغلقها شهيرة.. وتحتفظ بمفتاحها معها، لكنهما نجحا في استنساخ كل مفاتيح شهيرة الخاصة، وأحضرا من

حجرة الخزين صابونتين فرنسية رقيقة العطر.. كبيرة الحجم، التى لا تستخدمها شهيرة إلا للضيوف، وقاما بتجويفها.. تمامًا مثل تجويف المحشي ربما بنفس الآلة المستخدمة له، ثم قاما بضبط التجويف، أوهذه الفتحة التي ظهرت في منتصف الصابونة.. والتي تسمح بإيلاج العضو فيها، فقاما فورًا بالإيلاج في هذه الفتحة المصنوعة، ومن حين لآخر يضعان الصابونة في طبق صغير به ماء أمامهما، وهما يشاهدان الفتيات.. يقمن ويجلسن.. ويتأوهن بانتشاء وحرارة.

وأثناء ما كان كل منهما يصنع هذا تمامًا، فُتح الباب.. فتوقفت أيديهما متحجرة، ينظران.. وجدا سعيد، في يده غسيل مطبق، بعدما جمعه من الحبل المخصص له في البلكونة، وقام بتطبيقه والذهاب بكلٍ في مكانه، حتى أحضر الملابس الخاصة بهما.. ليجدهما هكذا.

وما إن وضع الغسيل على السرير، حتى رأى هذه المناظر في الفيديو، ونظر إليهما.. فراحا سريعًا الواحد منهما قبل الآخر يضم فخذيه على بعضها، مداريًا عورته.. والصابونة المتعلقة بها، وظلت أعينهما هكذا متعلقة بعضهما على بعض، حتى خرج سعيد من الغرفة، بدون كلام كعادته، غالقًا الباب خلفه، تاركًا لهما نبضات عالية لقلب يرتجف.

نظر حاتم لطارق.. يحدثه بلسان يتلعثم:

- سوف يخبر أمك.. وتصير ليلتنا سوداء..

-     مؤكد سوف يقول لها.. هو مستشيط غيظًا.. خصوصًا منك أنت يا حاتم..

-     نادي عليه إذن يا طارق، وأقنعه ألا يخبر أمك، بأية طريقة.. بتخويفه أو تدليله أو.. أو أعطه مالاً.. وبعض الأشياء التي كان يرغب فيها.. وطلبها منا، افعل أي شيء.. أي شيء، فلو علمت أمك..أننا لدينا نسخة من مفاتيح غرفة "الخزين"، ودخلناها.. وقمنا بجلب أفلام إباحية.. وبيرة إلى المنزل، سوف تهد الدنيا فوق رءوسنا، وليس ببعيد أن تدعو أباك من سفره ..

ارتدى طارق ملابسه.. والتي تكاد تسترعورته فقط، خرج من الحجرة.. ولم يعد إلا وسعيد في يده، منهيًا الأمر معه، وما إن رآهما حاتم.. فابتسم مطمئنًا وقال: تعال يا سعيد – لم يقل منال – اجلس بجواري..

فبادره طارق قائلاً:

-     سعيد وعدني.. أن ما رآه سيكون سرًا بيننا..

-     طبعًا.. فسعيد أخونا الثالث.

وجلسوا جميعًا على طرف من السرير، وجهاز التليفزيون أمامهم .. مازال يمنحهما عروضًا جديدة، لفتيات لبنانيات.. راحت تجذب انتباه طارق من جديد، بينما حاتم.. بدأ يترجى سعيد، بلغة جديدة.. ألا يُخبر أحدًا مطلقًا.. بأي شيء يراه، و سعيد مشغول بما يراه أمامه، من أشياء ربما لم يرها من قبل، أو حتى سمع عنها

شيئًا، وظل سعيد هكذا واجمًا.. وحاتم يحدثه، حتى نظر إليه سعيد قائلاً: صدقنى لن أتفوه بأي شيء..

ابتسم حاتم دليل على ارتياحه، لكنه لم يدعه يخرج ، فضل أن يُمكثه معهما قليلاً.. يحاوره أكثر، ليتأكد من صدق كلامه، ثم نظرسعيد إلى النظارة السوداء، الخاصة بطارق وقال له: امنحني هذه النظارة..

حقيقي أن محمود أباهما، أرسل لطارق بعد هذه النظارة عدة نظارات أخرى، وكذلك لحاتم.. إلا أن هذا لا يمنع أنها نظارة لماركة معروفة.. وباهظة الثمن.

نظر حاتم وطارق إلى بعضهما.. يضحكان لا يدريان كيف يخرجان من هذا المأزق.. فأسرع حاتم قائلاً:

- إنها كبيرة عليك.. اترك هذه وسوف أشترى لك واحدة جديدة..

- لكنى أريد واحدة.. مما يرسلها لكما عم محمود.. لتكون ماركة أصلية.. كما تقولان لأصحابكما..

نظر إليه طارق.. ساخرًا :

- أصلية ... آاه !.. إذن سوف أحضر لك واحدة أصلية.. تكون مقاس وجهك..

اضطر سعيد أن يصمت، وبطريقة عفوية.. معتادة لدي الكثير من الأطفال فى هذا السن، راح سعيد بفضول.. يغوص بعينيه داخل

جهاز التليفزيون، يرى.. ويتعجب وهو يسألهما: ماذا يفعل هؤلاء؟!.. انظر..أيتبول هوبداخلها؟!.. انظر.. كيف تضع الأخرى.. الذي يتبول منه فى فمها؟!.. ما هذه السيدة المقززه.. ماذا يفعلون هم؟!.. وماذا كنتما تفعلان.. بهذه الصابونة والماء.. وأنتما عرايا مثلما رأيتكما؟!..

ضحكا من أعماقهما.. على حواره الساذج، وهما ينهلان ما تبقى من علب البيرة.. مع أنفاس الحشيش، وأخذا يشاهدان باقي العرض، وسعيد يسأل.. فيضحكان ضحكات مجلجلة.. يشاهدان.. وسعيد كلما وجدهما يضحكان لأسئلته الساذجة.. يتساءل أكثر، يشعر أن ضحكاتهما هذه تعني أنه يتقرب منهما ويرضيان عنه، حتى عاد الجنون وحشًا يقتحم رأس حاتم، ونظر لسعيد وللحمة المقتظ.. ووجنتيه الحمراوين، وأردافه العامرة، وصدره الذي يشبه صدر الفتاة عند البلوغ.. فطرحه على السرير.. وهو يقول له: سأعلمك ماذا يفعلون..

وأخذ يجرده من سرواله، والولد يضحك.. معتقدًا أن حاتم يبادله الهزار.

حتى نزع حاتم عنه لباسه.. وأخرج عضوه.. وهو يقترب منه، شعر سعيد أن مؤامرة تدنو منه.. امتعق وجهه وهو يصرخ: اتركني.. اتركني.. لا أريد أن أعلم..

وقف طارق مفزوعًا.. يصيح في وجه أخيه: توقف.. ماذا

تفعل؟!..

استمر حاتم غيرعابِئ بشيء.. أو رؤية شيء أمامه، سوى أرداف سعيد.. التي تهتز أسفل منه.. يقول لطارق: ألم ترَ أنه أفضل من مشروع صابونة أحمد ابن خالتك؟!

وارتمى فوق سعيد.. وما إن فتح شرجه بمقدمة عضوه.. حتى قذف.. وهو يعتصر جسد سعيد وينتفض، لكن سرعان ما فُتح باقي شرج سعيد؛ لإيلاج طارق عقب أخيه، المستأنف لهذا العبور المشهود؛ وامتلأت الغرفة بصرخات، سعيد أثناء إتيان طارق له.. البارك فوقه بجسده الضخم، فأسرع حاتم يغلق الزجاج الداخلى للنافذة، ويشغل جهاز التكييف، داعيًا طارق أن يُنهي أمره سريعًا، بينما سعيد يتلوى أسفل منه، تتقطع صرخاته ببكائه الأجش المستمر.

وهذه كانت المرة الأولى التي يوقعا بفروجهما عليه في دُبره وليشهدوا جميعاً ميلاد حياة جديدة.

وبمجرد القذف لما داخلهما.. وعودتهما لرشدهما، وقفا ينظران إلى بعضهما.. يحدقان بأعينهما أجزاء الغرفة، وسعيد مُلقى على السرير.. عاريًا، مازال السائل يتسرب من أردافه إلى فخذيه، وهما ينظران فلا يصدقان.. كأن ما حدث كان جزءًا من الفيلم الذي يشاهدانه.. لكنهما لم يفعلا..

نظر طارق إلى التليفزيون، وجد العاهرات مازلن يتأوهن..

وهن يتلولون بأجسادهن، شعر.. بل أحس أنهن يمثلن لإغوائهما فقط، وأن الحياة النجسة التى يمارسونها امتدت إليهما، دون قصد ضرب التليفزيون.. فسقط من مكانه، محدثًا دويًا عظيمًا، وانتابته حالة هيستيرية.. جعلته يحطم كل ما أمامه، حاول حاتم أن يسيطر عليه.. دون جدوى.

استمر طارق.. وهو ينظر إلى سعيد، الملقى أمامه.. كذبيح ينتفض.. يملأ الغرفة بعويله ونحيبه.

قام سعيد.. يرفع سرواله، وهو لا يستطيع التقاط أنفاسه من كثرة البكاء، يخرج من الغرفة وهو يرمى لهما بهذه الكلمات:ماذا تفعلان بي..؟!.. ماذا تفعلان بي؟!.. أنتما تقتلاني.. تقتلاني، سأقول لعم محمود.. وأخبره بكل شيء..

تعلقت أعينهما ببعض.. بدأا يخافان الصمت من حولهما، شعرا.. أن الدنيا كلها سكتت.. بل توقفت، وهي تنظر إليهما ... شيء ما يقترب منهما، سوف يفترسهما.. ويجعلهما أشلاء، عيونهما تبحث.. وتترقب هذا الانقضاض بجنون وذعر شديد..

- أحقيقي أن عرش الرحمن يهتز بمجرد إيلاج قضيب عبر..؟!.. أحقيقي ما يقال.. وأن عقوبة ما فعلناه يفوق بكثير عقوبة الزنا؟!.. وكل الجرائم التي حرمها الله؟!..

هكذا يقول طارق.. وهو يطوف بجنون، عبر أجزاء الغرفة، وكأنه رجل فقد شيئًا ثمينًا.. أو إنسانًا غاليًا، ويبحث عنه الآن!..

بينما حاتم هوى.. ساقطًا على الأرض، ولأن الجبن يسري في حاتم مجرى الدم، ولأن ملاذه وحماه الوحيد هو طارق.. هذا جعله يرتعش، تتخبط ركبتاه في بعضهما عندما رأى طارق في مثل هذه الحالة، فبمن يحتمي إذن وساتره الحصين قد انهار..؟!.. أخذ ينظر لطارق.. لا يقوى حتى على أن يتكلم، يتوقع أشياء كثيرة.. .. ويراها الآن تحدث فيه أمام عينيه.. فيتوه معها ويرجع، فهو يعلم أنه لا يحتمل صفعة واحدة من أبيه، أو قرار متهور في لحظة غضب، يغير.. أو ينسف كل شيء في حياته.. ويفضح أمره، وتعرف كل العائلة فضائحه.. وكم هو متمادي في انحرافات لم يسمعوا عنها من قبل، وأخذ يراقب طارق من جديد، الذي يصعد على السرير وينزل، وراح حاتم يجمع شتات نفسه، ليستطيع أن يتكلم: توصلت لحل ياطارق، بعد كل هذا القفز.. والطواف.. والتكسير؟!

نظر له طارق.. بدت عينه حمراء على غير عادته.. ولم يجب، فاستمر حاتم في حديثه له وكأنه يريد أن يقول: إن كلاً منا يعرف مسئولياته، فكما أني المسئول دومًا عن.. والتخطيط والمتعة، فأنت المسئول عن الدفاع وإخراجنا من المصائب، أم سوف تخذلنا هذه المرة.. وعاود يحدثه: يا طارق، ماذا سنفعل...؟...، نحن كنا نخشى أن يقول لأمنا إننا نشاهد أفلامًا إباحية!.. ماذا إذن لو قال لأبيك ما

وقع بالفعل؟!..

زادت كلمات حاتم من نوبة طارق الهيستيرية.. وأخذ يلطم على وجهه :

- أنا ابن كلب، ابن كلب؛ إني فعلت هذا..!

- حاول أن تهدأ يا طارق، كي نعرف كيف نتصرف في هذه المصيبة.

ثم جال حاتم بعينه بين فضاء الغرفة وأرضها حتى رأى النظارة السوداء، التي طلبها منهما سعيد فتراءى له كل الحلول منبعثة منها وأسرع على طارق يهمس له في أذنه.. وكأنه يهدي له طوق النجاة:

انظر ياطارق، اذهب له بهذه النظارة.. واعطها له، وحاول أن تُهدئ من روعه.. اصنع معه كما أقنعته من قبل، ألا يخبر أمنا بمشاهدتنا أفلامًا إباحية عبر الفيديو، وأخبره أنه ومنذ هذا اليوم.. لم يعد خادمًا لنا، بل هو صديقنا الجديد، وقل له عندما سنخرج بسيارة أبيك.. مع أصدقائنا، سوف نأخذه معنا؛ فقد طلب منا هذا ياطارق من قبل.. وعده أن هذا لن يتكرر مرة أخرى أبدًا، طالما أغضبه هكذا، قل له كنا فقط نحاول تعليمك ما كنت تراه عبر الفيديو.. أفضل من أن نتركك جاهلاً بهذه الأشياء، أو أقول لك يا طارق.. لا، لا.. سوف أذهب أنا إليه وأعطيه النظارة، وأخبره بكل هذا، واذهب أنت فاشتر له الكثير من الشيكولاته وعلب الحاجة الساقعة التي

يحبها.. اذهب سريعًا يا طارق.

والواضح بل المؤكد أن الاثنين كانا يهزيان، وهما يحاولان السيطرة والكتمان.. على ما وقع منهما نحوه.

قام طارق بارتداء ملابسه.. استعدادًا للخروج بعدما أخفي كل آثار الجريمة فرمى بالصابون من النافذة، حتى شريط الفيديو قام بتكسيره.. ورميه من النافذه أيضًا.. فغضب حاتم ثائرًا:

- ما هذا الذي تفعله؟!.. إنه شريط أيمن صديقك.. سوف يفضحنا.. لو لم نعد له الشريط.

- طظ فيه.. فوق ياحاتم.. إحنا بنضيع.. بنضيع!..

ذهب حاتم يبحث عن سعيد في يده النظارة السوداء، بينما فتح طارق باب الشقة لكي يذهب لشراء ما اتفقا عليه.. وقف يستدعي المصعد، وما إن أتى وفُتح بابه إلا ووجد أمه ودينا خارجين منه، تفاجأت الأم التي راحت تسأله :

- أين أنت ذاهب يا طارق؟

- سأحضر بعض الأشياء من الماركت.. وأصعد فورًا.

- إذن أحضر معك شيئًا للعشاء.

تركها.. واختفى بين جدران المصعد، يفكر ألا يعود إلى المنزل الآن ؛ فخفقان قلبه عندما رأى أمه أشعره أن العواقب لم تمر بخير، وسوف يفتضح أمرهما.

دخلت شهيرة وابنتها إلى الشقة، كان حاتم يجلس بالقرب من

سعيد، يترجاه.. يطيب خاطره، بعدما وضع النظارة في يده، وسعيد يصدر نشيجًا متقطعًا تصم له الآذان.

وما إن رأت شهيرة هذا المشهد حتى جرت نحو سعيد.. تصرخ: ماذا فعلتما به؟... أتضربان سعيد؟... أتضربان سعيد؟... أتضربان من يخدمكم، ويعول كل شيء في هذا المنزل؟!.. أتضربان سعيد؟!.. ماذا تريدان مني (ياولاد الكلب)؟!.. ماذا تريدان؟ أتريدان قتلي.. نعم تريدان قتلي!!..

ارتمت على كرسي.. أمام سعيد، وما إن رأتها دينا حتى جرت على المطبخ، تحضر لها كوبًا من الماء.. شربت شهيرة وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة، لكنها مستمرة في صياحها معهما: أتدريان ماذا أفعل لو اشتكى سعيد لجدته.. أو رحل؟.. أأستطيع خدمتكما.. أو تنظيف شقة كبيرة من طابقين؟!.. وأنا امرأة بركبة أفسدتها كثرة الخدمة لكم، وعلى طلباتكم التي لا تنتهي؟!.. ماذا تريدان مني؟!.. حتى هذا المسكين.. اليتيم.. والذي لا حول له ولا قوة.. ويعتبركم أسرته، تعذبونه هكذا !.. ماذا فعل لكما؟.. ماذا فعل؟.. إنه لا يصنع شيئًا سوى الخدمة.. وتلبية أوامركم، أيكون جزاؤه هكذا؟!.. ضربه حتى يصل إلى درجة الانهيار!..

دخل طارق وبيده الأشياء.. تحجر مكانه ،عندما شاهد هذه المظاهرة الصاخبة.. والتجمهر، منصتًا لصيحات وصرخات أمه.. والتي لم تستطع من خلالها أن توقف نشيج سعيد وبكائه، يتأكد أن

المصيبة قد حلت بهما.. تقع الأشياء من يده.. وهو يقترب من أمه: لا تصدقينه.. لا تصدقينه يا أمي إنه كاذب!

تدخل حاتم سريعًا، قبل أن يفضح أخوه الأمر: اعقل يا طارق واتزن..

ثم وجه حديثه لأمه: أنا الذي ضربته؛ فقد تعلق بنظارة طارق هذه، وعندما منعها طارق عنه، رد عليه بطريقة قبيحة قائلاً له بين عباراته خسارة فيكما كل هذه النظارات، التي يرسلها لكما أبوكما من الدوحة فاستشطت غيظًا وضربته.

وما إن سمع سعيد هذه الكلمات.. فزاد بكاؤه، اتجه حاتم نحوه: لا تغضب يا منال.. فقد أعطينا لك النظارة.. انهِ الأمر إذن.

اقتربت شهيرة نحو حاتم، وهي تضربه بحقيبتها: منذ اليوم.. لا تقل له منال مرة أخرى ،اسمه سعيد.. وحذار أن تطلبا منه أنت وطارق أي شيء مرة ثانية، فمنذ هذه اللحظة سعيد هنا في هذا المنزل شأنه شأنكم، ابني وأخ لكم، ولأنه ابني.. فهو لن يخدم سوى أمه ودينا أخته، أما أنتما فقسمًا بالله لو طلبتما شيئًا من سعيد، سآخذه هو ودينا وأذهب عند ممدوح خالكم، وسأستدعي أباكما من سفره ليأتي ويرى.. كيف يتصرف مع هذه المصايب.. التي أنجبها وتركها لي ورحل.

ثم بصقت عليهما.. وهى تقترب من سعيد تأخذه في أحضانها، حتى دينا الطفلة الصغيرة.. أخذت الدموع تتسلل من عينيها، وهي

تربت على كتفه بحنان.

لكن عندما يكون إنسان شاعر بالظلم.. والقهر، وشخص يحنو عليه قد يزيده هذا بكاًء وتلوعًا، هذا ما حدث لسعيد.. ما إن أخذته شهيرة في أحضانها، حتى انخرط في حالة هيستيرية من البكاء، لاحظت هي شيئًا غريبًا في سعيد وفي بكائه بكل هذا التوجع.. تعرف شطحات أولادها الإجرامية، لكنها لم تترك نفسها لخيالات، يستحيل أن تصل إلى هذا الحد، فهي ليست في وكر للمجرمين! وأخذت تربت على كتفه بحنان، محاولة تهدئته:

- لا تغضب يا سعيد، فصدقني أنت مثلهم تمامًا.. ولدي.

- لا أنا ليس ابنًا لأحد، اتركوني.. اتركوني، أرجوكم أذهب لجدتي، وإلا قتلت نفسي!

وما إن سمعت شهيرة هذا، وتأكدت أن سعيد نال من العذاب ما يجعله مصرًا على اتخاذ موقف، فراحت تصرخ وهي تلطم وجهها: هكذا يا طارق، أنت وحاتم تفعلان هذا بي.. لماذا..؟!..

وأخذت تبكي.. وتصرخ، تهذي بنفس المعانى السابقة، في كلماتٍ وعباراتٍ أشد قسوة، حتى ارتفع ضغطها.. كالعادة، وسقطت على الأرض.

هنا يسكت الكون من حولهم جميعًا، ويقفون كتماثيل إغريقية قديمة.. لا يتحركون لا يتكلمون.

وهذا هو الفصل الأخير، للمسرحية التراجيدية اليومية، التي

تنتهي بسقوط الشخصية المحورية الأم، وبعد قليل من الوقت نجدها فاقت، وكالعادة.. وبروتين لا يتغير في مثل هذه المواقف: يجري طارق على المطبخ.. ويأتي وبيده كوب من اللموناتا، ودينا نائمة على صدر أمها تبكي وهي تقول: ماتسبنيش يا ماما، ماتسبنيش يا ماما.

أما حاتم فيقف مثل عسكرى المرور الحائر وسط الزحام ... ولا تسعفه سوى هذه الكلمات: حرام عليكِ صحتك... ماحدش هاينفعك لو اتشليتي!

ولا تخمد هذه الضجة حتى تقوم شهيرة... وتنظر لهم وهي تربط رأسها بإيشارب(طرحة صغيرة للبيت)وتتمخط في نهاية جلبابها.. وهي تبكي، وتنذر طارق وحاتم بوابل من التوعدات، والعقابات القاسية، والتي لا ينفذ منها أي شيء، وبعد بضع ساعات تعود المياه إلى مجاريها.. تدب أنفاس الحياة في المنزل، فيعود لشكله الطبيعى، ويمسك حاتم الكاسيت في يده ويجوب المنزل.. بعدما ربط رأسه بطرحة مثل أمه.. وهو يتمخط مقلدها، فتنظر له وهي تحاول أن تخفي ضحكاتها..قائلة له: حاضر يابن" الصرمة"..

ويتحدثون.. ويتلاهون.. وكأن شيئًا لم يكن.

لم تتوه هذه الواقعة، كما تتوه أشياء كثيرة، تحدث في هذا

البيت.. كل ساعة.. بل كل لحظة.

أخذ سعيد يفكر في طريقة يخلص نفسه منهم دون الرجوع إلى جدته؛ كي لا تتركه لعمه، أحست شهيرة بهذا.. فكانت تقرأ في عين الولد التلصص لأية فرصة للخلاص منهم، وتأكدت شهيرة من إحساسها هذا، عندما كانت إحدى جارتها في زيارة لها، وما إن رأت سعيد حتى أخذت تداعبه قائلة: لو تأتي يا سعيد وتعيش معنا.. سوف أجعلك تعيش في هنا.

وتفاجأت شهيرة بتعلق سعيد بهذه الكلمات، بل أخذ محاولاً الفرار لهذه السيدة، وما كان منها إلا أنها أقنعته أن هذه السيدة تكذب عليه.. وأخذت تفهمه وهي تقول له: إن كلام هذه المرأة غير جاد؛ فليس في مقدور أية أسرة أن تجعل أحدًا يعيش معها في بيتٍ واحد سوى أولادها، ولولا أنني أتخذك ولدًا لي، لم أجعلك تعيش معنا.. فلو خرجت من هنا يا سعيد، لن تجد لك مأوى أبدًا سوى عمك.

هكذا كانت تخيفه من مغادرة بيتها، وتارة أخرى كانت ترغبه في البقاء معها؛ فعندما يقوم محمود الجبالي زوجها بالاتصال من الدوحة، تقول له بصوت عالٍ.. كي تُسمع سعيد: أرجوك يا محمود، أحضر معك دراجة لسعيد، وأي شيء تشتريه للأولاد تشترى منه لسعيد..

وما إن يسمع سعيد هذا حتى يقترب منها على استحياء، وبخطى بطيئة، يقترب منها.. يتمسح فيها كقطة جميلة أليفه.. وهو

يقول لها: قولي له يحضر جلبابًا ثقيلاً.. وعباءة لجدتي وسماعة أذن.. التي طلبتها منه ؛ كي أستطيع أن أتحدث معها.. فتسمعني.

تنظر إليه.. وصمت يخيم عليها من هذا الكائن.. الذي يسكن معهم، وينتمى إلى عالم أخر ملئ بالحرمان، تتعجب من حنانه.. وهو يطلب لجدته كل شيء، ولا يخص نفسه بأي شيء، تأخذه في أحضانها بعدما تضع السماعة.. والدموع تملأ عينيها.. تقول له: سوف أحضر أنا لجدتك كل ما تريده.

شيئًا فشيئًا.. كان يبتعد طارق عن سعيد، والسبب في هذا.. هو الحلم الذي زُرع مثل أية ثمرة صغيرة في هذا المنزل، من قبل محمود وشهيرة بأن يلحقوا.. أولادهم بكلية الشرطة، الشيء الذي انتقل هيستيريًا لأولادهم، حتى أصبح لديهم رغبة عارمة.. لتحقيق هذا الحلم؛ ولذلك ليس عجبًا.. أن ترى طارق يبتعد عن سعيد، كلما اقتربت أيام الثانوي عن الانتهاء، حتى اقتلع عنه نهائيًا؛ تهيئة منه لنفسه وجسده؛ لاجتياز اختبارات كلية الشرطة.

بالتحاق طارق بكلية الشرطة تغير الحال، فتغيرت أشياء كثيرة: أولها عودة طارق إلى سعيد، ولكن هذا حدث مرات قليلة جدًا وعلى مسافات بعيدة؛ فقد كانت تجمعه صداقات كثيرة مع

فتيات فاتنات.

وراح حاتم عن كثب يرى التغير المفاجئ.. والكبير الذي طرأ على أخيه، ذاك الصبي الذى كان يلهي ويرتع معه، ثم أصبح يرتدي بدلة سمراء اللون شتاءً.. وبيضاء صيفًا، والمهابة ارتسمت على تصرفاته، وفى نظرات كل من حوله، والأقارب في المنوفية والصعيد.. حتى سائق التاكسي والمارة يمنحونه نظرات كلها رهبة واحترام، ولا ينادونه سوى طارق بيه، فكان حاتم ينظر لحال التغير الذي طرأ على أخيه، وينظر لحاله وهو الآن في الصف الثاني الثانوي.. فراح يتوه في عزلة دون أن يدري.. متخذًا له حجرة للمذاكرة والنوم في الطابق الأول من الشقة، مخالفًا بهذا نظامها.. القائم على وجود كل حجر النوم والمعيشة والمذاكرة في الدور الثانى؛ حرصًا على نظافة الدور الأول دومًا؛ لاستقبال الضيوف.

وبهذا انفرد حاتم بنفسه وللاستبصار والتخيل والتمنى لكوكب أخيه الجديد، وبدأ يداوم على تدخين السجائر، وأصبح صديقًا للوحدة.. والمشترك الدائم للبرنامج الإذاعى "اعترافات ليلية" مع الواعدة مقدمته، والتي تطل إذاعيًا علينا بعد منتصف الليل بقليل بهذا الصوت الرخيم والذي يخرج بعضه من الأنف والبعض من الحلق، وتقوم باستقبال مكالمات.. من فتيات وشباب فاقدين للرشد، ثم تقوم بتقديم حلول عرجاء لمشاكلهم، والتي يمكن أن تعقدها أكثر،

والشيء المهم والخطير في برنامجها.. هي الفقرة التي تتيح لكل المشتركين ترك عنوانه ليتلقى الرسائل.. فيقومون بالمراسلة وتبادل الخطابات، والتي تسفر فورًا عن تبادل خروجات ثم تبادل علاقات.. و أسرة ووسادات الشيء الذي حدث مع حاتم، حيث انهالت عليه مجموعة من الخطابات، لفتيات لم يمنحهن بآرئهم سوى شظايا من العقل، وملامح غير مرضية لأي شاب حتى لو كان أشوها.

فمل من الأمر سريعًا، معتقدًا أن هذه المذيعة شؤم عليه هي وبرنامجها؛ خصوصًا بعدما افتضح أمره.. وسمعه الكثير من أفراد العائلة، وأصبحوا يسخرون منه، وبهذا لم يبق لحاتم في هذه الغربة سوى سعيد.

أوقات كثيرة.. كان حاتم يقذف قبل الإيلاج عبر أرداف سعيد؛ لمقاومته العنيفة.. وأوقات أخرى كان يتمكن منه..

وما إن ينتهي حتى ينتابه شعور بالخواء، وأن سمًا لعينًا تدفق إلى جسده. وأحيانًا كثيرة كان يلفظ ما فى معدته.. متقيئًا؛ عندما يشم رائحة نتنة منبعثة من سعيد.. تاركة شيئًا منها فيه.. فيشمها حقيقةً أوتوهمًا.. منبعثة بعد ذلك من عضوه، يلاحظ هذا أثناء حمومه، ويظل يغسل هذه المنطقة بكثيرٍ من أنواع الصابون والشاور، وهو مازال يعتقد أن هذه الرائحة عالقة فيه، وسيشمها غيره منبعثة منه، ثم يخرج من الحمام متجهًا صوب كتاب "الله".. ويظل يقرأ، وأحيانًا يبكي.. وبعد الانتهاء من القراءة.. يضع يده على المصحف، ويظل

مرددًا: بحق كلماتك هذه يا " الله ".. لن أعود إلى سعيد مرة أخرى، ولن أفعل هذا مجددًا، أعاهدك على ذلك.. يا من خلقتنى.

ثم يأخذ سيجارة.. ينفث دخانها عبر النافذة الصغيرة بحجرته، متساءلاً: لما لم تمكث معنا يا أبي؛ كي تحميني من شروري هذه؟!..

ثم ينتقل بعينه داخل الحجرة،رامقًا صورة طارق.. الموضوعة على المكتب وهو بزي الكلية، فيقترب منها وهو يحدثه: نجوت يا طارق من العقبات الصعبة، ولماذا أنت ليس أنا؟ ألم أكن أنا دومًا: الألمع، والأكثر تأثيرًا في كل من حولنا؟!.. ألم أكن أنا الأكثر تفوقًا في كل شيء؟!.. لماذا تصبح أنت مميزًا هكذا؟!.. وأنا العيون كلها تنظر لى وكأنها لا تراني؟!.. لكن لن تفرق كثيرًا يا طارق.. سأنتظر العام القادم فقط، وأصبح بعده مثلك، فكما وعدنى أبي أنه سوف يوصي علَي.. أكثر مما فعل معك، محدثًا كل اللواءات والشخصيات المرموقة في عائلته، وعائلة أمي.. كما أنه هذه المرة سوف يرسل لهم هدايا ثمينة مسبقًا.

إلا أن هناك تغيرات أخرى كثيرة حدثت، جعلت حاتم في حالة من عدم الاتزان والتشوش، فضلاً عن حقده على أخيه.. وتقمص شخصيته في بعض من الأوقات.

فبالتحاق طارق كلية الشرطة، بدأت أيضًا سيارة والدهم تخرج من الجراج كثيرًا؛ فطارق يُعتمد عليه الآن.

واليوم ذاهبة شهيرة لممدوح في المنوفية؛ لترى أمها المريضة،

قالت لحاتم:

- سوف أذهب بالمواصلات، وعندما يخرج طارق من الكلية.. اجعله يُخرج السيارة، و يأتي ليأخذنى من بيت خالك؛ لأعود معه.

- ولماذا لا أُخرج أنا السيارة، وأوصلك لبيت خالي وأعود بكِ؟!..

- أنت مازلت لايُعتمد عليك لتسافر بالسيارة وليس معك رخصة!

- كيف وأنا الذي كنت أقود السيارة المرة الأخيرة ونحن راجعون من المنوفية؟!..

- كان جالسًا بجوارك مباشرًة أخوك، هذا يعني لو سألك أحد عن الرخص ولم يجدها، سوف ينهي طارق الأمر مباشرًة.. لأنه بوليس

- بوليس آآآآه !!

هكذا كان ينمو المرض بداخله، ليرسم له ملامح القلعة الرصينة.. والتي سوف يحتمي بها بعد عدة أشهر.

وهذا شيء من أشياء كثيرة حدثت وتحدث أمام عينه، مؤكدة له المكانة العظيمة التي يحلم بها وينتظر تحقيقها.

ذهب حاتم يذاكر ويبيت هذه الليلة عند أحد أصدقائه؛ هربًا من المواجهة بينه وبين أرداف سعيد.

وعندما عاد يوم الخميس مساء، كان متأكدًا أنه سوف يجد طارق خرج من الكلية، فكم كان مشتاقًا أن يجلس مع شريك دربه.

وعند دخوله المنزل لم يسمع صوتًا لأحد، صعد الطابق العلوي.. يقترب.. ليسمع صوت الدش وطارق يغني مختلطين بصوت جهاز التسجيل، الذي وضعه فى الحمام أثناء حمومه، ولما مرَ على المطبخ.. وجد سعيد يجلس القرفصاء على الأرض.. وهو دافن رأسه بين ركبتيه منهارًا.. يبكي، نظر إليه حاتم ففهم:

- أفعلها الكابتن معك؟!.. ولماذا لم تَخرب الدنيا كما تصنع معي؟..

خرج طارق من الحمام.. وجد حاتم في وجهه يتحدث مع سعيد، وما إن رآه حاتم ..حتى أقبل عليه يعانقه بحرارة واشتياق: كفارة يا كابتن..

بصوتِ أجش أجابه طارق: أهلا يا حاتم، أخبار المذاكرة إيه؟..

ولم يبادله الترحيب، وكأنه كان معه منذ ساعات قليلة، وتركه وهو يختال بمشيته الجديدة.. متجهًا نحو غرفتهما.. تابعه حاتم إلى الغرفة.. يراقبه، وطارق يخرج قميصًا جديدًا من الدولاب، وأخرج له بنطلونًا يتناسب معه.. ناظرًا إلى حذائه الأسود.. وجده لايلمع، بصوتِ أجش مصطنعًا نادى على سعيد: منال

فى لمح البصر حضر سعيد، والذي راح يرتعش من نظرات طارق إليه وهو يوبخه:

- لماذا لم تلمع الحذاء يابن "الأحبة " – كان يتعمد أن يضع هذا اللفظ في عباراته بمناسبة وبدون – الحذاء يكون أمامي يرقص بعد ثوانٍ.

هذا بينما حاتم جالسًا يراقبه بدقة شديدة، وهو يتأمل الصغيرة قبل الكبيرة من حركاته.. وطارق من حين لآخر ينظرله.. نظرة متوارية؛ يرى الانبهار منبعثًا من عينيه، فيُرضع غروره من نظرات حاتم وانبهاره به.. يختال أكثر وهو يعلق بدلة الكلية في دولابه بحرص، وكأنه يحمل لواء شرفه واعتراف الزمان به.. ثم نظر للمرآة وهو يرمي بالمشط جانبًا: وهم تركوا لنا شيئًا نمشطه.

ثم راح يرفع سماعة الهاتف، يطلب صاحب الجراج :

- ألو.. من معي؟..

- ....

- أنا طارق بيه يابني

- ....

- آه.. أخبر محمد أن يقوم بتلميع السيارة وإخراجها.. سأكون أمامه بعد خمس عشرة دقيقة، إن لم أجد السيارة مثل المرآة.. سوف أنظفها بوجهه.

وأغلق الخط متجهًا نحو دولابه، يخرج منه سلسلة المفاتيح

الكبيرة، والتي بها مفاتيح السيارة وحجرة خزين البيت. والمعروف أن هذه المفاتيح لا يراها أحد إلا فى يد شهيرة أمهما. وضعها طارق أمامه وبجانبها علبة السجائر (مارلبورو أحمر)، وولاعة معدنية صغيرة مستوردة.. وأشعل سيجارة.. وهو يُخرج قطعة حشيش يضعها في نفس علبة السجائر.. ثم خرج متجهًا إلى غرفة أمه.. وعندما عاد كان يحمل في يده طبنجة أبيه، وما إن رآه حاتم فأصبح لا يستطيع الاحتمال، كاد أن ينفجر.. إلا أنه أمسك بزمام نفسه ؛ من أجل ألا تكون هناك حرب علنية بينه وبين طارق، وراح يسأله: هل ستأخذ طبنجة أبيك؟!..

شد طارق أجزاء السلاح.. بعدما وضع طلقات في مشط المسدس.. وكأنه يمثل فيلمًا سينمائيًا، دون أن يجيب عليه، فتجاهل حاتم تهربه من الرد.. وراح يسأله مجددًا:

- أقول لك.. هل ستأخذ سلاح أبيك معك؟!..
- نعم.. أنت تعلم لا أحد يضمن الظروف هذه الأيام.
- ظروف..! أي ظروف.. التي تجعلك تأخذ سلاح أبيك، وتعرض نفسك للمساءلة، نفترض أن أحدا.. ..

وعند هذه العبارة.. حدقه طارق بنظرات من الغضب.. أوقفته عن الكلام.. وراح يحدثه بلهجة تحذير: من يا حاتم، يسأل أفراد الداخلية؟!.. نحن فقط المنوطون أن نسأل ..

رن الهاتف، أجاب طارق.. وهو يضع من برفانه ذي الرائحة

المميزة على قميصه: أهلاً يا محمد بيه.. أنا في انتظار أحمد بيه العسقلاني، وبمجرد وصوله ستجدنا عندك.. نصف ساعة على الأكثر.

وعندما سمع حاتم اسم أحمد العسقلاني.. اندهش، فأحمد العسقلاني ابن خالتهما، في نفس سن طارق، ويقطن في المنيا، وهو صديق حميم لحاتم، ولم يكن بعد المسافة بينهما عائقًا للاتصال، والود وتبادل الزيارات، إلى أن التحق أحمد هذا العام بكلية الشرطة، في نفس فرقة طارق أخيه، وصارا يعيران بعضهما البعض كادرًا خاصًا، متقربًا أحمد إلى طارق أكثر.. مهملاً حاتم نهائيًا.

وكثيرًا ما يقضي أحمد الإجازات الأسبوعية، عند صديق له في المنيرة، خصوصًا أن نظام الكلية في إجازاتها لا يسمح بالخروج يوم الأربعاء، إلا عند بداية كل شهر، أما الأسابيع المتخللة للشهر، فيخرجون يوم الخميس.. وأحمد لا يفضل السفر إلى المنيا والرجوع فى هذه المدة القصيرة، فكان يقضي هذه الإجازة عند صديقه.. والذي لا يفترق خلالها هو وطارق مطلقًا.

تعجب حاتم من سلوك أحمد هذا، فى الانتقال من صداقته إلى صداقة أخيه ... والتقرب إليه، وراح يسأل طارق:

- أحمد ابن خالتك سوف يذهب معك؟!..

- نعم..

- ومحمد؟..

- نعم.

- كيف وأمك وأختك ؟!..

- وما المشكلة.. السيارة تسع الجميع، ثم إن أحمد يريد أن يزور خالك وجدتك.. وأفضل لي من الذهاب بمفردي، فكما تعلم أنني أملُ من القيادة بمفردي..

- ولماذا لا تطلب مني الذهاب معك ؟!..

- وأنت.. أحد شاهدك يا حاتم، حتى ما قالته لك أمك أن تبلغنى به نسيته !.. لولا أنها اتصلت بي فور وصولي..

نظر إليه حاتم.. يرى أنه لا جدوى من حواره، يقول بينه وبين نفسه: طارق لا يريدني أن أعيش معه هذا النعيم الذي ناله.. حتى لو بأقل القليل.. ولو أظهر معه أمام الناس؛ كي أقول لهم هذا الشخص الفريد النادر الحدوث.. والله أخي!..

كان قد وصل سعيد بالحذاء وهو يلمع.. ووضعه أسفل قدم طارق:

- اتفضل يا أستاذ طارق..

- اسمي طارق بيه يا غبي!..

لم يرد عليه سعيد.. ثم أخذ طارق: المفاتيح، والسجائر، والولاعة فى يده، بعدما وضع الطبانجة على وسطه وخرج.

كاد ارتطام باب الشقة يذبح حاتم.. بعدما شاهد هذه المسرحية

الهذلية، وكأنه يرى كائنًا خياليًا، يقول لنفسه: سرق طارق مني كل أحلاميs!..

وقف حاتم.. ينظر حوله، يفتش في المكان الذي خبأ فيه طارق.. علب البيرة من أمه.. وقطعة حشيش صغيرة.. فضلاً عن أجندة الهواتف والتي تحتوى على الأرقام النادرة لحسناوات مصر الجديدة.

ثم اتجه نحو البدلة ينتشلها من الدولاب.. يرتديها.. متأملاً نفسه ماليًا في المرآة.. ويمتد بنظره إلى نفسه عبر المرآة وهو يجوب الغرفة عبر أطرافها.. يرفع سماعة الهاتف كأنه يحدث أحدًا.. وقد وضع قدمه على حافة السرير: ألو.. محمد بيه أنا النقيب حاتم الجبالي.. كل شيء تحت السيطرة، نصف ساعة تقريبًا يحضر أحمد بيه العسقلاني ونكون أمامك..

يتحدث مع أشخاص كثيرة توهمًا في هذه المكالمة.. يلتفت حوله وهو ينظر نظرات حادة عاقدًا حاجبيه.. تبدو عليه الصرامة.. فهو ضابط شرس!.. يفتح الشرفة ينظر للدنيا وهو يرتدي البدلة، وكأنه سوف يرى الدنيا قد تغيرت، أو بشكل جديد، أو الدنيا هي التي سوف تراه بشكله الجديد!.. يعود ويذهب للمرآة.. يتأمل نفسه وهو يضع الكاب على رأسه.. يرفعه ثم يضعه.. وهو يؤدى الحركات

النظامية :تمام يا فندم

يظل هكذا.. مناديًا على سعيد، بصوتِ أجش مقلدًا طارق: منال..

فى لحظة يحضر سعيد، وهو مازال ينظر للمرآة.. يسأل سعيد:

- أى منا أوجه في هذه البدلة.. أنا أم طارق؟..

ينظر له سعيد وهو متردد.. يعود ويسأله:

- قل الحقيقة يا سعيد.. ولا تخف..

- طارق بيه.. محتمل لأنه أسمن منك..

ينهره حاتم.. بعدما شعر أنه هوى فى بركانِ سحيق، من جوابه:

- اغرب عن سمائي يابن"الأحبة".. واستعد فقد تكون هذه ليلتك..

يقول له هذا وهو يخلع البدلة.. متجهًا نحو أجندة تليفونات طارق، يتفحصها.. تقع عيناه على نمرة رنا يقول لنفسه :ها هي الفتاة التي عذبت الكثير من شباب مصر الجديدة.. وهم يهرولون خلفها.. وها هو طارق يجعلها تعيش أجمل قصة حب من تأليفه..

هكذا كان يقول.. وهو يطلب رقم هاتفها: ألو.. أنا طارق..

يأتيه صوتها العذب:

- طارق..؟!..

- نعم أنا طارق..

- متى خرجت ياطارق؟!.. فكم مشتاقة أنا لسماع صوتك ورؤيتك، لماذا لم تتصل بي فور خروجك؟..

- لا تسأليني..

- لماذا؟!..

- من يسأل أفراد الداخلية؟.. فنحن فقط المنوطون أن نسأل!..

وبمهارة تفوق أي ممثل عبقري، يؤدي الدور بجدارة فائقة. ليس هذا غريبًا؛ فنجاح أى دور تمثيلي متوقف على درجة الاندماج والتعايش، وحاتم يَحيا كل فصول حياته داخل بدلة طارق.

ثم يُجري مع أخرى.. وأخرى نفس هذه المكالمة، ومن الممكن أن تكشفه بعضهن، هذا لا يعني أن المكالمة تنتهى، لا.. تتحدث معه الفتاة بصفته الحقيقية حاتم؛ فهي لا فرق لديها مطلقًا كما يعتقد هو، أن سر ارتباط كل هذه الفتيات بطارق.. سحر بدلته.

وتنتهي الليلة أخيرًا بعدما يفعل كل شيء يخص طارق، حتى علب البيرة يأبى أن يترك له واحدة.. يتجرعهم جميعًا.. حتى الثمال.

والسطر الأخير يكتب بالطبع على جبين سعيد.. الذي: يتأوه، ويصرخ، ويُوَلوِل.. ولا يجيبه سوى الجنون والصمت المطبق..

خلال طريق العودة من المنوفية.. ركب محمد صديق طارق بجواره، بينما ركبت شهيرة ودينا وأحمد بالمقعد الخلفي، كان الحوار طويلاً.. يتخلله الكثير من التهريج والضحك، وقبل الوصول بقليل طلبت شهيرة من أحمد أن يأتي ليجلس عندهم أثناء فترة المذاكرة، والتي تسبق امتحان آخر العام– التي تسمح الكلية لهم خلالها أن يجلسوا بمنازلهم للمذاكرة– على أن يذهبوا جميعًا إلى الصعيد بعد الانتهاء من الامتحانات؛ لأنها مشتاقة لرؤية شقيقتها أمال.. والدة أحمد العسقلاني، والمتزوجة في الصعيد.. هذا ما قالته له، إلا أن الحقيقة.. هي لن تستطيع الذهاب هذه الإجازة إلى ممدوح بعد الذي حدث لريم بسبب حاتم، كما أنها.. لا تستطيع أيضًا أن تقضي الإجازة كلها بمنزلها بمصر الجديدة.. فلا مفر من الذهاب إلى أمال.

كانت شهيرة حريصة أن تحجز في قطار الصعيد قبل السفر بعدة أيام؛ للتأكد من وجود مقاعد.. فهي لا تقوى على السفر بالسيارة في مثل هذا الطقس الساخن هذا العام.

ويعيش أحمد العسقلاني مع أمه وأختيه، ووالده مدحت العسقلاني، في قرية تابعة لمركز ديرمواس. وأهل ديرمواس يطلقون عليه "شارعين ونخلة"؛ وذلك لصغر حجم هذا المركز التابع لمحافظة المنيا.. تحديدًا هو آخر مركز فيها.. وبعده مباشرة مركز ديروط وهو أول مركز فى أسيوط.

وديروط تحمل نفس طابع محافظة أسيوط، والتي تطبعت به ديرمواس، وأصبحت أقرب إلى جو أسيوط أكثر من المنيا. وهذه القرية التي يعيش فيها أحمد مع أسرته تبعد عن ديرمواس.. نصف ساعة مشيًا، وعشر دقائق بالسيارة.

ومدحت عبدالجليل والد أحمد العسقلاني مهندس في مصانع السكر بمركز أبي قرقاص التابع أيضًا لمحافظة المنيا، ورفض المهندس مدحت السكن في المستعمرة التابعة للشركة.. والتي تحتوي على الكثير من الفلل والوحدات السكنية، وفضل أن يذهب

بسيارته يوميًا من منزله إلى المصنع.

جد أحمد.. هو عبدالجليل العسقلاني كان عمدة هذه القرية، وبعد وفاته انتقل منصب العمدة شرفيًا.. ومجازًا إلى ابنه الكبير مازن شقيق مدحت الأكبر.. وانتقل شرفيًا أو لفظيًا فقط؛ لأن القانون عمل على إلغاء منصب العمدة في حال وجود"نقطة شرطة"في هذه القرية، بينما العرف السائد هناك عمل على عكس ذلك.. أي إبقاء منصب العمدة شرفيًا أو مجرد لفظ فقط؛ مهابة لأسرة هذا العمدة.. وكذلك شرفيًا لفض المنازعات بين أهل القرية، والمنازعات غالبًا ليست كما تصورها الدراما التليفزيونية لنا من إشعالِ للحرائق، أوقتلِ ونهب، بل إن المنازعات التي يتدخل فيها – العمدة الشرفي– تبدأ.. عندما يقفذ دجاج شخص من داره على دار الجيران.. فيأكل من طحينه(الغلال المطحونة)، أو يقوم أحد بذبح إحدى دواجن الغير معتقدًا خطأً أنها دواجنه، أو فلان سب هذا أو ضايق هذه، أو تأخر شخص في سداد قسط عليه في معاملات تجارية محدودة، أما ما هو أكبر من هذا يكون من اختصاص نقطة الشرطة.

والجدير بالذكر أن كل العاملين في هذه النقطة، يهابون هذا العمدة الشرفي.. هو وعائلته، فالخفر في النقطة يتعاملون معه بكل وقار واحترام؛ لأنهم من أهل القرية.. وكما يقولون العين لا تعلو

عن الحاجب، والعمدة وعائلته هم أسياد البلد، أما ضباط النقطة وهم الأغراب عن هذه القرية، يكونون من الضباط حديثي التخرج، وغالب الأمر لا يخلو دار العمدة من ضابط حديث التخرج، أورتبة كبيرة، أوحتى طالب بكلية الشرطة، إن لم يتوفر كل ما سبق؛ ولذلك فلابد لهم من الاحترام لهذا العمدة وذويه، لتلاقيهم في نفس الكادر الحياتي.

ويتبقى للعمدة الهيبة والاحترام في الحوار العادي.. المتبادل بين أهل القرية، فيقولون: سيادة العمدة ذهب.. سيادة العمدة قادم.. عند منزل أبويا العمدة.. بجوار طاحونة العمدة الكبير..

ورغم أن العمدة هذا أصبح رمزيًا وشرفيًا، إلا أن هناك أشياء تزال.. لا يمتلكها إلا هو في هذا البلد.. لأنها متوارثة، وكذلك لأن قليلاً ما نجد أحدًا من أهل هذه القرية يخرج بإمكانيات مادية أو عائلية كي يضاهي العمدة الشرفي وعائلته، وهذا ليس لضخامة شخص العمدة.. أو لسطو عائلته، لا.. بل للتضاؤل الرهيب لهؤلاء الناس.. ولتضاؤلهم المرضي داخل أنفسهم؛ فهم يؤمنون حق الإيمان بأن العمدة هذا.. هو ابن فرعون في هذه القرية.

فنجد: الطاحونة الخاصة بطحن الغلال، وكذلك العصارة، وفرن الخبز البلدى، ومستودع الأنابيب، كل هذه الأشياء.. ملكًا للعمدة أو أخوته أو أولاد أخوته.

وعندما قامت الحكومة ببناء مدرسة، أطلقت عليها

"مدرسة رفاعة الطهطاوى" إلا أن أهل البلد لم يطلقوا عليها هذا الاسم بل أطلقوا عليها"مدرسة العسقلاني"نسبة إلى اسم عائلة العمدة، حتى أهل القرى المجاورة، عندما يطلبون من سائق السيارة الأجرة أن ينزلهم عند المدرسة لا يقولون مدرسة الطهطاوى.. بل يقولون مدرسة العسقلاني!.. وشيئًا فشيئًا تقع اللافتة.. وتنسى الحكومة أنها كانت مدرسة رفاعة الطهطاوى، ويرسلون خطابات.. أو أي شيء باسم مدرسة العسقلاني، فلو كتبوا مدرسة رفاعة الطهطاوى ربما ذهب بها ساعي البريد إلى قبر المغفور له، المهم لن يوصلها أبدًا للمدرسة.. وهذه حقيقه تحدث بالفعل!..

وأخيرًا هناك شيئان مهمان يندرجان تحت قائمة مميزات هذا العمدة الشرفي.. وهما: لجان الصلح التابعة لوزارة الداخلية، وألقاب ذوي عائلة هذا العمدة.

أما عن لجان الصلح.. والخاصة بالفصل وحل المنازعات بين العائلات، فهي أصبحت الآن مافيا تتضخم وتكبر،حتى إنهم يكوَنون ثروات طائلة، أما عن الألقاب الخاصة بالعمدة وعائلته.. فأهل البلد لا يطلقون على أولاد هذا العمدة الشرفي، أو أولاد أخواته الرجال.. "فلان" فقط، بل يلقبونه دائمًا " فلان أبو العمدة "أي فلان ابن العمدة.. فعلى سبيل المثال أحمد العسقلاني.. لا يقولون عليه أحمد فقط.. بل" أحمد أبو العمدة "، وعندما التحق بكلية الشرطة أصبح ينادي عليه أو يلقب بـ " أحمد بيه أبو العمدة ".

إنها جمهورية الخيال الذي يتخيله الشعب فيطبقه.. ويتعايشه، مثل الأدوار التي يحفظها الممثل، وحين يؤديها تنتابه لحظات أن ما يقوله ويفعله واقع، والحقيقة هو غارق في بحرٍ من الخيال..

وأنجب عبدالجليل العسقلاني(غفر الله له ما اقترفه من ذنوب).. مازن و مدحت.

ومازن الابن الأكبر.. الذي ورث لقب العمدة شرفيًا بعد وفاة أبيه، وتزوج من ابنة خالته، وأنجب راوية وتيسير ومختار وعلاء وشاكر،حسب الترتيب العمري.. أما عن راوية وتيسير فقد تزوجتا واستقرتا.

وتولى مختار ابن مازن.. كل أعمال الطاحونة.. والعصارة والفرن.. وكافة الأشياء، وكان ساذجًا.. يعشق الطعام والإفراط في تناوله، ويقوم بممارسة كل الرذائل ليس لرضوخه لها بل لضعف شخصيته أمام أخويه اللذين يمارسان كل شيء أمامه، وحتمًا عليه مشاركتهما ولطبيعة مختار كان أخواه علاء وشاكر مسندين له كل الأعمال الصعبة، والتي تستوجب الوقوف مع الأنفار والعمال، فضلاً عن تعنيفه والاعتداء على حقوقه المالية.. بشكل مبالغ فيه، أما هما فكانا منوطين للإشراف على العمل.. والتصدي للمشاكل، وجلسات البيع والشراء.. وكافة التعاملات المالية.

وكان لكل منهما علاء وشاكر حصانًا خاصًا.. يذهب به إلى الغيط (الحقل)، ومازال أهل القرية يعتقدونه الحصان العربى الأصيل.. ومن يركبه هو ابن الباشا، في حين أنه حصان بلدي.. وبلدي أي حصان لا علاقة له بالجياد الأصيلة.. عربية أو غيرها، وكانا يضعان الكرباج تحت سرج الحصان.. ويتباهين بحمل السلاح، وبالطبع الإقدام دون معنى على شرب الخمر.. الحشيش وخلافه، فضلاً عن مضاجعتهما لفتيات ونساء الغيط، وكانت سهراتهما بوضع الأريكة خارج الدار.. بالقرب من الترعة الصغيرة، بعدما يكنس أمامها عامل.. ويقوم برش هذه المنطقة بالماء.. ويخرجون جهاز التليفزيون والفيديو ويضعون شريطًا "لسهير زكى".. وكان هذا بالنسبة لهم بمثابة فيلم ساخن.. يجلسون هم وبعض من كبار عائلات القرى المجاورة.. مع أنفاس الدخان وزجاجات البيرة.. والعشاء الدسم، ولا يتم هذا علنيةً، فعندما يحل الليل بظلامه على هذه القرية.. فنادرًا ما تسمع أوترى أحدًا.. ومن الممكن أن يقوم علاء وشاكر بعقد الاتفاقيات.. والمصالح، أو تدبير مكيدة لأحد في مثل هذه الجلسات.

أما عن "مدحت".. الابن الأصغر للعمدة عبدالجليل العسقلاني، التحق.. بكلية الهندسة جامعة الإسكندرية، وقد توفى

أبوه قبل تخرجه بعامين.

وجمعت الدراسة بين مدحت العسقلاني وبين محمود الجبالي، وأصبحا أقرب الأصدقاء لبعضهما.

وكان محمود الجبالي.. منحدرًا من أصول عريقة بالمنوفية.

ولم تتأثر هذه الصداقة بانتهاء الدراسة.. بل توطدت أكثر؛ فمحمود الجبالي.. كان سببًا في تعيين مدحت العسقلاني مهندسًا.. في مصنع البنجر بكفر الشيخ، كما زوجه من أمال شقيقة شهيرة خطيبته.

ثم انتقل مدحت إلى الصعيد، وقد أنجب.. أحمد وابنتين، وعمل في مصنع السكر"بـ أبي قرقاص"، وهو الآن كبير المهندسين.. واقترب من منصب مدير المصنع.

ولم يكن هناك وفاق بين الأولاد الذكور للشقيقين" مازن، ومدحت"وذلك بسبب إخفاق"علاء، شاكر ومختار"أولاد "مازن"في التعليم؛ فقد حصلوا على شهادات التعليم المتوسط بالكاد، بينما استطاع أحمد أن ينهي الثانوية العامة فأعطى بهذا فرصة لأبيه.. أن يستغل كل الرتب والمناصب في العائلة؛ لإلحاق أحمد بكلية الشرطة. وبهذا حققت العائلة حلمها في استمرار اسم العسقلاني في الداخلية..

بينما ظل أولاد" مازن" يشعرون بالنقص والاحتكار.. لذواتهم، لأن أحمد سرق منهم أكبر شيء، تتباهى وتتفاخر به مجتمعاتهم، مثل تفاخرهم ببكارة فتاة ليلة عرسها.

كان أحمد، طويل القامة.. بجسدٍ ضخمٍ مترهل بعض الشيء.. ووجه أبيض مستدير، وشعر ناعم خفيف، يبدأ من منتصف رأسه.. فيظهر جبينه العريض.

وأحمد وطارق متشابهان في أشياء كثيرة.. حتى شكل الجسد والوجه، وكذلك تفضيلهما للخمر عن المخدرات، يدخنون نفس نوع السجائر"مارلوبوروأحمر"يمتلكان ذوقًا واحدًا في اختيار ملابسهما، متفقين تمامًا أن الدنيا بحر من النساء.. وحتمًا عليهما ألا يتعلما العوم، ويغرقا حتى العمق.. وتحت العمق وبداخله.. في هذا البحر.. وهذا الجسد.

إلا أن أحمد يختلف عن طارق في شيئين: وسامته، وكذلك امتلاكه نوعًا خاصًا من الخيال.. في حكاياته وأحلامه.

وفي الحقيقة أحمد العسقلاني كائن حدث بالفعل. كان يمتلك نوعًا من الخيال و"الفانتازيا" الخاصة بعالمه هو وحده.

في المرحلة الثانوية كان أصدقاؤه يطلقون عليه أحمد الرهيب، ويلاحظون عليه شطحاته وخياله المديد.. عند الحكى معهم كل يوم.. عن قصة جديدة مختلقة، فكان يقول لهم: إن لصوصًا تربصوا بأبي.. وهو عائد من العمل البارحة، وما كان منه إلا أنه قام باستدراجهم حتى السرايا(البيت)، ثم أسرع بإخراج الأربيجيه من غرفة السلاح.. وأطلق عليهم النيران.. حتى تفرقوا.. وفروا هاربين.

ويسارع أحدهم يسأله:

- أفي بيتكم أربيجيه؟!..
- بالطبع..

ويسارع آخر من أصدقائه وهو يبتسم ابتسامة خبث – (أي ما هذا الخيال) – قائلاً: أحمد لا يسكن في منزل عادي.. مثلنا بل هو يسكن بسرايا العمدة.. فلابد من وجود أربيجيه فيها!..

وآخر يغمز بعينيه متمتمًا بينه وبين نفسه: أتصدقون هذا الأبله؟!..

وهناك من أصدقائه من يصدق حكاياته، بل يستمتع بها، ومنهم من كان يرددها لباقي الأصدقاء، على أنه والده هو الذي قام بهذا، وليس والد"أحمد".

رغم كل هذا الخيال كان أحمد يسيطر على جلساتهم.. ممتلكًا ناصية الحاكى، وهم دائمًا المستمعون.. دون أن يعارضه أحد صراحة.. أو يقول له كف عن هذا الخيال!!..

ماذا كان يصنع أحمد في إجازاته الأسبوعية، بعدما التحق بكلية الشرطة؟.. إن لم يقضها في القاهرة، كان دائمًا يفضل الذهاب إلى مدينة المنيا.

ولأن أباه لا يمنحه بصفه دائمة سيارته، ماركة "FIA 128"- والتي كانت وقتها هي والسيارة "PIGO 504"السيارات الفارهة في الصعيد – فكان أحمد يذهب هو وأصدقاؤه إلى موقف السيارات الأجرة، ويدخل عليهم مباغتًا: رخصك يابني..

بالطبع يفهم أنه ضابط، فيَهم السائق سريعًا بمنحه الرخص؛ ولأن الضابط في الصعيد شيء هلامى، غير محدد المعالم.. والمساحات الخارقة، إلا أنه راسخ في اعتقادهم أنه قوة هابطة من السماء. أفكانوا يعبدون "الله" في الصعيد؟!.. نعم.. هم ما زالوا يعرفونه، لكن الضابط كان أشد خشية.. ورهبة بالنسبة لهم، فبكل تأكيد ضابط الشرطة هو الإله الظاهر.. والشيء المقدس في كل محراب.

وما كان من السائق إلا أن لبى أوامر أحمد كلها.. بعدما منحه الرخص.

ومعظم السيارات في هذا الموقف تكون سيارة ربع نقل، ذات كابينة واحدة.. ويغطي جزءها الخلفى بصاج معدني، – لتعبئة

الناس بداخلها – وكانوا يطلقون عليها "التيوتا".

يقود أحمد السيارة.. وبجواره اثنان من أصدقائه، في غالب الأمر لايكونوا أصدقاء من كلية الشرطة، يتجهون نحو مدينة المنيا.. يتقابلون مع الأصدقاء، يتناولون العشاء في المطاعم المعروفة في المدينة، ثم يتوجهون إلى المغزى الحقيقي من هذه النزهة ، وهي التمشية على الكورنيش.. واصطياد ما يقع من نصيبهم من حسناوات.. أو ما شابه ذلك.

أفي المنيا يحدث هذا؟!.. إنها عروس الصعيد!.. نعم يحدث هذا.. مثلما يحدث تمامًا في شارع.. عباس العقاد ليلاً أو شارع.. جامعة الدول العربية، وفي المنيا يتم ذلك في أماكن محدودة.. أهمها الكورنيش، وكورنيش المنيا شتاء اسم ليس أكثر، فمن الناحية الجمالية تجده كورنيشًا ينافس أي كورنيش آخر، إلا أنه بعد الثامنة مساءً لن تجد سوى أشخاص قليلة تسيرعلى طوله، وفى غالب الأمر يكونون من العشاق.. أو كما يسمونهم "الحبيبة"، والكثير منهم من المغتربين والمغتربات، ومدينتهم الجامعية آخر الكورنيش في منطقة تسمى"الاخصاص"، وهم يجوبون الكورنيش ذهابًا وإيابًا.. نحو المرتين والثلاثة، في غير مهابة؛ فلا أحد يعرفهم.

ولا مانع من وجود أماكن كثيرة عبر هذا الكورنيش.. ليجلسوا فيها دون التلصص عليهم. وبذلك يتمكن الحبيبب – الساقط من

سرواله – أن يعتصر يد حبيبته الشاحظة له بعينيها.. تترقب اللحظة التي يباغتها فيها.. كي يقبلها، وحين يقبلها في شفتيها.. وهو يرتجف.. تقول له: "إخس عليك ماتعملش كدة تانى"..

بينما تقول في نفسها: إيه البوسة دي يا خايب.. دي لو أمي.. باستنى هاتبقى أشد من كدة!..

وهذه بعض قوانين كورنيش المنيا، والذي كان يجوبه أحمد العسقلاني.. وأصدقاؤه اليوم ذهابًا وإيابًا.. بحثًا عن طيرٍ وإن لم يكن ثمينًا، ها وقد وجدوا، ثلاث فتيات.. أو بالمعنى الأدق فتاتين ونصف الفتاة؛ حيث واحدة منهن قصيرة.. وإن لم يكن هذا واضحًا، لأن صديقتيها متوسطي الطول.

استدار أحمد بالسيارة وقام بمغازلتهن، وبمجرد ما إن رأته القصيرة(أو النص).. بسيارة أجرة.. فقامت بسب أحمد.. وكانت الشتيمة.. " كذا أمك " .

توقف أحمد بالسيارة.. وأنزل لهم أحد أصدقائه.. المشهود له بالكفاءة.. في اصطياد الفتيات..– عفوًا من كانتا فتيات–، ولأن القصيرة وقفت تحدج صديقه بنظرات غير مطمئنة.. ويدها في منتصفها، ففهم صديق أحمد أنها قصيرة القامة طويلة اللسان،

فتوجه نحو الطويلة.. يطويها بمعسول الكلام.. يعطيها ما لذ منه وما طاب، ولا مانع من أن يذكر عبارات تظهر قوته المادية والتكنيكية في الحوار.. بلا ملابس، وأخيرًا يتبقى الكارت الأخير.. والذي يعلم أنه شبك متين لا تقوى الفريسة على الفرار منه، يظهر هذا عندما يقول بصوتٍ حاسم:

- نحن لا نريد مضايقتكم.. إذا كنا نريد هذا.. فما أسهله، لأننا ضباط شرطة.

- حقيقي ضباط شرطة.

هذه هي اللحظة الحاسمة التي كان يترقبها أحمد.. وما إن يسمع هذا حتى يفتح باب السيارة وينزل.. يسير نحوهم في تؤدة، وهو يرسم مشية ضابط الشرطة في أفلام الستينيات حتى يصل.. ويظهر لهم الكارنيه.. فيخروا واقعين، تركب اثنتان مع أحمد في الكابينة من الأمام، والباقي من الخلف.. يتوجهون نحو المنيا الجديدة، والتي كانت وقتها تحتوي على قليل من الأحياء.. كثير من قبور الأموات، فيتجهون نحو الأموات وقبورهم.. وعند بوابة هذا الطريق تقف السيارة، والتي تبدأ في الاهتزاز بإيقاعات مختلفة.. سريعة ثم تبطئ.. أو العكس، حسب وقع اهتزازات وتأرجح الشهوة بداخلهم، وأخيرًا تهتز السيارة كثيرًا وسريعًا دفعة واحدة.. ثم تقف فجأة دون أي حراك!..

لا شيء فقد انتهوا وقذفوا ما بداخلهم.. فأبقتهم سكينة ما بعد

القذف خامدين.

والآن هم عائدون من حيث أتوا، وفي كل مرة ينظر السائق لأحمد ويقول له:

- من فضلك يا أستاذ أحمد أعطني حتى ثمن الجاز..

- أستاذ!!.. شايفنى واقف على سبورة؟!..

ولم يأخذ السائق سوى سيارته.. بل يبتهل إلى"الله"لو أخذها مرة دون صدمات أو شيء في الماتور.. أما الفلوس فهذا محال.

وحكى أحمد.. لطارق وحاتم، كل تفاصيل مغامراته عبر الكورنيش.. ومدينة المنيا الجديدة.. والأرداف المتسلق عليها.. حتى الوصول إلى برج النهود العالى.. والدغدغة في الحلمات البكر التي لم يطمسهن أحد من قبله، حتى تجحظ أعينهما أمامه، ويسيل لعابهما.. وترتفع دقات قلوبهما.. فيقولان له:

- نحن لا نريد السمع.. بل نريد الرؤية، والمعاينة لهذه الأدغال العارية..

- هذا ما أسهله.. على الأقل نرد شيئًا من خيراتكما السابقة..

وتندمج ضحكاتهم عالية.

وأثناء زيارة شهيرة.. لأختها أمال، قرر أحمد.. أن يأخذ طارق وحاتم.. ويذهبون إلى مدينة المنيا، على غير العادة منحهم المهندس مدحت سيارته؛ ترحيبًا بشهيرة وولديها.. والذي يرمى بشباكه عليهما لأبنتيه.. تطبيقًا للمثل الذي اشتهر استخدامه(اخطب

لبنتك وارمِ ابنك).

عندما وصلوا إلى المنيا، اتجهوا نحو شارع.."طه حسين"، تحديدًا أمام بوابة النادي الرياضي، أكثر الأماكن حيوية وتجمعًا للشباب. هناك استوقفهم محمود الدهان.. الطالب بالفرقة الرابعة من كلية الشرطة.. وابن اللواء أحمد عبدالمجيد الدهان مساعد مدير أمن القاهرة آنذاك، وقد تعرف محمود الدهان على أحمد العسقلاني في الكلية، ولأن محمود من نفس محافظة أحمد، بل جذور عائلته تنتمي لنفس المركز التابع له؛ توطدت الصداقة بينهما. وعرف أحمد.. محمود بطارق الجبالي، وفي كل إجازة كان يصطحبهما طارق معه إلى أماكن جديدة.. ليسهروا معًا .

والآن وعندما رأى محمود كلاً من: طارق الجبالي، وشقيقه حاتم، مع أحمد العسقلانى في المنيا.. فما عليه إلا الترحيب الشديد، ومحاولة رد جزء من مجاملات طارق له في القاهرة .

على بُعد ٢٥٠م كان يقف حسام الدهان، شقيق محمود الأكبر.. وهو في السنة الأخيرة من كلية الهندسة.. انتهى من الامتحانات وينتظر النتيجة، مثل أخيه محمود.. الذي يصغره بعام.. وانتهى أيضًا من امتحانات الصف الدراسى الأخير في كلية الشرطة.. وينتظر النتيجة.

وكان حسام الدهان واقفًا مع صديق له.. قصير ونحيف.. لكنه

من أوائل الدفعة، وكانت ضحكاتهم تتخلل نقاشهم.. عبر مستقبل ما بعد التخرج.

أثناء ذلك كانت هناك سيارة"PIGO 504" بنية اللون، تمر عليهما ذهابًا وإيابًا، فجأة توقف الحديث.. شردت عين حسام هناك.. تعلقت على السيارة التي يقودها شاب خمري اللون، وبجواره تجلس رانيا الكومي.. وشهرتها"رانيا عجينة"، ورانيا ابنة لرجل ثري.. مازال يعمل في"أبي ظبى"، بينما هي تعيش مع أخيها الطالب بمعهد المنيرة. وتذهب رانيا لأخيها في القاهرة أثناء الإجازات الأسبوعية، أو يحضر هو للمنيا، وكذلك الاثنان رانيا وشقيقها يسافران أبا ظبى لوالديهما في الإجازة الصيفية، غير ذلك وطول مدة العام الدراسي رانيا حرة طليقة.. تلهو وتلعب مع من تحب من الشباب(الجامد)، والجامد أي ابن لعائلة معروفة في المنيا، وعائلة معروفة أي بها أكثر من رتبة كبيرة، ومصطلح عائلة معروفة.. يتسع أيضًا ليشمل نوع مهمًا من الأشخاص وهم.. مجموعة من المجهولين: الأصل.. والنسب.. وربما العرق.. ها وقد وهبتهم الطرق غير المشروعة ثروات طائلة، ربما عن طريق: أثار، السلاح، أو المخدرات

وهؤلاء الشباب المنتمون لهذه العائلات يعرفون بسيماهم.. فالشاب منهم دائمًا ما يكون لديه سيارة بشكمان مثقوب.. وصوت عالٍ، وسيجارة تتدلى من فيه.. سواد رهيب طلى أسفل عينيه.

وترحب رانيا عجينة بكل هؤلاء الشباب.. وبكل تأكيد ترحب أيضًا إذا ما كان شابًا في كلية الشرطة.. أو ضابطًا حديث التخرج.

وإذا ذكرنا رانيا عجينة وشباب المنيا، فلابد من توضيح شيء مهم.

وهو.. أن الصعود لهضبة رانيا عجينة.. والإقبال العجيب من الشباب عليها، ليس فقط: لأنفها المدبب الساحر، وعينيها الواسعتين، أولشعرها المنسدل الناعم، أو لقوامها الممشوق، أو لنهديها المنحوتين بدقة متناهية، لا.. ولا حتى لأردافها البارزة.. ..، لا.. ليس لكل هذا فقط !!..

بل إن رانيا الكومي.. هي تحدٍ بزغ بداخل الشباب، وشيء أصبح واضحًا وجليًا.. أن الشاب الذي ينجح في إقامة علاقة مع رانيا، يعنى أنه حاز على اللقب، وهو من شباب المنيا(الصايع).. أو بلغة أخرى لا تتناسب والموقف(يُرفع له الشابو).

ولهذا فإن التهافت على هذه الأنثى.. حولها إلى رمز، فالشاب الذي نجح في اختراق حصونها.. وخرج معها.. وتزلج من أعلى جسدها حتى أسفله، يتبقى له اللحظة الذهبية.. والتي فعل من أجلها كل هذا، وهذه اللحظة تكون عندما.. يجتمع مع أصدقائه، والذين عرفوا أنه رفع كأس النهود.. وحاز على اللقب، فينظرون له بانبهار.. ويقول أحدهم: ابقى فيمّ عربيتك.. المنيا كلها كانت بتتفرج عليك.. ورانيا معاك..

وبالطبع لو السيارة بها زجاج فاميه.. لأسقطه حتى تظهر رانيا من خلفه، ولسيناريو اللحظة الذهبية باقي.. عندما يحكي(عنتر زمانه) لأصدقائه.. ما فعله بالأمس فوق جسد رانيا، والكل مصغ.. يستمع في صمت رهيب، وكأنه يستمع لخطاب"ناصر"عند تأميم القناة!..

ومؤخراً تركت رانيا عجينة، حسام الدهان.. شقيق محمود؛ من أجل شاب يقطن بمركز"سمالوط"، يقول حسام عنه: ولد فلاح.. وجاهل، يركب سيارة.. ويأتي لها بهدايا،حتى أصبحت خارج نطاق الخدمة.. عن كل الشباب..

وهذا الشاب هو الذي يراه حسام الآن، يقود السيارة.. ورانيا بجواره، وراح الغيظ يتسلل إليه حتى تمكن منه، كلما رآهما في السيارة.. يضحكان ويدخنان، فرماهما حسام بعبارات.. جارحة، نزل على فورها الشاب.. متشابكًا مع حسام في شجار كبير، ولم يستطع حسام وصديقه ضئيل البنيان.. صد ضربات الشاب القوية، حتى تهاوى حسام ساقطًا على الأرض، والدماء تسيل من فمه.. وأنفه، وما إن رأى الشاب منظر الدماء.. وحسام ساقطًا على الأرض.. يلتقط أنفاسه بصعوبة، حتى أخذ سيارته وفر، بينما صديق حسام.. أسرع مهرولاً، نحو محمود.. يبلغه ما حدث.

عندما سمع محمود.. شقيق حسام، ماحدث لأخيه..

انتفخ وجهه بحمرة كاللهب، واتسعت عيناه.. وكأنها آلة حربية.. سوف ينطلق منها مدفعية ناسفة، ودون أن يشعر.. وفي لمح البصر، قطع المسافة.. بينه وبين أخيه، وخلفه كل أصدقائه.. بالطبع من بينهم: أحمد، طارق، وحاتم.

وراح البعض يرفع حسام من الأرض.. يغسل له وجهه، وأحضروا له علبًا من العصير، بينما البعض الآخر.. بزعامة محمود.. كانوا يتساءلون عن الشخص الذي دعت عليه أمه وفعل هذا بحسام، وأثناء هذا الهياج الصادر منهم.. وكأنهم مجموعة أسود جائعة، وقطيع آخر مجهول من حيوانات ضالة.. أكلوا صغارهم، ظهر الشاب وبجواره رانيا، كان يسير بسرعة من أمام حسام.. وكأنه يريد أن يعرف ما حدث بعد فعلته، وما إن لمحه صديق حسام من بعيد.. حتى أشار عليه لمحمود، فأسرع محمود نحوه معترضًا طريقه، حاول الشاب تفاديه.. لم يفلح؛ فقد قطع أصدقاء محمود عليه الطريق، ورغم ضخامة جسد هذا الشاب، إلا أن محمود تناوله من السيارة كدمية صغيرة، موجهًا له ضربات محترف.. يعي أماكنها وتأثيرها، وكأنه لا يرى أمامه وجه الشاب، بل يرى وجه أخيه.. الذي ينزف من أنفه، فأخذ يسدد له ضربات متتالية، إلا أن الشاب نجح بالفرار من يده، زاحفًا إلى سيارته مخرجًا سلاحًا ناريًا من التابلوه، واتجه.. سريعًا نحو محمود.

وما إن رآه محمود.. فضحك له بسخرية، مبعدًا أصدقاءه.. الذين كانوا سينقضون عليه.. نازعين منه السلاح، فأوقفهم محمود.. مقتربًا من الشاب بتؤدة وثقة.. وصفعه على وجهه.. وهو يقول له: أتشهر السلاح.. في وجه من يعلمون بلدك.. كيف يستخدمونه؟!..

واشتبك مع الشاب مجددًا، في شجار وعراك شديد.. محاولاً نزع السلاح من يده، ومن قرب وقف أصدقاؤه.. يراقبون انقضاض محمود عليه.. تقدم أحمد العسقلاني نحوهما، عندما رآى تشبث الشاب بقوة في سلاحه.. فراح يساعد محمود.. وهو يضرب الشاب ضربات متتالية.. في أماكن متفرقة، كي ينزع من يده السلاح.. أصبح الثلاثة كتلة واحدة، من شدة عراكهم والتحامهم ببعض، وشعر باقي أصدقائهم أن الأمر ينذر.. عن نتائج غير متوقعه، خصوصًا بعد تجمهر المارة من حولهم، فتقدم طارق وحاتم يساعدان ابن خالتهما، وخلفهما الباقون.. محاولين التدخل لفض هذا الاشتباك، لكن القدر.. كان أسرع منهم خطى.. فقد خرجت طلقة من السلاح.

كان اتجاه الطلقة.. الخارجة من خزانة سلاح الشاب، صوب قلب محمود الدهان.. الطالب بالفرقة الرابعة.. والذي ينتظر إعلان النتيجة.. ليعلق على كتفه الدبورة الأولى له.. ويصبح ملازمًا.

وفي الصباح دفنه والده، في مدافنهم الخاصة.. "بالرحمانية".. التابعة لمركز ديرمواس.

ونتذكر هذا المشهد.. فهو لا ينسى.. عندما أدخلوا محمود قبره، ونادى أحد.. كعادة دفن الموتى.. على واحد من أهل الميت ؛ كي يدخل معه قبره.. يفك له كفنه.. وينظر عليه نظرته الأخيرة.. ويهيل على وجهه التراب.

وفعل هذا.. اللواء أحمد عبد المجيد الدهان، متقدمًا .. بقدمين تتهاوى.. نحو قبر ولده، ثم دخل قبره.. وعندما خرج، كان شخصًا آخر.. غير الذي دخل من دقائق على ولده، ومالا ُينسى أيضًا.. عندما سقط أحمد عبدالمجيد الدهان على الأرض.. وكأنه جالس بمفرده، لا يرى أحدًا من حوله.. يرفع التراب من أسفل قدميه.. ويهيله على رأسه.. مرات عدة.

ورفض الدهان أخذ العزاء، وهذا يعني في الصعيد الإعلان عن الثأر، لولا تعليمات مشددة من وزير الداخلية.. بقبول العزاء.

وجاء محامٍ من القاهرة، نعرفه جميعًا هو وابنه. وفى خلال عشرين دقيقة.. استطاع أن يثبت براءة القاتل، استنادًا على مادة مهمة.. فى قانون العقوبات، تحديدًا في باب الدفاع الشرعى.. الدفاع عن النفس.. والذي أثبت اكتمال شروطها في هذه الجناية، وقضت

المحكمة على القاتل، بستة أشهر مع إيقاف التنفيذ؛ لحمله سلاحًا دون ترخيص.

"ليس هذا ما نشرته الجرائد فحسب، بل هذا ما حدث بالفعل".

وفي اليوم الثالث.. وبعد انتهاء هذه الواقعة.. وتوابعها دعا أحمد.. طارق وحاتم، أن يذهبا لمدينة المنيا معه مرة أخرى، لكنهما قالوا له: بعد هذه المرة الشؤم.. لن نذهب هناك مرة ثانية..،

واقترح طارق عليهم.. سهرة طريفة، مع راقصة.. لم يروها مطلقًا، أسرع أحمد:

- ومن أين ستأتي لنا بهذه الراقصة.. ونحن هنا ؟!..

أجابه حاتم :

- سيطلبها دليفرى.. من القاهرة !..

وحقًا أتى طارق لهم.. براقصة، ولن يُنسى هذا اليوم من حياة هذه الراقصة.. المقهورة.

فقد ذهب طارق بالضغط تارة.. والتحايل تارة، حتى أحضر سعيد.. بعدما قام بوضع المساحيق على وجهه، وربط له رأسه بمنديل بأويا(إيشارب مشهور فى الفلاحين)، وجعله يرتدى جلبابًا حريميًا مزركشًا.. أحضره له أحمد، وربطه على وسطه.. حتى ظهر كأجمل فتيات الفلاحين.

ولحُسن الحظ.. كان المهندس مدحت يقضى هذه الليلة في العمل، لتواجده في نوباتجية مهمة.

وتوجه هذا الحفل.. الملتف حول الراقصة إلى الفراندة الكبيرة (هى مساحة تتوسط البيت من الخارج، تحفها بعض الأعمدة والأريكات)، وقاموا بتشغيل جهازالتسجيل بموسيقى راقصة، وأخذ سعيد يتمايل معها.. يرقص مع دقات الطبل، وهم ملتفون من حوله.. يضحكون.. يصفقون.. يقولون له: هيا.. يا منال

وظلوا هكذا.. حتى جاء على هذا الضجيج، أولاد العم مازن: علاء، وشاكر، وما إن رأوا هذا فانفجروا فى نوبة ضحك هيستيرية.. وهم يتساءلون:

- من هذه.. التى ترقص؟!..

وقع حاتم على الأرض.. من كثرة الضحك.. وهو يقول: هذه منال.. ألم تعرفوها؟!..

وعلا صوت شاكر وهو يقول: لاااا.. هذه ستكون سهرة نادرة التكرار.. تعالوا إذن إلى الجهة الأخرى..

والجهة الأخرى..هى نصيب مازن من دار أبيهم العمدة، وجلسوا أيضًا في(الفراندا)التي تخص هذه الناحية، بعدما أخرجوا جهاز الفيديو والتليفزيون، وقاموا بتشغيل شريط راقص"لسهير زكي".. معشوقتهم، ثم قام علاء بربط وسط سعيد من جديد.. قائلاً له:

- انظر إلى(أبلتك)سهير.. وافعل تمامًا مثلما تفعل.. " بس للأسف هذين ليس بحجم هذين"..

وأمسك بيده قابضًا على صدره.. ثم أردافه.

وقاموا بلف السجائر.. المطعمة بالحشيش؛ ترحيبًا بالراقصة.. ومن امتلكوها طارق،حاتم..وأخذوايدخنون..وينظرون..ويضحكون.

وإذا بمختار هذا الساذج..الذي يعلوعند ارتفاع الموجة.. فيركب، وتنخفض.. فينخفض معها وينزل، آتيًا ينظر إلى من يرقص بعينيه الجاحظتين.. وهو يقول: على الطلاق.. لم أعرفك!..

أمسك به أحمد وهو يبعده عن سعيد.. يقول له:

- هذه منال ..
- ومن أطلق عليها منال.. سعاد أفضل أو إصلاح.

وقام علاء يمسك يد سعيد، داعيه أن يرقص أكثر.. وباندماج، وهو يضربه على أردافه.. فتهتز، فيقبل عليه شاكر وهو يقول: عيب.. دون ضرب يا علاء، فأنت تعرف أن جسد منال طري وحساس.. لو رفعت الجلباب الآن.. ستجد مكان يدك محمرًا بلون الدم.

ويرفع سعيد عينيه.. فلا يرى، سوى الدخان المتصاعد من أفواه متشبعة بالحشيش، فظل يرقص دون أن يتفوه بكلمة، وما كان يحدث.. لا شيء سوى.... ودمعات قليلة تتساقط من عينيه.. من حينِ لآخر.

ويعود علاء.. يكرر ضرباته على أرداف سعيد، وآخر يرفع الجلباب يرى أثار أصابع علاء، خطوط حمراء على لحم سعيد شاهق البياض، فيأتي مختار.. ينظر وهو يقول: لو أعلم محل يبيع بدلة.. مثل التي ترتديها أبلتك سهير.. لذهبت واشتريتها لك، فهي ليست خسارة في هذا الجسد الناعم ..

وظهرت من هناك أشباح.. تمشي في تمهل، فكانت النسوة: شهيرة، آمال.. حتى وصلتا، لتشاهدا مراسم الحفل الساهر.. في الفراندا، الطائر بداخلها سحبًا من الدخان.. وأسفل السحب.. راقصة.. وضحكات مجلجلة.

اقتربت آمال من سعيد، تتفحصه.. تحدثه باللهجة الصعيدية التي اكتسبتها من زوجها، ثم تعود وتنظر إلى سهير زكي وهي ترقص.. ثم إلى سعيد الذي يقلدها، والشباب من حوله.. فتقترب منه أكثر.. وهي ترسم الاندهاش على وجهها: يخرب بيتك.. يا منال!.. أتقومين بإغواء الشباب.. وفتنتهم جميعًا؟!.. ألا تخافين.. فهم كثير على واحدة؟!.. أتتحملين.. كل هؤلاء الذكور وحدك يا فاجرة؟!..

هذا ما قالته.. حتى اندمجت هي وأختها، مع أولادهما الشباب.. في الضحك والتصفيق.. ومشاهدة سعيد، وهو يقلد سهير زكي.. ويرقص، وسعيد ينظر لهم جميعًا.. يشعر أن راحة قدميه أصبحت

إسفنجية، وأنه يطئ بقدمه عالمًا ليس حقيقيًا، يشعر كلما نظر إليهم أن الأرض تدور، فيهبط.. شيئًا فشيئًا، وأنه بعد قليل سوف يتلاشى، يتلاشى ويصبح لا شيئًا.. ولا أحد يراه، أو يرى هذا العار.. والذل، والذين يحلبونه منه.. متجرعين إياه، وكأنه خمر.. وعسل.. ولذة، كلما رقص.. تجرعوه، حتى كاد يسقط على الأرض.. لكنه اهتز مترنحًا، فيرونه يرقص وهو يموت.

كانت قد طلبت شهيرة.. من شقيقتها آمال، أن تبحث لها عن خادمة، تقيم عندها في مصر، فهي ترى في عين سعيد أنه يريد أن يخرج.. بلا عودة، وتخشى لو حدث هذا لا تستطيع القيام بأعمال المنزل، وطلبات أولادها.

أهل البلد يعرفون تمامًا، أن العمل عند أسرة مثل أسرة شهيرة، وأمثالها من أقارب العمدة، يعني أن أمها دعت لها في ليلة مفترجة؛ لأن أقارب العمدة.. لابد أن يكونوا عائلة ميسورة الحال، وذوي نفوذ وسلطان، ولذلك ليس غريبًا أن تجد بدرية، مع أول خيط منير من الفجر.. متجهة نحو دار العمدة، بعدما دعتها أمال بالأمس، وزف لها المرسال البشارة.

وبدرية هذه ليست خادمة فحسب بل هي الرمز الحقيقى لمجتمع كامل يعيش حول العمدة وأولاده.

فلم يجعل العمدة من نفسه إلهًا، بل هم الذين صنعوه، كذلك لم يرَ أحمد نفسه بكل هذه المهابة، كطالب في كلية الشرطة، لأنه هكذا.. أو بدلته تستطيع أن تسخر له الجن، بل هم الذين جعلوه على هذه الصورة.

فلبدرية موروث شعبي أصيل، كان.. ومازال يؤله الأشياء من حوله، فيجعلها تتأله عليه.

دخلت بدرية.. تجلس مع شهيرة بينما اختفت آمال.. في المطبخ تُعد الفطار.

كانت بدرية بجسدٍ ملفوف، ونهدين بارزين منسدلين من داخل الجلباب.. يتأرجحان كلما مشت... فهما حران طليقان، دليل على أنها لا تضع حمالة الصدر، وجنتاها البيضاوان الناعستان.. تكسوها حمرة الفلاحات المعهودة، بعينين كاحلتين.. وشعر أسود مموج،

وردفين بارزين.. أى أنها امرأة في الرابعة والعشرين من عمرها، تكسرت جينات الأنوثة أسفل قدميها لتصبح جسدًا طاغيًا.. على كل من حوله.

جلست بدرية على الأرض، بجوار قدم أمال التي تجلس على كرسي كبير، وأخذت تلقي التحية.. والود بكلمات الفلاحات، ومدى سعادتها لأنها سوف تخدم في بيت العز والأصول، وأنها ستصنع لها كل شيء، ولن تجعلها تمد يديها في أي شيء.

كانت تتحدث بدرية.. وهي تأخذ(ترمس)من يدها اليسرى بيدها اليمنى.. وتضعه في فمها، وهي تتحدث وتخرج القشر من فمها.. بطريقة بذيئة.. تضعه على الأرض بين رجليها، حتى أثارت أعصاب شهيرة.. والتي راحت تنهرها:

- ما هذا الذي بيدك؟!..
- ترمس يا ستي..

وأخذت تحكي لها عن قصة الترمس، وزوج أختها.. وهي تضحك، مستمرة في أكل الترمس: لا تؤاخذيني يا ست شهيرة.. ولا تحبي أقولك يام البيه زي ستي آمال؟..

نظرت لها شهيرة دون أن ترد. بينما بدرية مسترسلة في حديثها معها:

- لا تؤاخذيني.. أصل حكاية الترمس دي تخص جوز أختي الموكوس، اللي اتقطع عنه التيار..ماية ونور، يعني بالبلدي

كدة يا ستي شهيرة خلاص ما بيقدرش.. مراته، وأختي تعبت من كتر مابتشتكي.. وتشتمه، وتضربه كل ليلة، يمكن يحس على دمه.. ويشوف لنفسه حلاً، دي أختي لسة صغيرة والله، حتى يا ستي شهيرة كنا بننزل على خناقاتهم كل ليلة.. ونخلصهم من بعض.. بالعافية وهما عاملين زي كلبين لزقوا في بعض وقت لمؤاخذة، لغاية يا ستي لما واحد من أصحابه.. ولا جيرانه شار عليه بوصفة الترمس المبلول، وقاله ياكل منه كتير.. ويشرب الماية بتاعته، قبل ما يطلع السطوح.. علطول..

- يعمل إيه في السطوح يا بدرية؟!..

- لاااا يا ستي.. يطلع السطوح.. عندنا يعني ينام مع جماعته، المهم يا ستي شهيرة بسلامته خلص شغله عشية، ورجعلها.. بكوم ترمس، ووزع العيال عندي.. وسنكر الباب.. وشغل التلافزيون، وخش عليها زي الوحش، وقلها يلة يا مرة قومي حطي في عنيكي دي كحل، وشوية فزلين في شعرك.. والبسي جلبية عدلة، بصتله وقالتله.. ليه؟!..

علشان شوية يامرة والترمس المبلول ده بالخلطة التمام هيشتغل.. والليلة هاتبقى مية مية. وهي يا ستي شهيرة سمعت كدة.. وركبها جن العوزة، وراحت مشهلة.. والفرحة بتكب من عليها، وزوقت نفسها.. فشر عروسة ليلة حنتها، وقعدت جنبه تطل عليه، وهوعمآل ياكل في الترمس، وكل ما ياكل اكتر.. تحس أختي إنه

بعد شوية هيتحول لوحش، وهايهد السقف فوق راسها وهو بيديها، وبعدين يا ستي الموضوع طال.. والترمس مش عايز يخلص، وكل ماتقوله ياله.. ياله يا سبعي.. ياله يا جملي، يقلها اصطبري لما يشغل الترمس المواضيع والمواضيع لاشتغلت.. ولا يحزنون، اللي اشتغل هو مركوب الحمام.. سحبته لما زهقت، من منظره ومنظر الترمس.. وخدي عندك.. فضلت تديله على دماغه، لما الدم شر منها، ونزلنا على صريخهم.. لقناها طالعة تجري وراه، وهو بينط قدامها.. زي الفار المسخوط، وهي مش رحماه.. بتديله.. وبتقوله مين اللي شار عليك بالوصفة الهباب دية يا سبعي؟!.. ده لو المركوب ده نطق.. إنت مش هتنطق، ولا هاييجي منك رجى..

بس يا ستي شهيرة خلصناهم بالعافية، وخدناها في إيدينا..علشان ما يعودش العراك تاني، واحنا طالعين.. بصينا للترمس واستخسرناه.. خدناه معانا، وشوفي الموكوس يا ستي واحنا طالعين يقولها.. يا مرة يا مهبوشة كنتي اصطبري أكل الباقي.. كنت هابقى عفريت ولا فريد شوقي.. دا الترمس المبلول متجرب.. ودي يا ستي شهيرة .. مش أول وصفة، قبل كدة كانت وصفة التوم، وفضل ياكل المنيل.. لما عماها بريحته الهباب، وقبلها كانت وصفة الشطة، واحد موكوس زيه.. قاله.. لامؤاخذة يحط شوية على ... راح المنيل راشش برطمان بحاله.. عليه، وأختي.. وهو باتوا الليلة دي في المركز الصحي.. وكانت فضيحة.

ويبدو أن الكلام عن التيار المنقطع، أثار حنقة شهيرة.. ذكرها ربما بشيء ما في صدرها!.. فأخذت تعنفها:

- وكيف تسمحون لأنفسكم.. أن تقتربوا من بعضكم.. حتى يعرف كل منكم أسرار المرأة وزوجها هكذا ؟!..

- يا ستي.. هذا أمر عادي.. فأنا أنام في ريح(بجانب) زوجي، وفي ريحنا على نفس الحصيرة أخو جوزي ومراته، بنام كلنا يا ستي شهيرة في أوضة واحدة.. على حصيرة واحدة في الصيف.. ومرتبة واحدة في الشتا..

- وإزاي تنامي.. وجنبك جوزك ومن الناحية التانية لازق فيكِ أخوه؟!..

- ياكسوفي يا ستي!.. قصدك يعني الحاجات دي؟!.. إنه ينام الواحد مع مرات أخوه.. ويرَفَعها(يضاجعها)، دا عادي.. عادي المهم إن أخوه ما يعرفش، غير كدة.. وغلاوة سي طارق بيه أنا ماعرفش عيالي دولت من جوزي.. ولا من أخوه!!.. طب إنتي عارفه.. هاحكيلك أنا حبلت إزاي.. في بنتي الأخيرة وردة، كانت سلفتى(مرات شقيق الزوج)لسة والدة ونفسة(أى مازالت في الأربعين يومًا الأولى بعد الولادة والنفاس)، وجوزها ماصطبرش لما تربعن.. وكأنه هايطرشق، تصدقي يا ستي إن إللي حصل، أيام

كتيرة كان جوزي يرَفعني(يضاجعنى) بالليل، والصبح بعد ما يطلع على شغله يرَفعني أخوه، لغاية ماحبلت.. وماعرفتش البنت وردة دى بنت مين فيهم!!.. أصل الجدعان شبه بعضيهم، تحتاري والله.. تعرفي دي بنت مين.

لم تصدق شهيرة ما تسمع.. وكأنها أمام حكايات ألف ليلة وليلة، من كتابها الأصلي.. والذي كُتب من مائتي عام أو أكثر تقريبًا.

لم تقوَ أن ترد عليها، قامت على الفور من أمامها، متجهة نحو آمال في المطبخ، والتي انتهت من الإعداد لوجبة الفطار.. والمكون من: الفول المدمس العائم في الزبدة البلدي، والبيض المقلي، والجبنة القريش، واللمون أبو عُصفر"لمون مخلل"، فضلاً عن أطباق العسل.. والقشطة.. والفطير، أوقفتها شهيرة.. قبل الخروج من المطبخ للطعام، تدعوها أن تصرف بدرية.. من حيث أتت، سألتها آمال:

- لماذا؟!..

- بدرية هذه.. لوجاءت معنا إلى المنزل"بالقاهرة"، سوف يقوم أولادي سريعًا.. ومن أول ليلة بتفويرأركان جسدها، الهانم بينام معاها جوزها.. وأخوه، ولا تعلم هي من يكون الأب الحقيقي..لأولادها ؟!..

ابتسمت آمال.. وهي تداعبها، تغمز بعينها رافعة لها حاجب العين الأخرى:

- لكنها أفضل منك يا أختي، على الأقل هي تجد رجل والآخر.. ينام معها، أما أنتِ.. فلا تجدين حتى ظل رجل ينام معك، دا إحنا دافنينوا سوا !..

ضحكت شهيرة.. وهي تغمز لها بعينها أيضًا:

- معنى هذا.. أن الباش مهندس مازال شغال؟!.. وبيدي؟!..

- نعم.. شغال بنص كفاءة.

- إذن.. لماذا السريران في الغرفة؟!..

- السرير القديم يا أختي.. لم يعد يتحملنا، ويتحمل أجسادنا الثقيلة.. واهتزازها بعنفوان زوجي.. وقت ممارسة العشق، فأحضرنا سريرًا أقوى، وخذي هذه الصحون.. وصحي الشباب، علشان يمسحوا الوليمة دي.. عقبال ما سرب بدرية.

ذهبت شهيرة.. تُوقظ أولادها وأحمد، فلم تجدهم جميعًا في أماكنهم، ويبدو أنهم لم يبيتوا.. ليلة البارحة في الدار.

شهيرة.. ابنة لرجل ينتمي لعائلة نازحة من تركيا إلى مصر، يوم أن كانت مصر ولاية عثمانية.

وعاش فؤاد والدها وأجداده من قبل.. في مصر، ويقال إن والد شهيرة كان فاحش الثراء، تجمعه صلة متينة بسرايا الملك. وكان رجلًا نحيفًا.. أبيض الوجه تشوبه حُمرة الأتراك، وبعض خُصلات الشعر الناعم القليل في رأسه والذي كان يأتي به إلى الخلف.. فيظهر بجبين عريض، وشارب حاد الأطراف. فهو لا يختلف عن مظهر بشوات هذه الحقبة، فضلاً عن العصاة الأبانوس ذات اليد الذهبية، وساعة الجيب المرصعة بالذهب الخالص، وحذاء أجلسيه لامع.

وكان.. مدمنًا للنساء، يشرب الخمر دائمًا من النهر المتدفق من بين نهدهن، وعلاقاته واسعة.. تشمل العديد من النساء، لا مانع أن يكون من بينهن زوجات أصدقائه، وبعض زوجات أقاربه، وسيدات ينتمين لجاليات عربية وأوروبية.

وممارسة الجنس عنده.. كان بمثابة حفلة، صانعًا من شقته في الإسكندرية بلاتوهًا.. لتصوير فيلم سينمائي عار، يعجز منتجو السينما.. ومخرجوها أن يصنعوه حاليًا. وكانت عادته.. وشهوته تكمن في رؤية المرأة عارية، أكثر من الممارسة في حد ذاتها؛ ولذلك فهو كثيرًا ما كان يُضبط متلصصًا بالنظر إلى إحدى السيدات.. أو الفتيات، وهن يغيرن ملابسهن أو بالنظر إليهن من ثقب باب الحمام ، ليراهن.. يستحممن.

ويُكتشف.. في بعض الأحيان، فيسمع مالا يرضيه من هذه السيدة.. أو هذه الفتاة، والتي تُحرج أن تحكي لزوجها أو لأبيها، مُكتفية أن تبلغ زوجته بما حدث، إلا أن زوجته قد ملت السماع لمثل هذه الشكاوى المتكررة، وفي كل مرة تظل توبخه بعبارات بذيئة.. دون جدوى؛ فقد كانت عادته هذه متأصلة فيه، لا يستطيع الإقلاع عنها.

وأسعد أيام فؤاد تكون في شقة الإسكندرية، هذا إذا ما استطاع.. أن يقنع امرأتين، أن يمارسا معه.. في وقت واحد.

ويبدأ.. بأن تخلع إحداهن ملابسها، قطعة قطعة.. على مهل،

وهي تتغنج أمامه.. حتى تصير عارية تمامًا، ثم تبدأ الأخرى مثل الأولى، ولا مانع أن يجعلهما ترتديان ملابسهما، وتعيدان هذا من أول قطعة ملابس.

وكان يتلذذ.. بوضع الخمر على حلمات صدورهما، ويقوم بلعق هذه الحلمة.

ثم تقوم إحداهما بدهان جسده بكريم دهني أجنبي؛ لتتدفق الحيوية فيه.. فتوزعه على جسده كله.. وتدلكه، أثناء ذلك تظل الأخرى، تداعبه.. في أماكن شتى، حتى يشعر أنه يستطيع...، إلا أنهما تأخذن وقتًا طويلاً في مداعبته وتدليك جسده؛ حتى يستطيع الممارسة.. مع إحداهن ومن الممكن أن يفقد أعصابه أثناء الممارسة، فيتراخى مرة أخرى، فيضطرا للعودة.. والبدء من جديد معه، وهما يضحكان.. محاولتان إخفاء ضحكاتهما؛ لأنهما يعلمان أن المقابل المالي كبير.

وأخيرًا.. يخرج الرجل شهوته، مرتعشًا.. كأنه يفارق الحياة، يشعر بالصقيع دب في جسده، فيبتسم.. وما يلبث أن ينام .

تكرر هذا.. كثيرًا، حتى.. تقل نوعية النساء، اللاتي يعرفهن.. بقلة ماله، بعدما باع كل أرضه.. وممتلكاته؛ من أجل الشراب.. وهذه الحفلات، ويقال إنه بعد ذلك كان يبيع، بعض مقتنياته الذهبية مثل: اليد الذهبية للعصا الأبانوس الخاصة به، ومعظم أطقم الأكل النادرة، والتحف المرصعة بالفضة والذهب. ومات..وهو في

الخمسين من عمره، وكانت زوجته حاملاً في شهيرة، والتي لم ترَ والدها فؤاد.

الغريب.. رغم كل هذا، ليس لدينا مستند.. أو أي محرر رسمي، يثبت أن والد شهيرة قد حصل على لقب "باشا أو بيه"، رغم كل هذا الثراء.. وعلاقته مع الملك وحاشيته.

وكانت ذريته حسب الترتيب العمري: ممدوح، آمال، شهيرة. ولم يترك لهم فؤاد سوى ثروة من نوع مختلف، وهي السيرة الذاتية له، والتي كانوا يتفاخرون بها دومًا.. سرًا وعلانية، بأن والدهم كان من علية القوم، إلا أنه أنفق ماله على مزاجه الخاص، وشرب الخمر ومضاجعة النساء. وكانوا يتحدثون من الأنف.. وفي كبر وهم يحكون تكرارًا.. ويقولون مرارًا، إنهم غير هؤلاء البشر المحيطين.. بهم؛ لأنهم منحدرون من سلالة عظيمة.. من الأتراك، وكيف كان لهم صلة وثيقة بالملك وحاشيته.

وهذا النشيد.. يقال ليل نهار لكل ابن، وحفيد.. والذين حفظوه ليس فقط عن ظهر قلب، بل أخذوا يتعاملون مع كل من حولهم.. من خلاله، على أنهم شيء مختلف.. غالٍ وثمين .

وشهيرة كانت واحدة مما حفظ هذا جيدًا، فرددته.. ونفذته. وكانت شهيرة الأخت المدللة، فبرغم أن فارق السن بينها وبين آمال

ليس كبيرًا، إلا أن آمال كانت تعتبرها ابنتها، فضلاً عن تدليل أم شهيرة لها.. وكل العائلة؛ لأنهم كانوا ينظرون لها دومًا.. البنت التي ولدت فلم تجد أباها.

هكذا كانت تحظى شهيرة بكل هذا الدلال، لتعويضها نقص ما.. ربما لم تشعر هي باختفائه.

وعلى عكس.. آمال وممدوح، ورثت شهيرة الملامح المصرية من والدتها، فكانت: ممتلئة الجسد دون ترهل، لها عينان عسليتان، وشعر بني ناعم، وبشرة خمرية.. تميل إلى البرونزية، ونهدان عامران، وردفان مرسومان بتناغم مع جسدها. وهي مثل آمال، رغم جمالها.. قد تأخرت في الزواج، وذلك لأنها كانت سليطة اللسان.. كثيرة الشغب، وتعودت أن تتدخل في كل صغيرة وكبيرة أمامها، الشيء الذي أذيع عنها بين العائلة، فابتعد عنها الشباب.

حتى أمرت"كوثر" والدة محمود الجبالي، ابنها محمود بالزواج من شهيرة ،والتي تعطى له صلة من القرابة البعيدة.

فتزوجها.. ووجد في كل عيوبها شيئًا لا يُأزمه، بل كان كثيرًا ما يضحك من تصرفاتها، وبعض الأحيان يستشيط غيظًا منها.. فيعنفها، تخاف وتصمت مباشرة.

وأحبت شهيرة محمود.. والعيش معه، فقد كان: متسامحًا، رقيق المشاعر، كذلك هو رجل في كل أفعاله. وكانت والدة شهيرة.. تقول لها عنه إنه يشبه والدك يا شهيرة في تصرفاته، دون شطحاته

الهوائية الكبيرة .

فكان هذا يجعلها تعشق محمود أكثر ؛ لكونه يشبه الأسطورة.. التي سمعت عنه ولم ترها، وكانت شهيرة تعشقه أيضًا لفحولته في أداء الجنس، ورغبته.. المتعطشة دومًا لها، وهو يحتويها بجسده الضخم، كعصفورة صغيرة.. تاهت بين ثناياه.. فيأتيها بقوة تارة.. وتؤدة تارة أخرى.. حتى تغيب عن الوعي.. تشعر أنها سافرت لعالم آخر بعيد.

الشيء نفسه الذي خلق مرضًا عصبيًا.. وصراعًا داميًا بداخلها، بسبب غياب محمود بكل طاقته، عن جسدها المحتاج إليه دومًا، والتي كانت في كثير من لياليها الصامتة تفكر فيه.. وفي غيابه، تتذكر الليالي الأولى.. التي كانت تجمعهما، تحت سر الظلام.. ولا ينتهيان حتى يبدأ الغسق في فرشه للكون فيذهبان إلى الحمام.. تحميه، تدلك له جسده.. وهي تتأمله.. فرحة به، ويخرجان.. يصليان الفجر، ثم يأخذها بين ذراعيه.. وينغمسان في نومٍ عميق.. حتى الظهيرة.

وأثناء إجازات محمود، أصبحت هي لا تشعر به مثل سابق عهده، بشهوته الضارية.. وقوة.. في جسدها، عندها كانت تنتفض.. وهو يهز كل جناباتها، يشعرها أنها نائمة أسفل"بلدوزر"، يرفعها..

ويلقي بها حدفًا.. في مكانٍ سحيق، لكنه مليء بالأحلام.. والهدوء.. واللذة.

تحول كل هذا إلى ترهل.. وسكون.. وملل، حتى يُنهي موضوعه وكأنه مفروض عليه، وزاد من هذا مرضه"بالسكر"، حتى صدقت يومًا.. ما يقال من شائعاتٍ.. تتناقل بين العائلة، بأنه تزوج في قطر.. بامرأة ثرية.. ولا تنجب من أجل المال.. وأنه يخفي هذا الأمر عن الجميع. غير أنها لا تجد الدليل المادي، كي تصارحه.. فتواجهه بهذا، ثم تقول لنفسها: أو يكون هناك دليل.. أقوى من ضعفه.. ووهنه هكذا، رغم أن المفترض منه.. وبعد غياب عام أو أكثر ظل خلالهما.. دون ممارسة ، فيكون ولعًا.. مشتاقًا لي.. ولجسدي.

وكثيرًا دون أن تسأل هي، يقسم لها محمود أنه لم يعرف.. أو يتزوج غيرها، فتعود وتقتنع أنه.. السكر، الذي يهدم كل هذه الأشياء عند الرجال، وتدمع عيناها بينها وبين نفسها.. وتسكت. غير أن هذا كان.. ينعكس على تصرفاتها، نعم هي بعيدة تمامًا عن منطقة الخيانة، لكن هذا انعكس عليها بصورة أخرى.. مختلفة.

فكانت دائمًا ما تتلذذ.. عندما تجلس مع صديقاتها ،وتخبرها واحدة منهن.. أن زوجها(سلم النمر) أي أصبح.. لايستطيع، تضحك من داخلها.. وتحمد"الله"؛ لأن حالها هو حال غيرها، وما تلبث أن تمتد متعتها، وهي تحكي مع صديقة لها أخرى، عن مأساة صديقاتها

الأولى، والتي سلم زوجها النمر، وهي.. تقول لها: مسكينة زوجها أصبح لا يستطيع..

نجد الأخرى.. أشد وطأة وأكثر عويلاً، على حالها.. وهي تقول لها: تحمد ربنا.. أنا كذلك زوجي سلم النمر، ومن عدة أعوام ماضية!.. ألف كتر خيره.. هي الرجالة هاتلاحق على إيه.. ولا إيه.

تبتسم شهيرة.. بعدما اطمأنت، أن حالها مثل حال الكثيرات من صديقاتها. وكثيرًا ما كانت تجلس شهيرة، مع صديقات لها.. تشكو لهن حالها.. ووضعها على أنه حال ووضع واحدة أخرى.. وليس هي وكانت تحزن.. وتسوَد خُمرة وجهها، عندما تقول واحدة منهن: رجالة آخر زمن.. يأتي هؤلاء النسوة.. يرون زوجي.. والذي أفر منه من هنا فأجده محاصرًا لي من الجهة الأخرى، يلاحقني.. وجسدي في كل وقتٍ ومكانٍ، حتى أنني تعبت من شهوته الزائدة.. والمضاجعة ليل نهار..

تصمت شهيرة.. تبتسم في سخرية وكبرياء، وكأنها تؤيدها الاستياء.. من حكاية تلك الصديقة التي فقد زوجها القدرة..

والحقيقة أن القوة.. التي كانت تظهر بها شهيرة، بداخلها وهن وضعف كبيران، والرغد والثراء اللذان كانت تعيش في ظلهما شهيرة.. يقابلهما مقتٌ شديد.. وإنعاء حالها دومًا، عندما تستطيع أن

تَعُد كَم مرة ضاجعها زوجها منذ زواجهما إلى الآن.

السلوى الوحيدة التي كانت لدى شهيرة، هي الادخار.. من النقود التي كان يرسلها محمود زوجها. ولا تشتري بهذه النقود الكثيرة المدخرة، سوى"مشغولات ذهبية"لها، حتى جمعت شهيرة علبة من" الذهب"، تكفى لافتتاح محل كامل.

والرغبة الجنسية التي تعض فيها دومًا، كانت ترويها من أعين صديقاتها.. وهي تفرجهن على"ذهبها"الجديد.. وكمياته الهائلة، وهن متأملات.. بأعين لا تصدق ما أمامهن، من ذهب.. متعدد الأشكال والألوان .

وبهذا تثبت شهيرة لنفسها، أنها حُرمت من شيء.. فعوضته في أشياء أخرى، فمهما قالوا عنها...، ...، ... أو أنها رجل متنكر في زي.. وشكل امرأة هذا أصبح لا يعنيها كثيرًا.. فكانت تقول لنفسها: لا توجد امرأة مهما كانت.. أو رجل أو حتى امرأة في عباءة رجل، كما ينعتوني.. كل هؤلاء.. من المؤكد أنهن ليس لديهن، هذه الكميات الهائلة من الذهب الذي أمتلكه أنا الآن.

وهل كانت.. بالفعل شهيرة رجلًا متنكرًا في زي امرأة؟!.. نعم كانت هكذا؛ فتقمصها دومًا لدور الرجل مع أولادها، جعلها تتشبه بالرجال تمامًا، حتى اندمجت في هذا الدور، ولم تستطع الخروج منه.

فقد كانت شهيرة.. تتجشأ بعد الأكل بصوت عال مثل زوجها، وعندما تقوم من النوم صباحًا.. تُخرج ريحًا بصوت عال مثله، وتعنف أولادها بصوت أجش مثله، كذلك قيادة السيارة كل صباح.. لتوصل أولادها إلى المدارس، جعلها كثيرًا ما تتشاجر مع الأخريات.. ولا مانع مع الآخرين، ولا مانع أن انتهى الأمر في إحدى الشجارات، بأنها ضربت رجلاً بمفتاح العجل.. بعدما أخرجته من شنطة السيارة، وضربته على دماغه.. فسالت الدماء منه، لأنه قال لها " مرة عايزة راجل يشكمك "، هذا فضلاً عن التعامل مع مدرسين الأولاد، والسوبر ماركت.. كل فاعليات الحياة، تتعامل معها على أنها محمود الجبالي.. وليست شهيرة.

كما أن شهيرة لا تقرب حواجبها لترسمهما.. أو تنزع الشعر الزائد خلالهما، أو تضع الكحل.. أوالمساحيق؛ حتى لا يطمع فيها الآخرون، خصوصًا أنها تتعامل مع الكثير.. والذين يعلمون غياب زوجها، لذلك هي أيضًا تفضل أن تكون ملابسها أشبه بالبدلة الرجالي، والتي لا تظهر مفاتن جسدها.. مع الحفاظ على نوع من الشياكة.. لآدميتها، وكانت ترتدي في الشتاء(البالطو الأسود) الخاص بمحمود، بعدما قامت بتعديله عند ترزي حريمي، و عندما ارتدت هذا البالطو.. كانت تقول لأولادها: شيء يقيني شر البرد.. .. فضلاً على أنه بالطو غالي الثمن.. وغير مستغل.

وليس كون الحياة فرضت على شهيرة، تقمص.. شخصية الرجل، أنها كانت صارمة مع أولادها كرجل قويم، بل كانت صارمة.. وحاسمة جدًا مع أولادها، في أشياء واضحة فقط: أولها وأهمها المذاكرة.. ليس لابتغاء النجاح أو التفوق.. بل خوفًا من الرسوب؛ لأن هذا يعني الخراب بينها وبين محمود، الأمر الثاني الحرية.. فكانت تقول لأولادها: افعلوا ما شئتم.. بشرط ألا يعلم أحد شيئًا عما تفعلونه، فلا تنسون أبدًا من أنتم.. وأولاد من.. وما سلالتكم العريقة.. من الأب حتى آخر جد.

وهي لا تمانع أيضًا.. أن يحدثوا أوتحدثهم فتيات عبر الهاتف؛ فالشباب كلهم يفعلون هذا، كما أنها كانت تعرف أنهم يدخنون.. وتخفي عنهم معرفتها هذه.. في الوقت نفسه كانت تنذرهم بعقاب شديد.. لوعلمت أنهم يدخنون.. فسوف تخبر أباهم على الفور.. وتحرمهم من أشياء كثيرة.. كما كانت تنصحهم معددة لهم أضرار التدخين الكثيرة.. لكن يومًا لم يعرفا أنها تعلم.. أنهما مدخنان، وعندما كانت ترى شهيرة.. إحداهما يأخذ ورقًا معه للامتحان.. من أجل الغش.. تنظر له وتقول: سواء غشيت أم لا.. المهم عندي أن تنجح.

فشهيرة.. لا تعترض على أشياء كثيرة، رغم اعتراضها على أشياء أخرى.. غير كافية، لتهذيب وتربية نشء.. من الأبناء.

لايختلف محمود الجبالي كثيرًا، في نشأته.. عن تنشأة وظروف شهيرة، يشترك معها في الكبر وعظمة الأجداد.. والأمجاد المحطمة على صخرة الواقع، إلا أنه غير منحدر من جذور تركية أو شركسية.

وكان محمود الجبالي دائمًا يحافظ على توازنه، ومحاولة تحقيق مستوى مالي يجعله غير مهان، أو يهبط كثيرًا عن المستوى الذي عاش فيه، فضلاً عن أنه لم يترك فريضة في الصلاة، ولم نتذكر له علاقات نسائية.. سوى القليل، والتي لا ترتقي أن تكتب في سجله، وكان محمود معتدل في تصرفاته، إلا شيئًا واحدًا لم ينساه وهو.. أنه محمود الجبالي، هذا الاسم.. الذي يعني أشياء كثيرة، في بلده.. وبين المحيطين به؛ ولذلك هو لم يذهب للدوحة إلا هربًا من كل العيون والألسنة التي حوله.. وبعض العبارات التي تصدرها الأفواه: أهذا محمود الجبالي؟!.. لا يستطيع أن يركب سيارة فارهة؟!.. مثل ما مضى من عهده.. وعهد أبيه وأجداده، أهذا محمود الجبالي؟!.. الذي لا يستطيع، ...،... ،...؟!...

ولذلك هو فر إلى الدوحة، عندما سنحت له الفرصة، ليس من أجل المال.. فقط، بل للتغلب على هؤلاء.

واكتفى أن يفني حياته.. وعمره؛ من أجل أن يرى الناس أولاده.. وامتداده يعيشون مثلماعاش، فكان حريصًا كل الحرص..

عند زيارة أولاده للمنوفية، أن يكونوا مرتديين أغلى الملابس.. والنظارات الشمسية ذات الماركات العالمية.. والساعات الغالية، التي لا يجرؤ أن يلبسها مستشار وقتها، وحرص على تعيين سائق بأجر شهري، قبل أن يتعلم طارق وحاتم القيادة؛ كي يذهب بهم للمنوفية فقط، فكان يقوم السائق بإخراج السيارة، والتي تعمد محمود بوضعها في جراج، بجوار شقته في مصر الجديدة، ويقوم السائق بتوصيلهم.. والانتظار حتى ينتهوا، فيعود بهم.. ثم يضع السيارة في الجراج.

ولهذا فإن محمود الجبالي، ورغم ضخامة راتبه في الدوحة، لم ينجح يومًا في الادخار، ولو شيئًا قليلاً من ماله ؛ هذا من كثرة الإنفاق.. على أولاده، ومحاولة منه أن يضعهم في مستوى، يتناسب.. مع رؤيته هو لنفسه .

واتفق تمامًا هو وشهيرة، على أن لابد أن يترجم هذا فعليًا.. وبصورة حقيقية، يرى من خلالها الجميع أولاد محمود الجبالي وشهيرة فؤاد مميزين.. ذوي سطوة ونفوذ.. وينظر لهم الجميع هذه النظرة، التي رسمها هو وزوجته على مدار حياة كاملة، وكان المخرج الوحيد.. المترجم لكل هذه الأحلام ومحققها.. هي "بدلة البوليس".

بعض من الآباء.. إن لم يكن الجميع، يرون لأولادهم هذا.. أن يكونوا مميزين.

لأن الحقيقة.. أن أولادنا هم نحن.. وامتدادًا لنا، حتى قد يصاب البعض منا بنوع من الأنانية، نرى من خلالها ضرورة نجاح هؤلاء الأولاد.. ووصولهم لشيء عظيم، ليس من أجلهم أولاً، بل من أجل أنفسنا نحن، حتى يصبح أولادنا أفضل من أولاد الآخرين، وإن كان البعض يرى.. أنه لابد من نجاح وتميز أولادهم من أجلهم هم أولاً، ليكن الجميع يرى ضرورة.. وأهمية نجاح أولاده وتميزهم. والبعض يرى هذا التميز في العلم.. والتفوق فيه، حتى يحصل على أعلى الدرجات العلمية، ومنهم من يهتم بظاهر الأمر فقط، فيقوم بشراء الشهادات العلمية ذات الأسماء الرنانة لأولاده.. مثل الذي يبعث ابنه للخارج.. ليحصل على بكالوريوس الطب، فقط من أجل اسم"دكتور"، وبهذا يُشبع الوالدان غرورهما، بأن أصبح ابنهما "دكتور فلان"، وآخرون يرون أن تميز أولادهم، لا يتم إلا عن طريق المال، وآخرون يرونه في الدين والأخلاق الحميدة.. وكل على شاكلته.

أما محمود الجبالي وشهيرة، فكانوا يرون أن بدلة الداخلية هي الواجهة العظمى.. والتميز الرهيب، فلابد أن يُلحقوا أولادهم بهذا الشرف؛ لأنهم.. ليسوا أولاد أي أحد، فهم أولاد محمود الجبالي وشهيرة فؤاد.

"دينا"... مقارنة دينا بأخويها.. ستكون النتيجة تمامًا.. مثل المتناقضين: كالليل والنهار.. البارد والساخن.. فهناك اختلاف حقيقي في تكوين دينا عن أخويها.

ورثت دينا العينين العسليتين من أمها.. دون بشرتها الخمرية، فكانت بشرتها شديدة البياض مثل جسدها، مكتنزة اليدين.. بضة الجسد، بشعر ناعم.. كستنائي اللون، رقيقة.. تتحدث دائمًا بصوت منخفض، تمتلك سحرًا.. وجاذبية الأطفال الأرستقراطيين، مع الاحتفاظ بنوع خاص.. من المكر الجميل، المنبعث من عينيها الضاحكتين دائمًا.. واللاتي تنم عن ذكاء بَيِنْ.

دينا.. ملاصقة لأمها طوال اليوم، لا تقوى على فعل شيء دونها، ولأن دينا هي الحلم الذي لم يتحقق سهلاً لشهيرة، بأن يصبح

لها ابنة؛ فقد أنجبتها بعد تسعة أعوام تقريبًا.. من ولادة حاتم؛ فكانت دينا.. قرة عين شهيرة، وأغلى شيء امتلكته في هذه الدنيا، حتى علبة المشغولات الذهبية.. والتي تقول شهيرة: هذا ما خرجت به من الدنيا، كانت تعتبرها ميراثًا يئول لدينا فقط، هذا ليس تمني.. بل أوصت به فعلاً، وفوق علبة الذهب كتبت شهيرة حروف دينا باللغة العربية واللاتينية، وكأنها تنقشها في قلبها.

حتى الأكل.. وفي مثل هذا السن، تطعم شهيرة دينا في فمها وهي تلاعب عروستها.. قائلة لها: كلي يا دينا.. بعدين أكلي باربي..

ولا تختفي دينا عن أمها أبدًا إلا في أمرين، الأول هو المدرسة، حتى الدروس.. يأتي المدرسون لها المنزل، وتكون شهيرة جالسة أثناء الدرس، وإذا خرجت شهيرة.. لا تترك دينا أبدًا لوحدها.. أو مع أخويها، وإذا أرادت دينا الخروج للنزهة.. لا يكون مع أحد من أخويها.. بل مع أمها، وإذا تعلقت برحلة مدرسية.. تذهب شهيرة معها، وإذا أتت لها صديقاتها للمنزل.. للعب معها يوم إجازتها.. لا يغيبون أبدًا عن عين شهيرة.

ولم تصنع شهيرة هذا حرصًا وتربية لدينا، بل هي مريضة حقًا بحب ابنتها.. لا تقوى مطلقًا ألا تراها أمام عينيها، وكانت دائمًا تقول لها: ربنا.. يجعل نصيبك أحسن من نصيبي، في هذه الدنيا.. فأنا راحلة.. أما أنتِ قادمة... في الوقت نفسه لم تستاء دينا مطلقًا من ملازمة.. أمها لها، بل أصبح هذا إدمانًا.. ولا تشعر أن هناك مذاقاً

للأشياء دون أمها، حتى النوم هي اعتادت النوم.. مختبئة برأسها في صدر أمها.. التي تحضنها بقوة وحنان ودفء.

أما الأمر الثاني، والذي كانت تغيب بسببه دينا عن أمها، يكون أثناء تلاهي شهيرة لإعداد الطعام.. في المطبخ، فكانت تتسلل دينا.. لتراقب أخويها، وكانت شهيرة تتركها لأنها تعلم أن ابنتها بالنسبة لها.. كالهدهد "وسليمان" عليه السلام، وأنها سوف تأتي وتقص لها كل صغيرة وكبيرة، من خبايا البيت وخبايا أخواتها.. والتي لا تعلم شهيرة عنهما شيئًا، فأصبحت الآن تعتمد على دينا.. فتعرف منها كل الأشياء.

ودينا.. كانت على يقين، أن أخويها كثيرًا ما يخرجون عن قانون المنزل.. وما هو متاح لهم، ولذلك كانت تحرص أن تعرف كل شيء.. مستتر عنهما، وتنقله لأمها.. إلا إذا ما أدركت أنه شيء جلل.. وسوف يثير حنقة أمها ويغضبها.. فيزلزل البيت، هنا لا تلوم نفسها.. لأنها لم تفشه لحبيبتها، مساومة.. أخويها عليه، والذين يعرفون طلباتها قبل أن تبوح بها.. وهي دائمًا تكون ألبومات "عمرو دياب"؛ ولأن دينا مولعة بهذا المطرب.. ما إن تراه في التليفزيون حتى تجن.. وتظل تتأمل بهيام عجيب آهاته ونظراته الضائعة، وهي حريصة على اقتناء كل شيء يتعلق به من ألبوماته،

بوسترات، والأشياء كافة.. وبهذا كان طارق وحاتم يسيطران عليها، عندما تعرف عنهما شيئًا، أو عندما يريدان منها شيئًا.

والأشياء التي كانت تعرفها دينا عن أخويها كثير، عدا أمر سعيد لم تعرفه بتفاصيله.. إلا أنها كانت تشك بأن هناك شيئًا خفيًا.

وكانت عادة دينا أن تتسلل.. وتحوم، حول غرفة طارق وحاتم.. حتى تجلس ملتصقة بباب حجرتهما المؤصد، بيدها عروستها تلاعبها، وهي تسمع كل حوارت أخويها معًا.. أو مع فتاة.. أو صديق لهم في الهاتف، فتعرف كل تحركاتهما.. وأماكن إخفاء السجائر، وكانت تقوم أيضًا بدخول غرفتهما في غيابهما، ولديها حاسة غريبة بانتقاء الأماكن الخفية، والعبث فيها حتى تخرج ما أخفو.. من سجائر وحشيش وعلب من البيرة.. ومال مدخر.. ومجلات إباحية.. والتي تشاهدها صورة صورة، حتى أنها مرة قالت لأمها أثناء حمومهما:

- متى.. يكون لي صدر بحجم التفاحة الكبيرة؟!..
- ولماذا التفاحة.. لماذا لا تقولين كصدر أمك؟!..
- لا.. أريد أن أكون مثل الفتاة التي في المجلة..

وهذه مرة من المرات، التي فلتت دينا بلسانها.. فأحدثت ضجيجًا عنيفًا في المنزل، واضطر أخواها تغيير أماكن مخابئهما.

ورغم جهاز دينا المخابراتى القوي، وشبكتها العنكبوتية.. والتي ترصد بهما كل تحركات أخويها، ظل أمر سعيد مبهمًا لها،

مما كان يثير فضولها.. ويولد لديها رغبة عارمة في حل طلاسم السر الذي يجمع أخويها بسعيد.

فكانت مرات كثيرة تتلصص، على أخويها مبتغية فقط تحطيم هذا اللغز، يرهقها منظر الحلويات والمثلجات.. والملابس.. ومحايلة سعيد، حتى يختفوا في غرفتهما.. ويغلقوا الباب عليهم، ثم تسمع أصواتًا.. بالطبع لم تستطع تفسيرها، ووقفت عند هذا الحد.. لكنها على ثقة تامة، أن هناك سرًا جميلاً.. يجمع أخويها والخادم، وأنه يقدم لهما خدمة سرية دونها، مقابل كل هذه الحلويات والملابس.. واللطف في المعاملة، والذي ما يلبث أن ينقلب إلى بركان وثورة عارمة.

وكان طارق وحاتم يبرران لأمهما.. وكذلك لها، أن هذه الأشياء مقابل رضا أمنا عنا، وأننا نُحسن معاملة سعيد كي يستمر معنا، كما أننا ننذر أشياء"لله"، وأولى واحد بها سعيد.. كما تقول لنا أمنا.

ولم تقتصر محاولات دينا.. مع أخويها فقط ، بل امتدت لسعيد.. يحركها نفس الهدف، فكانت تأتي لسعيد ببعض الحلويات.. والعصائر.. قائلة له:

- أنت رجل.. لماذا تسمح أن يقولوا لك يا منال؟!..
- ....
- ألأنك جميل.. وتشبه البنات؟!.... أم لماذا؟!..
- ....

- خذ هذه الأشياء يا سعيد، وأخبرني بكل ما بينكم.. ولن أقول لأحد أبدًا ما قلته لي..

كانت هذه كلمات طفلة، تحفها الشقاوة والرغبة.. التي لا تنقطع، لمعرفة هذا السر الذي ظل يحيرها، فترات طويلة.. يثير غضبها، وهي في كل يوم تريد أن تعرف سرًا.. وأمرًا خفيًا يحدث في هذا المنزل، والذي تشعر أنه منزلها هي أولاً، وأن كيانه الأكبر ينتمي لها أكثر من أخويها، فهذا البيت.. بكل أسراره، شاءوا أم أبى أخواها وسعيد، لابد أن يظل طوعًا لها؛ لأنها هي دينا.. أكثر واحدة قربًا من أمها، مديرة هذا الكون من حوله.

سعيد ابن حارس العمارة، التي تقطن فيها أسرة محمود الجبالي. وقبل قدوم هذا الحارس(أبو سعيد)، نشب خلاف بين زوجة البواب القديم.. وبين شهيرة، وحدث تطاول من زوجة البواب على شهيرة، فما كان منها إلا أنها صفعتها على وجهها.. وطردتها من العمارة، بعدما أثارت ضدها كل السكان، بما فيهم رئيس اتحاد المُلاك، والذين اعتقدوا أن هذا خطر يهددهم، وسوف يداهمهم يومًا.. حتى يصبح واقعًا، وهو تطاول البواب وزوجته على السكان، فبادر الجميع بالموافقة على معاقبة البواب وزوجته، وقاموا بطردهم.. هم وأولادهم، حتى باقي حسابهم لم يأخذوه، ورحبوا أكثر عندما علموا من شهيرة، أنها وفي لمحٍ من البصر سوف تتصل بأخيها ممدوح، لكي يرسل لها بوابًا جديدًا، وقد كان.. قبل أن ينزع البواب القديم آخر قطعة من أثاثه، أرسل ممدوح شقيق شهيرة، البواب الجديد.. وزوجته، وهما.."مرتضى"و" شربات".

سبح البواب الجديد.. مرتضى وزوجته شربات، تحت جلد كل سكان العمارة، واصلين إلى مركز الإحساس، وما ساعدهم أكثر على هذا، أنهما لا يعرفان سوى كلمتين نعم.. وحاضر، وارتضوا بالقليل.. من المقابل المادي، وكانا دائبين قائمين بنظافة العمارة على

أكمل وجه، فضلاً عن الخدمة في شقق سكان العمارة، والتي كانت تتم بأجورٍ زهيدة، فهما مازالا نازحين جددًا من الريف، ولم يطلعهما أحد على الأجور الحقيقية للخادمين.

وزاد أيضًا من حب السكان لهما، أنه ممتزج بالشفقة؛ بسبب مرض مرتضى، والذي كان يعاني من تليف جزء كبير في الكبد.

لكن الدكتور "مدحت زاهي" ساكن الدور السادس، كان متوليًا أمر مرتضى، يقوم بعلاجه.. وكان يعلم أن الخلايا المتليفة، إذا كبر حجمها في الكبد، قد تحدث ورمًا خبيثًا في أية لحظة، والمسألة ما هي إلا وقت، إذا طال فهو قصير جدًا. فكان لا يتأخر عن مرتضى أبدًا، في أية رعاية أو علاج حتى لو كان بأثمان باهظة.

ورعاية الدكتور مدحت له.. وإمداده بالأدوية، ساعد على بقاء مرتضى حيًا، حتى.. أنجب سعيد، ورآه طفلاً جميلاً.. يلعب، وكان الولد أبيض الوجه.. بعينين زرقاوين، والسكان كثيرًا ما كانوا يهرجون مع مرتضى، قائلين له: عيون سعيد هذه.. نتاج لما جلبته لنا الحملتان.. الإنجليزية والفرنسية.

وشاهد مرتضى سعيد ابنه، حتى سمعه يقول: بابا ..

واضحة.. وصريحة، واكتفى من زماننا هذا.. بهذه الكلمة، مودعه راحلاً.. إلى العالم الذي لا مفر من الذهاب إليه.

الشيء الذي جعل سكان العمارة، يتمسكون بشربات أكثر، واعتبروها.. مسئولة منهم، ولم يختلف أحد على هذا الشعور، بل

عمدت شهيرة على تثبيتها واستمرارها، فكانت الأكثر عطفًا وإغداقًا عليها، لأنها هي التي جلبتها إلى العمارة من بلدها.

والجدير بالذكر أن أم شربات"سعدية"، كانت تخدم في بيت أسرة شهيرة، وكانت تحب شهيرة حبًا مبالغًا فيه.. ودائمًا تقول: (إنها ولدت دون أن ترى أباها)، فكانت تخصها سعدية بعطف وحنانٍ، يشهد عليه الجميع.. والذين مازالوا يتذكرونه، ويتحاكون به تواترًا.. إلى الآن، الشيء الذي جعل شهيرة تتمسك بشربات ابنة سعدية.. وتقدمها للسكان، وتجعلهم يعطفون عليها، حتى أنها كانت تقول لصديقاتها من الجارات: لا صدقة.. تجوز منكم، أو شيء.. تريدون إخراجه"لله".. وشربات موجودة.

كذلك الزكاة.. كان الكثير من سكان العمارة، يخص شربات بالمناب الأكبر منها، وكانت تتعمد شهيرة أن ترسل لسعدية أم شربات، كي تأتي لتزور ابنتها.. وتجلس معها، خصوصًا بعد وفاة مرتضى زوج شربات.

وعندما تعبر من مدخل العمارة، تشم على الفور رائحة الأكل، الذي لايخلو من اللحم أوالدجاج، والمطبوخ بالزبد البلدي.. المجلوب من المنوفية، والتي كانت شربات تشترى منه لكل سكان العمارة، وفي كل مرة يعطون لها مالاً أكثر.. ويقولون: هو فيه أحلى من

زبدة المنوفية.

وكذلك كانت الرجال تتحاكى، على رائحة طبيخ شربات، عندما يشمونه من مدخل العمارة.

وعندما تدخل إلى حجرة شربات.. من الداخل لا تتعجب عندما ترى التليفزيون، وأرقى الأثاث، السخان، والمروحة، والبطاطين الوثيرة.

كل هذه الأشياء كانت تبرعات، ومساعدات من سكان العمارة. وبعد ذلك يتبقى مشاهد الحب.. والألفة لشربات، والتي تراها واضحة من التفاف، كل الفتيات.. والمراهقات.. والشباب.. من سكان العمارة، عند حجرة شربات ليروا سعيد، هذا الطفل السمين الجميل والذي يُشبه الأجانب فضلاً عن ظله الخفيف.. وتعبيرات شفافة عفوية؛ تجعل كل من يراه يعشقه، فكل سكان العمارة بمختلف أنواعهم وأعمارهم، يحبون.. بل يعشقون سعيد، والكثير منهم لا يكتفي أن يعطي له، ملابس.. أو أشياء قديمة، بل كانت بعض الفتيات والشباب وكذلك النساء عندما ينجحون في امتحان.. أو أمر، أو ينجح لهم ابن أو ابنة، يحضرون لسعيد ملابس جديدة.. وهم يقولون:(هذا نذر ..)، وكانوا ينذرون.. وبالفعل يوفون لنذورهم.

وعندما أتم سعيد عامه الثامن، فارقت شربات أمه الحياة على

أثر اصطدامها بسيارة، وهي تشتري طلبات وخضراوات للسكان، وشاهدها سكان العمارة عيانًا، وهي تحتضر.. ولا تفعل شيئًا أو تقول ..(إلا اسم ولدها سعيد..)، والدموع زخات.. تهطل من عينيها.

لم تجد شهيرة مفرًا، من احتواء هذا الطفل"سعيد"، بعدما.. أصبح لا أهل له سوى جدته وعمه"سلطان أبو زغرودة"(-أبو زغرودة.. لأنه كان يعمل في الأفراح والموالد-)، والذي كان يكره مرتضى أبا سعيد، ودائمًا يقول: سعيد هذا ابن حرام.. لابد أن أحد سكان العمارة.. أو واحد من أصحاب الشقق.. التي تخدم فيها شربات.. ضاجعها!.. وإلا كيف أنجبت طفلاً أبيض الوجه أزرق العينين.. ومرتضى وشربات أبواه أشبه بتراب الفرن.

ولم يقبل سلطان أبو زغرودة، سعيد ابن أخيه ليعيش معه، خصوصًا بعدما علم أن شهيرة متمسكة به، فأراد أن يبين لها أنه تركه من أجلها، ووافقت سعدية جدته، أن يظل سعيد في منزل شهيرة، يساعدها في المنزل، وتأتي هي.. في الأعياد تزوره، أو تراه عندما تكون شهيرة في زيارة للمنوفية.

منذ هذه اللحظة دخل سعيد القفص.. وظل أسيرًا فيه، ولم يعلم أن هناك.. وبداخل القفص، ضباعًا.. ونمورًا.. وطيورًا جارحة.. تأكل الحي والجيفة، لم يعلم أن هناك وبداخل القفص.. أقزامًا يرون أنفسهم أطول من الجبال.. أمراضهم النفسية حولتهم إلى قرود.. لكنها سافكة للدماء، لا يعلم أن دخول هذا القفص يعني.. لا حي على الصلاة.. ولا حي على الفلاح.. ولا أمل للنجاة، لا يعلم أن الفارق في عدد الطوابق.. بين حجرتهم في مدخل العمارة وشقة محمود الجبالي في الدور الرابع.. يعني كل هذه الفوارق في الحياة.

في البداية اعتقد سعيد، من كلام جدته معه.. ومن عطف شهيرة عليه أنه سوف يعيش مع هذه الأسرة، بدلاً من أسرته التي فقدها، بعد موت أبيه وأمه.. وأنهم سيصبحون أسرته الجديدة.

ها.. وقد رأى الفارق الكبير بين ما كان يعتقده وما وجده بالفعل.

خصصت له شهيرة(فرشة صغيرة)، في المطبخ لنومه.. صيفًا شتاءً، وممنوع عليه سوى استخدام الحمام الصغير، والمخصص: للغسيل، وحموم الكلب، وقطة دينا، وقضاء حاجة سعيد وحمومه.

وممنوع أن يأكل إلا في أطباق معينة، ولائحة من الممنوعات..

التي لا ينتهي تجديدها، وتعديلها صباح كل يوم. هذا جعل سعيد صامتًا دومًا، ينفذ الأوامر في سكوت، محاولاً إدراك ما يحدث من حوله. وأصبح لاملاذ له سوى الوقت القصير الذي يقضيه مع جدته عندما تأتي لزيارة شهيرة، يجلس معها.. يتأملها.. ينظر في عينيها، وهو يسأل نفسه: أمازالت جدتي تدمع على فراق أمي.. أم نسيتها؟!..، يحاول أن ينظر لجدته أكثر مما يتحدث، فهي تسمعه بالكاد.. لولا يصرخ بالقرب من أذنها اليسرى، لكنه.. يصيح وهو يسألها، ليس لتسمعه هي فقط.. بل ليسمعه كل من يهمه الأمر، يصرخ وهو يرتعش.. مقتربًا من جدته.. يسألها من جديد:متى سأموت يا جدتي؟!.. حتى أرى أمي مرة ثانية.

وسعدية في منأى عنه.. وعن صرخاته، فهي لا تسمع.. لكنها كانت تأكل.. ما قدمته لها شهيرة، وتأخذ ما أحسنت به عليها، فضلاً عن مال الجبن والزبد، التي جلبتهما لها من المنوفية.. من خيرة فلاحيها، ثم تهم بالرحيل وهي تتبرع بعنقودٍ من الدعوات، لحاتم وطارق.. اللذين يحسنان معاملة سعيد حفيدها.

وشيئًا فشيئًا.. أبصرسعيد كل من حوله، ورأى الألوان الطبيعية.. وهي تؤخذ من اللون الأسود، وتعود للسواد من جديد شيئًا فشيئًا.. تحول سعيد إلى مرمطون، اللعبة الجديدة في يد طارق

وحاتم، الوسيلة الأفضل والأجدر والأصدق.. للمباهاة بين أصدقائهم، بأنهم أولاد محمود الجبالي.

فعندما.. يحضر أصدقاؤهم، يتعمد كل من طارق وحاتم.. بالتناوب، أن ينادياً على سعيد.. مناديين عليه باسم" منال"كي يحضر لهم أشياء.. لا تنتهي؛ ليجعلوا أصدقاءهم يرون مدى العز والسلطان، الذي يعيش فيه طارق وحاتم، والذي سخر لهما هذا الخادم.. أو هذا العبد، ويلبي سعيد كل طلباتهما دون أن يتفوه، وكان واحد من أصحابهم يتعمد دومًا، أثناء خروج سعيد من الغرفة، بأن يمد قدمه.. مقتربًا بها.. يضع إصبع قدمه الكبيرعلى أرداف سعيد.. ويزج به، فتنهال الضحكات.. وينتفض سعيد مهرولاً لخارج الغرفة.

ووسامة سعيد.. الزائدة، والتي تشبه جمال الفتيات.. ووجنتاه الحمراوان.. وعيناه الزرقاوان، كانت تجعل كل من يراه يعجب به، أما حاتم فكان يشتهيه.. حتى أنه في بعض الأوقات يداعبه، بأن يضعه على حِجره.. ويظل يحتك به عبر أردافه، ومرات.. كان يقذف حاتم أثناء هذا، ويحكي لطارق الذي لا يصدق.. ويقول له في حالة من الاندهاش:

- أتقذف.. يا حاتم، مجرد احتكاك بسعيد الخادم؟!..
- الولد حلو.. أحلى من البنات..

لكن الأمر لم يتعد هذا أبدًا، حتى جاء اليوم الذي خرجت شهيرة مصطحبة دينا معها، وشاهد حاتم وطارق الأفلام البورنو، وهاجت وصرخت شهواتهم.. حتى التهموا سعيد وأتوه، وأصبح سعيد إدمانًا لهم وجسدًا لا يستطيعون مقاومته، وكثيرًا ما كان العذاب يدميهما، يريدان أية طريقة تُبعد سعيد عنهما، حتى أنهما طلبا من أمهما.. أن ترسله لجدته في المنوفية، وكانت شهيرة.. توبخهما على الفور: أتريدان مني أن أستغني عن شخص يخدمنا.. وبدون أسباب؟!.. ألم يرِ كل منكما.. ماذا كانت تفعل معنا الخادمات؟!.. ومرة يأتين وعشرة لا..

وما تلبث.. أن تهدأ هذه الأعاصير المؤدية.. لهذا الهذيان، فيعودان إلى هذا الجسد اللامع والذي يشعل نار شهوتهما من جديد، فيأتيان له بكثيرٍ من الأنواع المختلفة.. للشيكولاتات والحلويات.. وعلب العصائر والمثلجات.. وبعض الملابس والأكلات التي يحبها؛ حتى لا يخبر أحدًا بما يحدث.

ومرات كثيرة كان يهرب منهما سعيد ولا يستطيعان السيطرة عليه، خصوصًا إذا كانت شهيرة في المنزل.. أودينا والتي هي عين لأمها.. تتجول في المنزل.. تراقب أي تغيير أو شيء.. فتسرع نحو أمها تبلغها بالأخبار.. فكانا يتركانه، ومرات أخرى عندما يشعر سعيد أنهما سوف يوقعان به، كانت تصيبه نوبات تشنجية، فيشعران أنه سوف يلفظ أنفاسه في الحال، فيتركانه سريعًا، ومرات أخرى..

هما اللذان يهربان منه.. ومن أنفسهما، عندما يرضخ لهما ذليلاً، بعدما.. تنهار كل مقاومته، ويصبح بين أيديهم جثة هامدة، دَب في أطرافها الصقيع، وبعدها يشعر طارق وحاتم بحالة من الندم.. والخوف، متذكرين.. بعض الوقت كلمة "الله"، أو بعض مما تعني هذه الكلمة.

كانا يتوقعان بل يترقبان، إصابتهما بمرض خطير.. يفتك بهما، حاتم قال عبارة قالها طارق من قبله: كيف.. نهرب من هذا البيت، الذي تحول إلى بِركة من النجاسة.. التي لا تنتهي؟!.. كيف.. نهرب من هذا الخادم الذي أصبح ملازمًا لنا في بيتنا.. ليل نهار.. يتحرك أمام أعيننا؟!..

لكنَ هذه هي أدعية ما بعد القذف واللذان ما يلبثان أن يعودا، إلى أدعية ما قبل القذف.

هناك.. شخص رابع، بعد طارق وحاتم وسعيد، علم بهذا السر، وهو أحد أصدقاء طارق وحاتم في الكلية، وقد اكتشف هذا عن طريق المصادفة، ولما تأكد من العلاقة الشاذة التي يعتديان طارق وحاتم من خلالها على سعيد، خفق قلبه.. اقشعر بدنه وهو يتماسك محاولاً عدم التقيؤ وانتابته حالة من عدم القدرة، على اتخاذ القرار.. وهو يتساءل: أأخبر مدير الكلية؟!.. وما شأنه هو بذلك، أأرسل خطابًا لوالد طارق وحاتم؟!.. وما أدراني ما رد فعله..، وانتابته

حالة من التقذذ الشديد، من هذين الشيئين طارق وحاتم، وقطع علاقته بهما.. بعدما قام بتحريض سعيد على الهرب، وأعطاه مبلغًا من المال.. كي يذهب إلى جدته أو عمه، وباءت كل محاولات سعيد على الهرب.. بالفشل، وفي كل مرة يطلب من جدته أن يجلس معها في المنوفية تتدخل شهيرة وتبطل كل محاولاته، وبالطبع عرف حاتم ما حدث من صديقه، وكيف كان يحرض سعيد على الهرب، وإعطائه مالاً ليساعده على الفرار.. من بين أيديهم، وأخذ يفكر كيف ينتقم منه، ويلقنه.. درسًا قاسيًا، يتعلم من خلاله مدى الجرم الكبير، الذي اقترفه.. في حق حاتم وأخيه، خصوصًا بعدما علم عنهما.. سرًا ليس بهين.

عندما عادت شهيرة للبيت، في نفس اليوم الذي خرج فيه حاتم.. من كلية الشرطة، ولم يجد سوى سعيد في المنزل، وأخذ يضاجعه.. حتى صارت عيناه هكذا، وعندما رأت شهيرة عين ابنها حاتم.. خفق قلبها، واعتقدت أنه من الإجهاد في الكلية، فطارق أيضًا في عامه الأول، من الكلية فقد الكثير من وزنه وشحب وجهه، لكنها تخشى من أمر عينه هذا المتكرر أن يؤثر على استمراره في الكلية، وشهيرة كانت تلاحظ.. أن هذه الحالة لا تأتي له إلا في حالات الإجهاد الكبير أو الاضطراب أو الزعل الشديد أو ... ولذلك فهي دعت له مجددًا، في هذا اليوم عشرات الأطباء، وجاءت أقوال الأطباء كالعادة، كثيرة ومتضاربة.. وما كان أحد منهم يعلم سر هذه الحالة الفريدة، والذي ينفتح خلالِها نن عيني حاتم، وينخرط كله حاجبًا اللون الأبيض من العين حتى تصبح العين كلها بلون النني فقط، وما يلبث حاتم أن يرتاح.. ويقوى جسده.. فتعود عيناه لطبيعتها.

ولكن هذا اليوم هتفت شهيرة مهللة: عرفت أنا السر وراء حالة عين حاتم ابني، بالتأكيد.. هو الحسد ؛ لأنني استطعت أن ألحق ولدي الاثنين(الحيلة) بكلية الشرطة، بينما غيري يتمنى.. أن يكون له ظفر عيل.. ولو أمين شرطة.

وبالطبع.. لم يخرج حاتم، لمقابلة الفتاة التي كانت تنتظره.. بعد

ثلاث ساعات، وهذه المرة حذره الأطباء من الإجهاد.. فبعيدًا عن أمه همس له الطبيب في أذنه: أرجوك ابتعد عن المخدرات.. وخلافه.. فأنت في بداية حياتك.

وعادت عين حاتم لطبيعتها، وقام.. فأخذ حمامًا وتوضأ، وخرج صوب المصحف مجددًا.. واضعًا يده عليه: أقسم.. هذه المرة بكتابك وكلماتك.. بالإيمان والإسلام.. بحق عرشك يا رحمن.. وملكوتك يا رحيم.. أنني لن أقترب من سعيد مرة أخرى وإن فعلتها مجددًا.. أكون كافرًا بك وبإسلامك.. وبنبيك.. وبإيمانك.. إن فعلتها مجددًا.. لا تجعل عيني تغيب وتأتي مرة أخرى فقط.. بل اعمني.. اعمني ياربي نهائيًا هذه المرة.. فكوني أن أرى نفسي أعمى.. أفضل من أن أرى نفسي وأنا أعصيك مجددًا.. بعدما عاهدتك كل هذه العهود.. وهذا وعد مني يا من خلقتني.. ياجبار، أنني لم ولن أعود لسعيد مطلقًا.. أو ألمسه مرة أخرى.

هذا كان دعاءه.. وهذه كانت دموعه.. التي أغرقت المكان.. وهذا هو سعيد.. الذي عاد حاتم .. يأتيه من جديد.

نسي.. كل وعوده، نسي الكلمات.. التي يمكن أن تزول لها الجبال، نسي.. كل شيء وعاد.

الاختلاف الوحيد أن آلام سعيد وصراخه.. ونشيجه.. أصبح شيئًا لا يحتمل، فقد اقتربت حالته من.. الموت.

ازدادت حالة سعيد النفسية سوءًا، وأصبح في الأشهر الأخيرة طفلاً آخر، فقد الكثير من وزنه، حتى أصبح نحيفًا.. واجنتاه الحمراوان دب فيهما لون أزرق مائل للسواد.. عيناه أصبحت غائرتين لا تستطيع أن تميز لونهما الأزرق الجميل. ثم راح.. أثناء غياب طارق وحاتم في الكلية يقلدهما: فيشرب السجائر، وبقايا علب البيرة.. ولا مانع أن يأخذ علبة كاملة، من الأماكن التي يخفيان فيها أشياءهما، فبالطبع سعيد هو أكثر واحد في هذا المنزل، يعلم كل الخبايا.. ويعرف الصغيرة قبل الكبيرة، فبدأ أيضًا يسرق منهما بعض الأموال التي يدخرانها.. كان يفعل كل شيء يشعر من خلاله أنه ينتقم منهما، حتى الجدران كان يخربها ويمحي بعضًا من طلائها.. كسر كثيرًا من الأطباق الغالية.

كرههم سعيد من أعماقه.. وكره كل شيء في حياته حتى أنه لم يعد يفكر في الفرار لجدته.. أو عمه ،هو لا يفكر في شيء.. سوى كيفية الانتقام من هؤلاء، هو لا يريد مجرد الهروب.. والفرار منهم، بل يريد أن يراهم مدمرين.

وكان سعيد كثيرًا ما يرى نفسه، مخدرًا حاتم وطارق ومجردهما من ملابسهما.. ثم يقوم بوضع الواقي الذكري في

عضوه.. كما يفعلان، ويأتيهما بقوة ونشوة.. وهما يصرخان.. يتأوهان.. ويتذللان له متوسلان أن يتركهما.. يرحمهما، وهو يأبى.. ويستمر يأتيهما حتى يقتربا من أن تفارق أرواحهما جسدهما.. ويصبحان جثة هامدة تمامًا مثلما كانا يفعلان فيه.

هذا كان يحدث بينه وبين نفسه وحلمًا من أحلام اليقظة، إلا أن هناك ما كان يحدث بالفعل وواقعيًا من سعيد نحوهم.

فقد كان يتلذذ سعيد مؤخرًا، وهو يشاهد.. جسد شهيرة ودينا، عاريين تمامًا وهما يستحميان، ولم يكن تلذذ شهوة جنسية، متمثلاً في مشاهدة جسد امرأة وطفلة عاريين، بل كان تلذذًا.. حبًا في الانتقام.

يوم الإثنين يوم معروف، هو يوم حموم شهيرة وابنتها. في الخامسة تدخل شهيرة الحمام، وتخلع عنها ملابسها كلها، وتفعل هذا مع دينا ويدخلان البانيو، وتبدأ شهيرة تحمي دينا.. تغسل لها شعرها.. ثم تجعل دينا بعد ذلك تغسل لها ظهرها، والذي لا تطوله شهيرة بيدها وذراعيها الممتلئين، وتستحمان.. وتقوم شهيرة بتمشيط شعرها.. وشعر دينا.

ويظل سعيد طول مدة القيام بهذه الطقوس، والتي تستمرساعة ونصف يثقب جسدهما.. بعينيه من فتحة الباب، وبالطبع يوم الإثنين

الأخوان، حاتم وطارق في الكلية ولذلك سعيد يشاهد.. ويتخيل.. ويحلم من خلال ثقب باب الحمام، دون قلق أو خوف فكان يتصور نفسه فاعلاً فيهما كل شيء..

وهذا لم يحدث إلا مؤخرًا، فقد كان سعيد يحب شهيرة.. ويحترمها، كذلك كان يشعر أن دينا أخته.

أما الآن فهو يتأمل النهدين المترهلين الطويلين.. لامرأة تجاوزت عقدها الرابع، ويرى أردافها الغليظة.. واللحم متكوم عليها متكسر.. وهو يتساءل: هل سيأتي اليوم وأنتقم منهما.. عن طريق هذه الأرداف الكبيرة؟!.. هل سيأتي اليوم وأفعل في هذه الأرداف.. كما فعلوا في أردافي أولادها؟!.. ولكن كيف لي أن أسيطر على هذا الجسد الضخم وأحكمه؟!.. من المؤكد أنني لن أقوى عليه!..

ثم ينتقل بعينيه نحو دينا.. ضئيلة الجسد، يتأملها وهي عارية.. يثقب بعينيه أردافها الصغيرة، التي تشوبها حمرة جميلة، وينظر أكثر فيبتسم.. عندما يرى جسدها النحيف وهو يقول:نعم هي.. سأستطيع السيطرة عليها.. هي دينا.. سأفعل معها كما فعل أخواها معي، سأذيقهما ويلات ما أذاقوني منه... لكن كيف؟!..

تختفي أشباح الأحلام.. والتي ترسم له خطوط الانتقام عندما يرى شهيرة ودينا، قد وضعا الفوطة الكبيرة على جسدهما.. استعدادًا للخروج من الحمام، فيهرول سريعًا.. متجهًا نحو المطبخ، يجلس على فرشته.. متأملها، وأفكار كثيرة.. تجول عبر رأسه، وهو

لا يسكن.. لا يصمت.. تتحرك يداه وقدماه بطريقة عصبية.. وبصفة مستمرة، أصوات كثيرة تصرخ بداخله.. أشباح كثيرة تتكلم أمامه: (لا للظلم.. ولا للقهر، نحن الذي ندع الآخرين يمصون دماءنا.. ويأكلون رزق أولادنا.. ينهبون أموالنا.. ويضربوننا بحذائهم، فقط نحن الذين جعلناهم يفعلون بنا هذا، لولا.. جبننا وصمتنا، ما وصلوا معنا إلى هذا الحد، نحن أصبحنا.. جمهورية من العبيد، عند نخاس أجوف، وقطاع طرق.. لم يعلموا من أبيهم.. وأي أم كانت لهم..)، كان يسمع هذه الكلمات في أفلام أوروبية كثيرة، من خلال الأفلام المدبلجة، وكذلك في الأفلام الأمريكية، والهندية.. ربما، مصرية؟.. لا بالطبع!..

يفكر.. في هذه الكلمات: نعم سأفعل كما سمعت.. ورأيت في هذه الأفلام المدبلجة، سأفعل كما ثارت البطلة واعترضت على تصرفات البطل معها.. فشربت سُمًا.. وماتت.

كان يشاهد سعيد هذا حقيقي، أثناء سهرات عدة مع شهيرة وأولادها، وهو يجلس في زاوية منكسرًا.. يشاهد أجزاءً من الفيلم، هذا إذا ما رحمه حاتم، وتركه ولو للحظات دون أن يطلب منه شيئًا، أو يستدعيه ليحضر له كوبًا من الماء، ويطلب منه أن يظل واقفًا.. حتى ينتهي من الشراب، ليأخذ الكوب معه وينصرف، بينما يتعمد حاتم أن يشرب القليل من الكوب.. وينتظر كثيرًا.. متصنعًا أنه

مندمج في المشاهدة.. ثم يعود ويشرب ...، ...؛ ليجعل سعيد واقفًا أطول وقت أمامه.. ذليلاً.. ينتظر أمر سيده.. ليعطيه أمر الانصراف، فيعود سعيد ويتابع مشاهدته للفيلم، ورغم القليل الذي كان يشاهده، كان ينجح أن يلتقط من المشاهد العدوانية، والأفكار التي يمكن بتطبيقها أن يتخلص من هذه الأسرة.

وفي اليوم التالي.. يظل سعيد يسأل مستفسرًا، عما شاهده أمس.. وهو يقول لشهيرة:

- من أين حصلت البطلة على السم الذي قتلت به نفسها؟!..
- من عند بتاع السم بالطبع!..
- ومن هم أصحاب السم؟!..
- وهل هناك سم.. أشد قتلاً مما يباع في الصيدليات؟!.. ونحن نأخذه على أنه علاج!..

يتأكد سعيد أنها هي، وليس غيرها علبة الدواء الكبيرة، والخاصة بعلاج ضغط شهيرة.. وهو يقول لنفسه: نعم فعلت هذا البطلة، في فيلم الأسبوع قبل الماضي.. عندما سئمت حياتها بسبب البطل.. وعذابه لها ليل نهار.. والظلم الواقع عليها منه.. نعم فعندما أرادت التخلص منه.. وضعت له حبوبًا كثيرة من الدواء في شرابه.. فأخذ يرتعش وينتفض.. ومات..، لكن كيف.. أضع لهم هذا الدواء الكثير في الطعام؟!.. سوف يكتشفون أن الطعام مليء بأقراص الدواء.. ولم يكملوا الأكل.. وسوف يكتشفوا أمري ويقوم

حاتم بقتلي مباشرة..

صباح الأحد.. يوم ذو حرارة قائظة، من بين أيام الصيف الملتهب. طارق وحاتم كلاهما في الكلية، وعلى غير العادة لم تنم شهيرة.. كذلك سعيد، بعد نزول دينا إلى المدرسة.. هذا اليوم؛ لأن اليوم سوف يأتي أقارب لمحمود من المنوفية يحضرون معهم بعضًا من الخبز، وأنواعًا من الفطائر، والزبد والجبن، والطيور واللحوم، والخضراوات والفاكهة.

كل هذه الأشياء كانت من أجل محمود، والذي اقترب موعد إجازته، أسبوع على الأكثر.. ويأتي إلى مصر بلا عودة، نعم لن يعود محمود، مرة أخرى للعمل في الدوحة، وهذا قد تم الاتفاق عليه، من عدة شهور ماضية، وأكده محمود على طارق وحاتم.. في

آخر مكالمة هاتفية جمعتهم.. قائلاً لهما: إنني.. كان لي حلم، وسعيت جاهدًا في تحقيقه، وحلمي كان أن أجعل منكما ضابطي شرطة، وأن لا تحتاجا إلى أحد.. أو إلى شيء ، حتى أعبر بكما إلى بر الأمان، ومن أجل حلمي هذا.. تكبدتُ الكثير.. حتى كان جسدي ينفث عرقه دماء.. من أجلكما.. وأصبحت كهلاً.. بجسد مليء بالأمراض في سنٍ مبكر، وقد جاء اليوم الذي أستطيع فيه أن أعتمد عليكما، فأنت يا طارق بعد أيام سوف تتخرج.. وتصبح ملازمًا، وبهذا سوف أرتاح أنا.. وتتولى أنت الإنفاق على أخيك حاتم.. خلال السنتين المتبقيتين له من الكلية، حتى يصبح ملازمًا مثلك، فتتولى أنت وهو الإنفاق على دينا أختكما، فصدقوني ما عاد لدي مدخر.. من صحة ولا مال.. إلا القليل جدًا.. والذي يساعدني على مصاريف زوجتي وعلاجي.

وعندما عادت دينا من المدرسة، في نفس هذا اليوم، كان سعيد مشغولاً.. بتنظيف الطابق العلوي، بينما شهيرة مندمجة مع ضيوفها.. في الطابق السفلي، وهم يساعدونها في إعداد الطعام وترتيب الأشياء التي جلبوها معهن.

صعدت.. دينا إلى حجرتها، وضعت حقيبتها وغيرت ملابسها، وخرجت(بشورت وتي شيرت)فقط.. يظهران بعضًا من جسدها، وكان في يدها الكثير من المثلجات.. والحلويات، وهي حائرة بعينيها تبحث عن سعيد، حتى وجدته.. وأخذت تنظر له في عينيه، نظرات طويلة قائلة له: هذه الأشياء لك يا سعيد، بشرط أن تصنع معي ما تصنعه مع أخوي طارق وحاتم، تفعل معي كل ما تخفونه عني، وتخبرني بكل الأسرار التي لا يعلمها إلا غيركم..

نظر إليها.. متسائلاً سريعًا بينه وبين نفسه: أتكون هذه فرصتي.. التي أبحث عنها؟!..

لم يتردد لحظة.. وهو يمسكها من يديها برفق.. ويقول لها: تعالي معي يا دينا، وسأخبرك بكل شيء.. وأعلمك كل ما.... وفعلاه معي أخواكِ..

دخل.. الاثنان حجرة دينا، وأغلق سعيد الباب.. ثم أوصده بالمفتاح من الداخل، وقال لها: استديري للخلف ..

ثم أخلعها شورتها.. فظهرت أردافها، أخذ ينظر لها وعيناه تذهب وتأتي عبرها، وبدت له.. وكأنها السنين المريرة أمامه فنظر أكثر إلى لحمها الطري الجميل، وأمسك طرفًا من أردافها.. يزيح مبعدًا بينهما، فظهر شرجها، أسرعت تنهره وهي تزيح عنها يديه.. قائلة له:

- ماذا تفعل يا سعيد؟!.. ماذا تفعل...؟!..

- لا تخافي.. سأقول لكِ ما كنا نفعله.. أنا وأخواكِ..

ثم التصق بها وهو يضمها.. إليه بشدة، يشل حركتها بسرعة خاطفة، وأخذ يبدأ.. ثم أوقعها على الأرض، مرتميًا فوقها.. يضع يده على فمها.. كي لا يُسمع لها صوت، وأخذ من جديد ينظر لشرجها.. تذكر تعنيف حاتم له عندما كان في المرحلة الثانوية.. وأخذ يهدده بأن لا يخبر أحدًا عما يحدث.. وقام بضربه بلكمة قوية في وجهه.. تطايرت الدماء على أعقابها من أنفه، فصرخ سعيد له.. قائلاً:

- إنني سوف أخبر أباك الحاج محمود.. وجدتي عن كل شيء.. نعم كل شيء، فأنا أعلم ماذا تفعلان بي.. أنا لست واحدة مما تعرفان.. كي تصنعا معي هذا، سأقول لكل من أرى.. وإلا سأفعل ما تفعلانه معي في أختكما..

- أخت.. مين يا بن الكلب!..

وانهال.. عليه حاتم ضربًا، و يستجير سعيد فلا أحد يسمعه: اتركاني.. اتركاني أرحل من هنا..

استمر حاتم يضربه.. وهو في ثورة عارمة:

- أخت مين يا بن الكلب.. !.. قلها لي.. وأعيدها ثانية؛ كي أسمعها.. أقسم لك يا سعيد لأفصل رأسك عن جسدك..

- لا يهمني أي شيء آخر.. فالموت سوف يجعلني أستريح.. مما تفعلون معي..

خرج حاتم تاركه وهو يتوعد له، وعندما تقابل مع طارق.. حكى له: الولد ده يا طارق لازم يتربى!.. فنحن دللناه كثيرًا.. ولم يرَ منا إلا الأكل والمثلجات والمال وخلافه فلابد أن نريه الوجه الآخر حتى لا يجرؤ أن يعيد ما قاله مرة ثانية.

اتفق الاثنان أن يربيا سعيد، وعندما خرجت شهيرة أقسما أن يلقناه درسًا لا ينساه؛ كي لا يعتقد أنه أمسك عليهما ذلة.. بل لابد أن يعلم أنه العكس.

أخذا يضربانه بوحشية مريبة.. ثم حمله طارق وألقى به على الأرض قائلاً له: عارف يا سعيد لو أخذتك على القسم.. أنت وجدتك.. والتي تريد أن تخبرها.. أتعرف ماذا سيحدث معكما؟!..

ثم قاما بتسخين يد الملعقة.. على البوتجاز، وأخذا يرهبانه بها.. وهما يقربانها نحوه في أماكن متفرقة، وسعيد يحاول الفرار منهما.. يصرخ صرخات كادت أن تثقب نوافذ الشقة هاربة، ثم أخذ حاتم يجلده بحزام طارق.. الأسود الثقيل والخاص بزي الكلية، وكلما ضربه أكثر انخفض صوت سعيد أكثر.. حتى فلت الحزام من يد حاتم.. فضربت توكة الحزام عنق سعيد.. وقع على الأرض يتلوى.. فاقدًا الوعي، فأسرع طارق على حاتم يبعده عن سعيد.. يقول له:

- كفاية يا حاتم، الولد هايموت.. ويجيبلنا مصيبة..
- يموت.. ولا يغور في ستين داهية!..

هكذا كان رد حاتم على طارق بينما صوت أنين سعيد كان يصدر منه.. وكأنه آتيًا من عالم آخر، وأخيرًا بعدما قاما بتعذيبه.. أخذا يحذرانه بلهجة أشد قسوة.. ألا يعيد ما قاله مرة أخرى.

ثم عاد سعيد يرمي بكل الآلام التي يتذكرها، ينظر فقط إلى أرداف دينا.. وأخرج عضوه وغرسه بينهما، شعرت دينا بذكره موت يتدفق لجسدها.. وأخذت تصرخ وهو يكتم صوتها أكثر:

- اتركني يا سعيد.. ماذا تفعل؟!..
- هكذا كنت أفعل مع أخويك..

قاومته دينا أكثر.. بكل ما تمتلك من قوة.. فوقع عليها سعيد، نائمًا فوقها.. مغطيًا كل جسدها.. فأخذت دينا تتلوى أسفل منه وهي تقول:

- لا.. لا أنتم تفعلون مثل ما رأيت في مجلات طارق وحاتم القذرة!.. أمي قالت عليها هذا.. اتركني يا سعيد.. اتركني فأنا أختك دينا حبيبتك..
- لا تخافي.. لن تشعري بأي شيء..
- لا.. لالالالالالا

هكذا كان ينخفض صوتها شيئًا فشيئًا، وسعيد واضع يده على فمها بإحكام، مقلدًا أخويها.. وهو نائم فوقها.. يحاول أن يأتيها بقوة، وقد أدرك أن الوقت فات، كي يتعاطف مع أنينها.. ودمعاتها التي أغرقت يده، أدرك ألا شيء بداخله.. يسمح له أن يرحمها.. وهو

يقول لنفسه: لن يرحمني أخواكِ.. فلابد أن أنهي مهمتي.. وأفر سريعًا أو أفشل.. ويكون فراري إلى الموت من أخويكِ.

وشعر بها سعيد وهي تتهاوى، مثله تمامًا عندما كان يوشك أن يفقد الوعي.. يتلوى أسفل أخويها.. ويشعر أن صقيعًا تسلل له.. وأنه سوف يفارق الحياة، وهو الآن يراها.. وهي تذوق كل آلامه وويلاته ، يراها وهي راضخة أسفل منه.. تتنافر حركاتها.. فقد نجح في تحويلها إلى جثة بلا حراك، فيقوم محاولاً أن يأتيها في فرجها، بعد شرجها.. واستمر يأتيها بقوة وعنف.. تساوي كل القوة والعنف الذي أتاه بها أخواها على مدار السنين، كان يفعل هذا بهيستيرية غير عادية .. ويبدو أنه لم يستطع أن يتم الأمر كاملاً بعضوه، فقام من عليها بعدما تأكد أنها شيء ملقى.. لا يتحرك، وراح بيده يعبث فيها.. محاولاً إدخال يده قدر المستطاع داخل فرجها، وعندما أخرج يده كانت حمراء.. تتساقط منها قطرات قليلة من الدماء.

وعندما شعر أنه أنهى أمره، وأنه عاد"سعيد"في عهده القديم، مثل اليوم الذي صعد إليهم شقتهم.. وعاش معهم، عندما شعر أنه اكتفى.. وانتقم. في هذه اللحظة كانت دينا شيئًا ضئيلاً.. ملقى على الأرض، لا يصدر منها حركة أو كلمة.. بينما عيناها مازالا مفتوحين.. معلقين على شيء.. لكنهما لا يتحركان.

رد إليها سعيد ملابسها.. وحملها.. يضعها على السرير، فلطخت يده المليئة بالدماء ملاءة السرير.. ووجه دينا، وأصبحت أشياء كثيرة ملطخة.. بدماء هذه البريئة، وبعدما وضعها على السرير، قام بوضع عروستها في أحضانها تمامًا مثل عادة دينا أثناء نومها، ووضع عليها الغطاء الخفيف كي يخفي وجهها الملطخ بالدماء، وقام سريعًا يمسح كل بقايا الدماء، من على الأرض.. ومن يده، ثم خرج وهو يغلق باب الغرفة خلفه.

اتجه نحو غرفة شهيرة، كان يعلم أماكن كل الأشياء جيدًا، ففتح دولاب شهيرة الخاص.. كان قاصدًا علبة"الذهب"، وكان يعلم أن شهيرة تضعها، في حقيبة متوسطة الحجم حاول فتح الحقيبة ولم يفلح؛ كانت.. مغلقة بإحكام، هو لا يريد إلا علبة الذهب، بينما ما بداخل الحقيبة.. الكثير غيرها مثل: سلاح محمود الجبالي، ألبومات صورهم النادرة، أوراق وكارنيهات طارق وحاتم القديمة، ومال مدخر؛ كل شيء ثمين تغلق عليه شهيرة في هذه الحقيبة، وعندما لم يفلح في فتحها، أخذ الحقيبة كلها.. وهمَّ بالخروج من الغرفة، سمع صوت قدم شهيرة، وهي تصعد إلى الطابق العلوي.. وكانت تقول: دينا.. دينا..

وضع الحقيبة أسفل السرير.. وخرج سريعًا.. يجيب شهيرة:

- دينا نامت في حجرتها..
- نامت؟!..

فتحت شهيرة باب الحجرة برفق.. تنظر لها من بعيد.. وجدتها نائمة.. فهمست: نمتي يا دينا.. من غير ما تأكلي ولا تأكلي باربي؟!.. على العموم هاخلص الغدا وهاصحيكي

وخرجت.. وهي تغلق الباب بهدوء؛ حتى لا تيقظ ابنتها، ثم اتجهت نحو سعيد:

- ماذا تفعل في غرفتي.. هي نظيفة؟!..
- لا.. انظري للسجادة؟!..
- شاطر يا سعيد.. خلص وتعالى بسرعة.. علشان هاتجبلنا حاجة من تحت..

هكذا قالت له.. وهي تنزل مرة أخرى للطابق السفلي، وما إن نزلت.. حتى أسرع سعيد إلى غرفة المعيشة، وفتح البلكونة.. والتي بها"سبت صغير"، يضع لهم فيه صاحب الماركت الأشياء التي يطلبونها، أو كعادة سعيد وهو يشتري طلبات للمنزل.. فقد كان يضعها في هذا"السبت"، ثم يصعد هو دون أن يحمل شيئًا معه، ثم أخذ الحقيبة سريعًا من غرفة شهيرة، وعاد.. ليضعها في هذا "السبت".. وأنزله شيئًا فشيئًا إلى أسفل.

ثم ذهب لشهيرة يقول لها: ماذا تريدين.. من الخارج؟!..

هكذا خرج سعيد.. ليأخذ الحقيبة.. ويفر

كان يحرص دومًا محمود الجبالي أن يراه أهله في المنوفية بمظهر لائق، ويرون أولاده هكذا. وهو منذ زمن طويل لم يزر المنوفية، واليوم يزورها وهو محمولاً على الأكتاف، يُزف في موكب كبير إلى قبره. فقد كانت جنازة حقيقية مؤلمة، تشعر من خلال نظرتك لكل من يمشون خلالها بحزن وأسى على وجوههم، فمعظم من يمشي خلف هذا النعش، يعلم أن صاحبه والراقد فيه الآن، قد باع عمره كله من أجل أبنائه، من أجل أن يصبحوا شيئًا مهمًا وكبيرًا، وواقع فعلي نافذ على كل البشر، وعندما عاد ليرى أول ثمار حلمه، وجد كل المدن تشتعل والدمار فوق رأسه جبال تنهار، وجد بقايا دم متجلط بين فخذي ابنته ومن خلفها، وزوجة أكلها الفشل.. وشابين أصبحا مجرمين، وفي الغد القريب سيصبحان أولاد العم وأصحاب قرار وسلطان، الكل يعلم وهو يمشي الآن خلف هذا النعش أن صاحبه كان يتمنى الموت خير من عذابه وألم شلله وشعوره بالذل والانهزام، الكل يعلم أن فترة شلله لم تطل ورحل ليزور المنوفية اليوم وهو محمول على الأكتاف.

عندما نزل سعيد من القطار.. وخرج من المحطة أخذ يجوب شوارع الإسكندرية في عشوائية تامة، حتى اختفت الشمس ومضى في هلع بين ليل الإسكندرية يتأمل الناس.. المحلات والمطاعم، منذ فترة لم يأكل لكنه لم يشعر أنه جائع، شعور بالضياع فقط كان يتملكه.. وأن موتًا يلاحقه، يلتفت حوله.. في كل الشوارع واللافتات لا يرى سوى أشباح طارق وحاتم تتحرك حوله. عندما وصل إلى كورنيش الإسكندرية خطفه منظر البحر، اقترب منه وهو يشاهده.. أفزعه غضبه وهياجه كلما ارتفع بموجه، ظل جالسًا ساعات طوال دون أن يتحرك، وكلما اقترب منه أحد اعتقد أنه سيقبض عليه، حتى وقفت سيارة ميكروباص وسائقها ينادي مكس..مكس..مكس لم يدر إلا وهو يركب فيها مندسًا بين الناس.. وصل الميكروباص إلى المكس لم ينزل سعيد، وطلب من السائق أن يعود معه للمكان الذي ركب منه، وعندما عاد وبدأ السائق ينادي ويحمل سيارته من جديد لمح سعيد في السيارة، اقترب منه وهو يتفحصه:

- ما حكايتك يا بني ..ولماذا لم تنزل من السيارة؟
- لا أعلم أين أذهب..
- من أين أنت يا بني..
- من مصر وجئت هنا أعمل في الإسكندرية فأمي تحتاج لمصاريف، خصوصًا بعد وفاة أبي فهي لاتستطيع إطعام إخوتي

حتى ولو خبز فقط..

- وأين كنت تعمل من قبل؟

- في سوبر ماركت..

- تعال معي سأذهب بك لرجل لديه محل صغير للسمك في بيته.. وقد طلب مني أن أبحث له عن صبي يقف معه.

طرق السائق باب بيت الرجل الذي يقصده عدة مرات ولم يجب أحد، فراح ينادي بصوت مرتفع: ياريس عبد الحي.. ياحاج عبد الحي.. يا عم عبد الحي.

فَتح شباك من الدور الثالث، ونظر منه رجل تجاوز الستين من عمره بملامح حادة وخشنة، و.. دون أن يتكلم أنزل لهم حبلاً في آخره سبت، ضحك السائق وهو يقول:لا ياعم عبد الحي..أريدك أنت.

أغلق عبد الحي الشباك في حدة، وغاب ما يقرب من عشرين دقيقة ثم نزل، كان السائق دخن سيجارتين ويشعل الثالثة، عندما اقترب من عبد الحي يقول له: هذا الولد من مصر ويبحث عن عمل هنا ليساعد أمه وإخوته كما يقول والله وحده يعلم صدق كلامه من عدمه، لكنه يبدو عليه ابن ناس طيبين ومسكين، وأنت قد طلبت مني أن أبحث لك عن صبي يساعدك، فجربه محتمل أن يفلح.

عندما دخل سعيد مع عبد الحي كان البيت من الداخل، أشبه بمغارة أو قلعة مهجورة، الدور الأول كله يتسع بالكاد لمركب محطم، ومجموعة أشياء والتي تكون المعنى الحقيقي لكلمة أطلال، وظلام موحش لا يجرحه سوى لمبة صغيرة عند بداية السلم، وعندما صعدا ومرا على الدور الثاني لمحه سعيد.. أنه مهجور خاو على نفسه لا أثاث ولا حياة فيه، ثم صعدا الدور الثالث وهو عبارة عن صالة في وسط الطابق وبها الشباك الصغير الذي نظر منه عليهما، ومن الجانب الأيمن للصالة غرفة بجانبها مطبخ، ومن الجانب الأيسر للصالة غرفة أخرى بجانبها حمام، لاحقته سريعًا الرائحة العطنة التي تفج من الأثاث البالي المختلف راديو قديم وثلاجة عتيقة، جلس عبد الحي على الأريكة الموضوعة أسفل الشباك، وهو ينهج من صعود الدرج، نظر له سعيد وقال:

- نريد أي شيء نفتح به هذه الحقيبة..
- وما بهذه الحقيبة؟!
- عندما تفتحها سترى..

أمسك عبد الحي الحقيبة وهو ينظر لها وكأنه يتفهم شفرتها، ومن أول محاولة فتح الحقيبة، فظهر كل ما بداخلها..تناول عبد الحي علبة الذهب، وأخرجها وهو ينظر إلى السلاح الموضوع بها، اقترب منه سعيد يبكي وهو يرتعش: خذ كل هذا خذها كلها ،لكن أرجوك أن ترحمني.. وتحميني منهم.. أتوسل إليك.

ثم ارتمى فوق قدمه يقبلها، أبعده عبد الحي وهو يمنعه أن يقبل قدمه:

- من مَن يا بني تريد أن أحميك،.. من أهلك؟
- لا..لا..هم ليس أهلي.. أنا كنت خادمًا عندهم.

أجمل ما كان يجذب الانتباه في أحمد العسقلاني، عندما يقوم بالاتصال بأحد أصدقائه ولا يجده في المنزل فيخبر والدة صديقه التي ردت عليه: من فضلك بلغيه أن أحمد بيه العسقلاني سأل عليك.

كانت معظم الأمهات تضحك بعدما تغلق الخط.. وهي تقول: الولد اتجنن منذ تخرجه وهو يقول على نفسه أحمد بيه.

وسعى أحمد جاهدًا بعد تخرجه أن يعمل في الغردقة.. وقد نجح، منذ الوهلة الأولى هو ذاهب قاصدًا الساحرات في زي البحر، ومنذ الأيام الأولى أيضًا قد ذاع خبر أحمد بين أصدقائه.. ومحيط العمل، وبدأ الكثير منهم ينظر له على أنه كائن غريب، وقد أكد هذا عندما تشاجر مع عصام رشدي أحد وكلاء النيابة التابع لهم قسم أحمد، وقد جمعت أحمد بعصام بعض جلسات الغداء، في استراحة

وكلاء النيابة، وبعض جلسات الترفيه في أوقات الفراغ، ويقال إن أحمد أثناء غداء جماعي يضم بعضًا من ضباط الشرطة ووكلاء النيابة، كان أحمد يحكي عن قصة حدثت مع عمه ضابط الشرطة، تحديدًا عندما رفض وكيل النيابة إعطائه أمرًا بالتفتيش، فقام عم أحمد ضابط الشرطة باستدعائه.

وتفاجأ وكيل النيابة عند وصوله، بالعساكر يربطونه وعلقوه في شيء مثبت في السقف من قدمه، وجاء عم أحمد بخرزانة أسواني وأخذ يضربه ضربًا مبرحًا، ثم أحضر كل أفراد القسم ليشاهدوا ما جزاء وكيل النيابة الذي خالف أوامر الضابط.

ترك عصام الأكل.. وابتسم بسخرية وهو يقول: ألم يدرس هذا الولد القانون؟

وخزنها عصام له ودون أحمد في ذاكرته تحت عنوان مريض متعجرف، وعند أول طلب رسمي يطلبه أحمد العسقلاني من وكيل النيابة عصام رشدي أطاح به رافضًا إعطائه التصريح الذي طلبه، مما أغضب أحمد وجعله يذهب مسرعًا لمبنى وكلاء النيابة.. ثم دخل بصورة فورية لعصام مكتبه فما كان من عصام إلا أن قال له:

- اتفضل يا أستاذ أحمد بره..
- ماذا تقول؟!
- أقول لسيادتك اتفضل بره.. لا يجوز الدخول على وكيل النائب العام أثناء ممارسة التحقيق مع متهم.. مهما تكن الأسباب،أم

سيادتك لم تدرس القانون، أم أن سيادتك مازلت تصدق حكايات فرافيرو التي تحكيها عن عمك ضابط الشرطة مع وكلاء النائب العام..

- كيف تتحدث معي هكذا؟
- ومن الممكن أن يكون الأمر أسوأ من ذلك.. اتفضل بره..

وأراد عصام رفع مذكرة للمحامي العام بما حدث، لولا تدخل بعض الزملاء، ومنذ هذه اللحظة عرف الجميع أن في أحضانهم يعيش بهلوان كبير.

يوم الجمعة.. يوم شاق عند كل الصيادين، في السادسة صباحًا كان سعيد في وسط البحر يصاحبه عبد الحي، يشدون شبكًا غليظًا مع باقي الصيادين، وقد ثقل وزنه.. وهم يسيرون عكس اتجاه الريح، عندما اعتدلت الشمس وسط السماء، كانوا قد جمعوا ما استطاعوا إليه سبيلاً.. وخرج عبد الحي من البحر يلتقط أنفاسه بالكاد، وكأنه مصارع ينازع الموت داخل حلبة النزال، ثم جلس وهو يتأمل قرص الشمس.. يدخن سيجارته دون أن يتكلم مع أحد،ثم قام.. بفرز السمك، واقتناء البعض من أنواع نادرة والتي يحرص

كل الصيادين على بيعها لارتفاع ثمنها، لكن عبد الحي كان يأخذها آخر اليوم معه لداره، ليصنع منها وجبته الدسمة المفضلة، والتي يتناولها بعدما ينهي كل ما ورائه من عمل، كذلك لم يكن عبد الحي مثل باقي الصيادين ملهوفًا على البيع أو التمسك بالسعر، بل كان يجعل سعيد يتولى البيع، وكلما جاءه سعيد يخبره أن شخصًا يطلب منه أن يخفض له الثمن.. لا يمانع.

وعندما عادوا إلى البيت، كان سعيد ينظف ويرتب.. ويعد بعض الأشياء للعشاء، وهو يراقب عبد الحي بدقة، يراقبه وهو يقوم بروتينه اليومي والذي لا يتغير، يبدؤه في منتصف اليوم، عندما يأكل لقيمات قليلة، ثم يحضر عدة القهوة والمشعل، ويجلس على أريكة كبيرة منجدة أسفل الشباك الصغير في منتصف صالة الدور الثالث، ويقوم بتقطيع قطع من الحشيش ويضعها فوق حجارة الجوزة المتوهجة، ويشد أنفاسها على صدره، وكأنه يلوذ بأكسير الحياة، وهو يصب قدحًا تلو الآخر من قهوته المخصوصة، وتستمر جلسته هذه أكثر من ثماني ساعات.. كل خمس دقائق تقريبًا يسمع خبط الباب، يفتح الشباك.. ينظر لأسفل، ويفهم ما هو المطلوب..مجرد ما ينظر للشخص الواقف، فيأخذ لفافة من أمامه بداخلها شيء لم يكن سعيد يعرفه ثم ينزل السبت فارغًا دون شيء، وعندما يرفعه يكون به ورقة مالية صحيحة، يتناولها وهو يضع اللفافة للزبون وينزل له السبت، وقبل ما يقوم عبد الحي من مكانه

يكون قد جمع مبلغًا من المال، يستحيل على صيادي البحر أن يجمعوا ربعه خلال شهر كامل من عملهم، يأخذ المال وباقي الوريقات الملفوفة ويدخل لحجرته، ثم يعد لليلتهما هو وسعيد وجبة السمك الدسمة، والتي يشرب بعدها لترًا من ماء الشعير الذي يعده هو في البيت، ثم يذهب ليضاجع النوم منفردًا، فهو لم يغير عادته يومًا في نومه أو استيقاظه مبكرًا.

شيئًا فشيئًا بدأ عبد الحي يُعلم سعيد أن يجلس مكانه، ويعرفه زبائنه.. وما يريدونه وأنواع الورق وكيف يزن ويقطع، وحفظ سعيد الزبائن وتعودوا هم عليه سريعًا عندما وجدوه مدركًا لإشارتهم ومعانيها، كذلك تعودت عليه الندورجية وفهم سعيد إشاراتهم، وموعد خبط كل منهم.. وكان أكثر الزبائن هو رامي يوسف وشهرته رامي قمر لجماله الملاحظ، والذي ورثه عن أمه الفرنسية، ورغم جسده الضخم وآثار جرح بمطوه على وجهه، كان يتمتع رامي بوسامة ووجه بشوش، ورامي كان يزورهم أكثر من مرة في اليوم؛ لأنه يشتري له ولزملائه والذي يبيع لهم بعد ذلك بثمن أعلى، وارتاح رامي للتعامل مع سعيد حتى أنه كان بعض الوقت لا يأخذ ما يريد من خلال السبت والشباك، بل كان يصعد لهما ومعه حقيبة مليئة بالمشويات، ويأكل هو وسعيد وعبد الحي.. ويشربون الشاي وهم يضحكون بصورة مستمرة من تهريج رامي، وكان عبد الحي مطلقًا عليه رامي اللمض لكثرة جدله وتهريجه،

رغم ذلك كان يكن له محبة خاصة.

رغم أنه يوم الجمعة أيضًا لم يذهب عبد الحي إلى البحر، واصطحب سعيد معه وذهب لمقابلة شيخ الحارة التابع لها، والذي رحب بعبد الحي وأخذ ينصت له وهو يقول: أريد أن أستخرج شهادة ميلاد لولدي هذا، فمنذ ولادته سهوت أن أقيده، وأنت تعلم سنه كبر ولابد من استكمال أوراقه..

نظر له شيخ الحارة بعين ماكرة وبلهجة بها توعد وقال: لكن هذه المرة الأولى التي أعلم أو أي أحد يعلم أن لك أولادًا غير ابنتك رحمها الله.

أيام معدودات ويصبح بعدها حاتم ملازمًا حاتم الجبالي، أما طارق بعد تعيينه بناء على رغبته في المنوفية، مكث هناك لا أحد يراه بالطبع ليس من أجل العمل بل من أجل البحث عن سعيد، حتى إجازته لا يأخذها بصورة دورية.. وهو يمشط كل متر في المنوفية باحثًا عن سعيد، كان على يقين تام أن أهله قاموا بإخفائه في مكان

ما، ولذلك لم يرحمهما سواء جدته أو عم سلطان أبو زغرودة، وعندما تلح عليه دينا في الهاتف أن ينزل إجازة وهي تبكي له كذلك أمه، كان يذهب لهما بأرجل أثقلتها الذنوب والأحزان، يقوي في نفسه ألف مرة قبل ما تقع عينه في عين دينا شقيقته، ويرى الانكسار في عينيها حدائق وغابات تنمو، فيتذكر أنه هو وحاتم فقط السبب في كل هذا.. ومجرد أن تراه دينا ترتمي في أحضانه ولا تفارقه إلا وهو مغادر البيت للمنوفية، كانت تشعر أن طارق هو الأمان والسند الوحيد لها فأبوها قد رحل، أما حاتم فهو ظل ليس أكثر يتنقل من حولها، ولذلك ما إن تجد طارق حتى تسرع مرتمية في أحضانه،وكأنها تحاول أن تختبئ.. وتصرخ.. تلدغه نبضات قلبها العالية،وكأنها ناقوس يذكره.. وهي مختبئة في أحضانه، لا يستطيع الحراك منها.. ملتصقة فيه وكأنها تطلب منه أن يحميها.. يخلصها من حالات الذعر التي تعيشها هي وأمها..شهيرة والتي تحولت إلى شيخة شاردة،.. ارتدت عباءة بيضاء وإسدالًا طويلاً والمصحف لا يغادر يدها، وهي لا تقوم من فوق المصلى وعبارة واحدة في فاهها تتكررفي كل وقت وأذان: اغفر لنا يا الله فأولادي جعلوا الحجر ينطق جعلوا الحجر ينطق.

لم يرتب عبد الحي من شيخ الحارة، أومن كلماته.. بل نظر له وقال: كنت لا تعلم أن لا ابن لي ها وقد علمت.

ثم دس يده في جيب معطفه الرمادي العتيق وأخرج مبلغًا لم يحلم به شيخ الحارة أو رؤساؤه جميعًا وهو ينظر له ويبتسم:

- متى آتي لك لاستخراج شهادة ميلاد ابني.
- غدًا.. غدًا.. يا حاج عبد الحي.. وما اسم ابنك.
- سعيد.. سعيد عبد الحي جار النبي رزق.

وبدأ يوم سعيد يتحول إلى روتين لا يتغير، يذهب للمدرسة، ثم يأتي يقف مع أبيه يبيع السمك، والذي يحرص عبد الحي على استمراره متخذه ستارًا له، ثم يتفرغ سعيد للشباك وزبائنه، الشيء الذي جعل عبد الحي يستطيع الخروج كثيرًا وانتقاء الأصناف الجيدة من الحشائش، والتعرف على آخرين من الموزعين، وبالفعل جلب عبد الحى أصنافًا جيدة وكميات أكبر، ولم تطل الفترة حتى عرف سعيد كيف تتم عملية الجلب بأمان، وكيف يفرق بين أنواع الحشيش بمجرد فركه أو دهسه بين أصابعه، أو بمجرد وضع قطعة صغيرة منه فوق لهب ولاعته، وقام عبد الحي بتعريفه على أهل الثقة ..حتى عرفوا سعيد جيدًا وأتمنوا ابن عبد الحي.

في كل هذا كان يراقب سعيد الحقيبة التي أتى بها من منزل شهيرة يجدها في مكانها لن يتغير وضعها.. أو تُفتح ولم ير في عين

عبد الحي رغبة في فتحها أو حتى لمسها بل لم يأت له بسيرتها مرة أخرى، كان يعجب من هذا لكنه تعلم من عبد الحي قلة الكلام أفضل شيء في هذا الوجود، وكثيرًا من الأسئلة لو تمهلت سوف تجد إجابتها بسهولة.

بخروج سعيد ومخالطة التجار اكتسب لغة الحوار عرف مبادئ كثيرة للرصيف المصري، تشبع بألوان البشر ليس التي في وجههم لكن حقيقة ما بداخلهم، وتعمقت صداقته برامي حتى أن رامي كان يذهب يبات معه ليالي كثيرة، فالسر الوحيد عند عبد الحي يعرفه رامي وسر رامي الوحيد يعرفه سعيد وعبد الحي، فلا أمان أكثر من هذا، وكذلك كان سعيد يذهب ويقضي أيامًا كثيرة مع رامي في فلته، خصوصًا بعد وفاة جدته التي كان يعيش معها بمفرده، بعدما رحلت أمه الفرنسية هاربة من مصر، تاركة رامي لأبيه وانقطعت الصلة بينهما، بعدها بعدة أعوام مات أبوه ولم يترك شيئًا سوى هذه الفلة الكبيرة، لأنها كانت باسم أمه جدة رامي، والتي أصرت أن لا تنقل ملكيتها لأبي رامي، كي لا يبيعها مثلما باع كل شيء، وأنفقه على انتخابات البرلمان.. والتي لم ينجح في أي دورة منها، كما كان ينفق ببذخ على مجموعة من المتشردين كما كانت تراهم جدة رامي لكن أباه كان يطلق عليهم أعضاء حزبه الجديد، وعندما مات أكثر من نصفهم لم يمش في جنازاته.

ومن بضعة أشهر ماتت جدة رامي، وهي تحذره من أصدقائه

وسيرة هذا ،ورامي منذ أعوام وهو في السنة الرابعة من كلية التجارة جامعة الإسكندرية، ولا يريد الانتهاء منها فهو معجب بجو الجامعة وزبائنه غير المنتهين من الطلبة والطالبات، ورامي إنسان مرح خليط في الطباع والشكل بين الفرنسيين والمصريين، وهو لم يعرف أشياء كثيرة في هذه الحياة مثل الدين، فالحلال والحرام عند رامي مقياسه هو النافع والضار، فإذا كان الشيء مفيدًا ونافعًا فهو حلال، وإذا كان الشيء ضارًا فهو حرام، وإذا كان الشيء الضار في قاموسه لكن القليل منه لا يضر فهو حلال حتى يصل إلى حد الضرر؛ ولذلك فإن رامي يرى أن أكبر شيء حرام يفعله هو الطعام..والإفراط في تناوله؛ لأنه سوف يضر صحته، أما تدخين الحشيش أو شرب الخمر فهذا ليس حرامًا من وجهة نظره لأن شربهما بحرص لن يضر الجسم، كذلك لم يعرف رامي معنى بعض المسميات، مثل الحزن أو التعب فهو لا يجهد نفسه أبدًا للحصول على أي شيء حتى لو كان هذا الشيء لذة وشهوة له، كما كان دائمًا يلقي خلف ظهره ..ويعيش.

ولم تقل محبة سعيد عند رامي عن محبته للطعام وساعد على ذلك فراغ ووحدة كل منهما حتى أصبحا صديقين لا يفترقان.

في اليوم الذي نجح فيه سعيد وحصل على شهادة دبلوم

الصنايع بمجموع كبير، نتيجة ما فعله عبد الحي مع المراقبين، فضلاً عن تفوق سعيد.

خرج سعيد من المدرسة سريعاً كي يزف لعبد الحي الخبر، فنظر له عبد الحي ولم يظهر على وجهه أي شيء من السعادة، بل كان الكرب يحيط به من كل الاتجاهات، ثم قال له:

- أن أولاد المازني أخذوا مني مبلغًا كبيرًا ليرسلوا لي بضاعة ؛ ولم يفعلوا.

- وما العمل؟

- تذهب وتقول لهم إن والدي يريد مبلغًا فورًا لأنه في ضائقة مالية، وسوف يرده لكم بعد عدة أسابيع، ولا تذكر لهم دين أو ثمن بضاعة.. ربما أخفى بعضهم على الآخر، بعدها نكون ضمنا حقنا، ويتحاسبون هم مع بعضهم..

- هذا شيء لا يقبل.. ثم إنهم لن يفعلوا.. أو يعطوا لي أي شيء.

- اذهب فقط ..وافعل ما أقوله لك.

خرج سعيد وعبدالحي ينظرعليه من الشباك ويبتسم، فالحقيقة لن يكون أي مال مقترض منه أو على سبيل إرسال بضاعة، لكن شيئًا كان في نفسه ويحاول أن يقضيه في صورته الكاملة. ولم تمر ساعة واحدة وجاءه سعيد وهو يحمل صفيحة جبن كبيرة محكمة الغلق، وعندما فتحها عبد الحي، كانت ممتلئة برزم أوراق مالية

ذات قيمة.

لم تمر سوى أشهر قليلة، وذهب أحد أولاد المازني لعبد الحي يطالبه بالمال، نظر له عبد الحي في اندهاش وغضب شديد وقال:

- أي مال.
- الذي أرسلت ولدك لتأخذه وقت ضائقتك المالية ورغبتك في شراء بعض البضاعة النادرة.
- من المؤكد أنك أثقلت في شراب أو تدخين شيء حتى تتفوه بما تقول فأنا لم أرسل لك أحدًا.. ولم آخذ أي مال ولن يكون عندي أولاد من الأساس سوى ابنتي التي ماتت.

لم تمر أشهر قليلة على استلام حاتم عمله في القليوبية حتى ذاع صيته وانتشر، ومجرد اسم حاتم الجبالي كان معناه الإحساس بالذعر،والتمتم بكلمات.. وكأنهم يستعيذون بالله من خطر كبير، خصوصًا بعدما علم الجميع ما حدث لسيد الضبع.. سائق ميكروباص، عندما كان يمر حاتم أثناء دورية له واستوقف سيد..

طالبًا منه رخصة وخط سيره، وبعد فحصهم ..لم يجد حاتم أي شيء مخالف، لكنه طلب من الأمين أن يقوم بتفتيش الركاب والسيارة، استاء سيد عندما وجد الأمين يصرف الركاب بعدما أمره حاتم أن يعيدوا لهم أجرتهم، مما جعله يتحدث مع الأمين بحدة لم تطل.. فقد توجه حاتم وصفعه على وجهه، مما زاد من حدة سيد فأمر حاتم باصطحابه إلى القسم، حيث شاهد سيد حقائق كثيرة لم يكن يعرفها، وأكل الوجبة كاملة، وهو خارج نظر لحاتم وقال: لن أسكت أبدًا عما حدث لي..

كان حاتم يأكل.. فوقع بعض الأكل من فمه من كثرة الضحك ونظر لسيد وقال: هناك إذن أشياء أخرى أود أن تحكيها..

وأدخله حجرة الحجز وانهال عليه ضربًا، ثم أمر العساكر أن يمروا عصا عبر شرجه، وسيد لا يقول إلا عبارة واحدة: ارحمني يا باشا.. لم أفتح فمي بكلمة..

بعدها كلما ذهب أمين إلى الموقف واصطحب سيارة بسائقها، حكى له الأمين ما حدث لسيد.. وكيف كان يستجير والعصا تنزلق في شرجه، وتناقل السائقون الحكاية بينهم وبين الآخرين، ثم بدأوا يعيرون سيد بما حدث، وبدلاً ما كان ينادونه بالسيد الضبع أصبحوا يطلقون عليه سيد(....)

كانوا يفعلون هذا وبداخلهم خوف رهيب من يوم آت.. يكون لهم نفس المصير، فكانوا يعطون للأمناء ما يطلبونه من مال حتى

يعرفوا منهم معاد نوبتجية حاتم.. وقتها لا تجد سائقًا أو سيارة داخل الموقف أو خارجه، وبعد بضعة أشهر لم يسمع أحد شيئًا عن سيد أو يعلم أين ذهب.

كرر عبد الحي كلامه لابن المازني:

- اذهب وابحث عمن أخذ منكم مالاً فأنا ليس عندي مال أو ولد..

- تتبرأ من ابنك أم تتبرأ من دينك يا عبد الحي..

- اسمي عمك عبد الحي يا كلب واذهب الآن قبل ما أقتلك.

- لو خرجت من هنا دون رد واضح سوف نقتل لك سعيد وسنعرف وقتها هو ابنك أم لا!

- اقتله إن استطعت، أو إن عرفت تخوض معركة مع سعيد وأنت معتقد أنك سوف تخرج حي من بين يده.. اقدم على ما تقول، واجعلني أشاهدك أرجوك وسعيد يبصق في دبرك.. فأنا مشتاق أن أرى رجلاً يأتي رجلاً آخر قهرًا..

وأخذ يضحك ضحكات عالية ساخرة، حتى اختفى ابن المازني من أمامه. في المساء كان أولاد المازني جميعهم متربصين لسعيد أثناء عودته للمنزل، وما إن وجدوه حتى باغتوه.. منهالين عليه

ضربًا وتمزيقًا في جسده، ثم حملوه.. وذهبوا به إلى بيت عبد الحي.. وألقوا به أسفل الشباك، وهم ينادون على عبد الحي بصوت مرتفع بينما سعيد يصدر صوت حشرجة مثل عجل البقر عندما يذبح، ولم يفتح عبد الحي أو ينظر من الشباك رغم ندائهم بصوت مرتفع.

وبعد ساعة على رحيلهم فتح عبد الحي الشباك، ولم يجد أحدًا في الشارع غير سعيد ملقى على الأرض.. وقد بدت بركة من الدم تحيط به، أغلق الشباك وذهب لغرفته ونام، في السادسة صباحًا استيقظ عبد الحي على أصوات كثيرة في الشارع وخبط متتال على باب بيته، خرج ليجد الناس ملتفين حول جسمان سعيد وهو فاقد الوعي: لا حول ولا قوة إلا بالله اصتبر يا حاج عبد الحي، ومن هم أولاد الحرام الذين فعلوا هذا بابنك..

جاء عبد الحي بدلو ممتلئ بالماء وسكبه فوق وجه سعيد فانتفض وهو يفتح عينيه في فزع، نظر له عبد الحي وقال: من فعل هذا بك يا سعيد..

لم يجب وهو ينظر لكل من حوله يتفحص وجوههم.

صرخ مرة أخرى عبد الحي في وجهه:

- من فعل هذا بك يا سعيد؟
- أولاد المازني..
- إذن لا تجعلني أرى وجهك مرة ثانية، إلا إذا فعلت بهم

ما فعلوه بك، وإذا لم تستطع فلا تدخل هذه الحارة مرة أخرى..

نظر له سعيد في صمت ثم نظر لدمائه وجروحه يحاول أن يستوعب ما قاله عبد الحي وكأنه في حلم وأن ما حدث له مؤكد ليس حقيقيًا.

اقترب منه عبد الحي أكثر وهو يتفحصه مليًا، وسعيد ملقى على الأرض كجثة هامدة، ثم بصق على وجهه وهو يقول له: يبدو أنك تعودت أن تتقطع ويتمزق جسدك وتضرب بالنعال وفعلك ورد فعلك يكون الاستسلام، الحياة لن تحتضن يومًا أبدًا الجبان، أنت ملعون اذهب من هنا سريعًا.. قبل ما تجلب لي العار ثم دخل بيته وأغلق الباب، انفضت الناس من حوله وهم يمتعضون ويمصمصون شفاهم، ورجال تحدقهم بطرف أعينهم وهم يضربون كفًا على كف، بعد قليل خرج عبد الحي بعدما ذهب كل لحال سبيله، إلا امرأة كانت بيدها زجاجة ماء تغسل لسعيد وجهه، وبجوارها ابنتها تضع بعض القطن بمطهر فوق جروحه، نهرهما عبد الحي وداعهما للانصراف، وهو يقترب من سعيد مخرجًا له سيفًا قصيرًا عريض السن مستلاً أخرجه من قطعة قماش صوفية كبيرة، ثم أخرج له فردًا وهو سلاح ناري من طراز قديم، ثم قال: أمامك خياران إما أن تفعل ما أمرتك به، أو تخسرني للأبد واذهب إذن لأحضان الشرطة لطارق وحاتم، يبدو أنك اشتقت لهما ولصرختك أسفل قضيبهما يا.. ..

واختفى داخل داره، لن يوصف تأثير هذه الكلمات على سعيد، بعدها جسده أصبح كقناة كبيرة يمر من خلالها شريان من نيران كالسعير، فقام من مكانه وهو يمسك بالسيف والفرد، ودخل البيت، ثم خلع ملابسه كلها وأخذ يسكب الماء مرات عدة، وأحضر علبة البن الكبيرة وأخذ يضع على جروحه، وترك جسده عاريًا تمامًا هكذا بلا أي ملابس، وعبد الحي يراقبه وهم يبدو وكأنه قد غاب عن الوعي، أو يتحرك في عالم آخر، دخل المطبخ أخرج صينية السمك الذي أكل منها عبد الحي بالأمس وظل يأكل، ثم دخل غرفة عبد الحي شرب قليلاً من ماء الشعير.. ثم رفع وسادة عبد الحى والذي يدس أسفل منها سنة الأفيون، والتي يأخذها يومًا واحدًا في الأسبوع ووضعها سعيد أسفل لسانه، ثم أخذ يلف سيجارة حشيش بنفس طريقة حاتم حتى أنه كان يتوقع لو نظر للمرآة سوف يجد نن عينه مفتح على العين كله منخرطًا، وأشعل السيجارة ونزل.. فربط السيف حول قدمه والفرد في ساقه الأخرى وارتدى ملابسه وخرج.

كان أحمد على موعد هذه الإجازة بأن يلتقي بطارق في القاهرة. ولم تكن عادة أحمد أن يذهب إلى مقر الأتوبيس فيأخذه، بل

كان ينتظر الأتوبيس، بعد خروجه من موقفه ببعض الكيلومترات، ومعه مجموعة من العساكر والأمناء، والذين يقومون بإيقاف الأتوبيس بصورة أمنية واضحة، ثم يصعدون الأتوبيس.. يفسحون الطريق لأحمد وهم يحدثون السائق والكمسري: الباشا معاكم يا بني.

ثم يتبع عسكري أو أمين خلف أحمد بالحقيبة حتى يجلس ويلقي عليه التحية وينصرف.

وهذه المرة عندما جلس أحمد كانت تجلس بجواره فتاة.. تنظر من النافذة شاردة، ولم يعرها ما حدث أي اهتمام، بل وكأن أحدًا لم يجلس بجوارها، ظلت شاردة بعينها لخارج النافذة فترة طويلة. متأملة.. حتى ألقت برأسها على مسند المقعد وراحت في نوم عميق. طلب أحمد فنجان قهوة ظل يتفحصها بدءًا من قدمها شاهفة البياض، وصندلها العاري.. طلاء أظافرها الأحمرالقاني ونقاطه البيضاء، بنطلونها المشدود على فخذها الملفوف، خصرها البض المسحوب..رغم جسدها الممتلئ العامر، صدرها الكبير النافر حلامته تظهر بارزة من التي شرت والذي يظهر جزء أعلى صدرها، وجهها الأبيض المستدير.. رسم حواجبها،.. ومكياجها الذي يشبه مكياج الفنانين، شعرها البني الناعم، نظارتها الشمسية التي تبدو غالية الثمن. ظل يتفحصها وهو يتساءل.. كيف أجلس بجانب كل هذا الجمال دون العبث في سراديبه، وراح يتخيل نفسه وهو يمسك صدرها الطري ويبعجه بين يديه.. يقبلها.. واضعًا يده

داخل سروالها.. وهي تنتفض وتتأوه في لذة، وقد حل الظلام وبعض الركاب لا يرون شيئًا، والبعض الآخر يرى لكنه خائف لايستطيع التفوه بكلمة لأنه ضابط. وعندما استيقظت.. أخذت تتعامل دون أن تنظر إليه، وكأن أحدًا لايجلس بجوارها، ثم طلبت فنجانًا من القهوة، نظر إليها أحمد وهو يقول: كنت سآمر لكي بفنجان قهوة معي.. لكني وجدتك نائمة..

دون أن تنظر له قالت: مرسي..

وهي تعبث في حقيبتها، لم يتركها أحمد وأخذ محاولاً تجاذب أطراف الحديث معها:

- لكن يبدو عليك الإرهاق..
- نعم فنحن نعمل عددًا كبيرًا من الساعات.
- وماعملك؟
- أنا مرشدة سياحية.
- وأنا ملازم أحمد العسقلاني.. ضابط شرطة.
- ممكن أعرف اسمك..
- دعاء..
- ومنذ متى وأنت تعملين في الغردقة؟

قالت وهي تسترخي للخلف دون أن تنظر له: اعذرني لا أستطيع التحدث الآن لأني متعبة، وأريد أن أنام قبل وصولي القاهرة..

هو معتاد على قبول الفتيات له، ومعتاد أيضًا على رفضهن له.. وإحراجه، ولذلك ابتلع الموقف.. وهو ينظر حوله.. أسمع أحد هذا أم لا؟

في القاهرة.. عندما نزلا من الأتوبيس، وقفت دعاء تشير إلى تاكسي، تابعها أحمد وهو يحاول ألا تضيع منه الفرصة:

- في سيارة بعسكري سوف تأتي لتأخذني .. ممكن أوصلك.

- لا.. مرسي أنا مستعجلة..

ثم أشارت إلى تاكسي.. وقبل أن تذهب نحوه.. تابعها أيضًا:

- يبدو أنك مستعجلة.. ممكن آخذ رقم تليفونك أحدثك فيما بعد.. هذه أمنية.

- لا أمنية ولا حاجة الحياة أبسط من ذلك.

فتحت حقيبتها.. وأخرجت كارتًا وأعطته له، ثم ركبت التاكسي.. نظر في الكارت ليقرأ دعاء محمد رمضان، رئيس مجلس إدارة شركة المجد للسياحة الداخلية والخارجية، عضو جمعية تنشيط السياحة في مصر، عضو الحزب الوطني، مدرس مساعد في كلية سياحة وفنادق، المدير الفني لمجموعة فنادق.. .. بمصر وخارجها ،ثم قرأ مجموعة هواتف عدة.

ظل أحمد عدة أيام ولياليها لا يفكر إلا في دعاء، بجمالها

الطاغي، اهتمامها الرقيق بنفسها.. يتذكر صدرها البالغ من العمر نضوجه، أردافها الملتهبة.. جسدها كنغم كلي متفجر بالأنوثة، وكلما اتصل بأحد الأرقام المتواجدة في الكارت.. لا يجيب أحد.. أو يجيب الأنسر، فيترك رسالة وفي كل مرة لن يتلقى ردًا.

أخيرًا أجابت دعاء على تليفون المنزل:

- ألو.. من معي..
- أحمد بيه العسقلاني..
- من يكون أحمد.. اعذرني أنا لا أعرف أحدًا بهذا الاسم..
- أنا الذي قابلتك في أتوبيس الغردقة..
- معذرة حاول أن تذكرني فرأسي مزدحمة بالكثير من الأشياء..
- أنا ....
- آه تذكرتك.. آه أنت تركت لي رسائل عدة، واندهشت لإلحاحك هذا..
- أنا أريدك في أمر مهم..
- وماذا يكون؟
- في الحقيقة منذ رأيتك وأنا أفكر فيكِ.. وأنا لا أريد منكِ غير شيء واحد.. لا تضيعي مني فرصة عمري.
- وما فرصة عمرك؟
- أراكِ.. أراكِ مرة واحدة كي أشرح لكِ كل شيء بوضوح..

- الحياة بسيطة يا أستاذ أحمد ممكن نتقابل.. عادي هذا أمر يسرني.

- اليوم؟

ضحكت:

- بكل تأكيد لا.. فأنا أحدثك وأنا أرتب حقيبتي، فسوف أستقل طائرة بعد ساعة.. إلى الغردقة.

- إذن سوف أراكِ في الغردقة..

- لا.. لا أريد أن أتعبك فسوف تذهب خصيصًا للغردقة كي تراني!

- أنا أعمل في الغردقة..

- Ok.. هذا رقم تليفون شقتي في الغردقة.

بعد عدة مرات يطلبها أحمد على تليفون شقتها بالغردقة أجابت دعاء، ومنحته موعدًا للمقابلة، اقترض سيارة أحد أصدقائه ممن تعرف عليهم في الغردقة من غير العاملين في الداخلية.

وعندما ركبت دعاء بجانبه نظر إليها وهو يبتسم وقال:

- مؤكد أنك مندهشة أنني ضابط.. وفي مثل هذا المنصب، وبالطبع ستقولين إنني فتى أحلام أية فتاة في مصر، رغم ذلك ألح عليك أنت تحديدًا.

ضحكت من أعماقها:

- لا لن أقول هذا..

- ضحكتك جميلة.. أنا لا أعلم ماذا فعلت بي لدرجة أنني أفكر جديًا أن أرتبط بك..

- أنا مرتبطة.

- مرتبطة؟!

- مرتبطة وغير مرتبطة..

- كيف؟

- سأحكي لك لأني أشعر الصدق في كلامك.. كذلك أشعر أنك شخص محترم، لكن عدني ألا تسألني عما لا أريد الحديث عنه..

- لا تنسي أنني ضابط شرطة..

- وما علاقة هذا بحديثنا.. ليكن عندما كنت طالبة في كلية سياحة وفنادق، قررت أنا ومجموعة من أصدقائي أن نقيم شركة سياحية، ساعدنا في هذا أننا جميعًا من عائلات ثرية..

- تقصدين شركة المجد.

- نعم.. وبعد بضعة أشهر تعامل معنا رجل في الثانية والأربعين من عمره، كان يريد منا منحه مزايا في السعر ليخدم بها أهل بلده لأنه عضو في مجلس الشعب وأثر فينا جميعًا حتى منحناه أسعارًا ومزايا يستحيل أن تقدمها له شركة أخرى، بعدها قال لي إنه أحبني.. ولايستطيع الاستغناء عني، وظل يهرول خلفي بهذه النغمة عامًا كاملاً، وأخيرًا أجبرني والدي الله يسامحه على الزواج منه

لتلاقي مصالحهما المالية معًا، انتقلت للعيش معه في طنطا.. وأغلقت الشركة، حاولت أن أحبه كي يعوضني حرماني.. وقسوة أبي لكن بعد الزواج بشهر واحد اكتشفت أني تزوجت من أفاق يعيش على أموال النساء، وبعدها جعلني أبيع شركتي وأخذ ثمنها.. كان قد سقط في دورته البرلمانية الجديدة وسافر للسعودية يعمل هناك..

ثم أخذت تتدلى دمعات كاللآلئ من عينيها وهي ترتجف، فراح أحمد يخفف دمعاتها.. ثم نظر لها وهو يقول:

- ومازلت زوجته؟

- نعم كل محاولاتي بالطلاق تبوء بالفشل.. وأخيرًا قال لي منذ بضعة أشهر.. تعالي السعودية وسوف نتفق ويتم الطلاق، وعندما ذهبت اكتشفت أنه كان يريد مني ما فشل أن يأخذه غير مرة واحدة وجبرًا، لكنه لم يستطع أن يصل لي مرة أخرى وعندما تأكد أن لا جدوى مني.. تركني وقد وعد أمي أنه سوف يطلقني في إجازته القادمة.

كانا قد وصلا للفندق الذي تعمل فيه دعاء، نظرت له وهي تقول لا أعلم لماذا قلت لك كل هذا.. اعذرني لابد أن أرحل الآن.

- سأتصل بك في المساء.

- Ok.

وعندما فتحت باب السيارة لتنزل كان التي شيرت رفع من

الخلف ليظهر جزء من ظهرها، كذلك بنطلونها كان قد نزل قليلاً فأظهر جزء لا بأس منه من مفترق أردافها ،وأندرها الذي هوعبارة عن فتلة صغيرة.. لاحظ بياضها الشاهق والوشم والتاتو المرسوم مباشرة فوق أردافها، لاحظ عقله وهو يتخبط في رأسه منحدرًا نحو الجنون مما رأى.

رحل أحمد وهو يفكر.. يقلب كلمات دعاء ويحللها، يشعر بالصدق بعض الأحيان في كلامها، وبالكذب أحيانًا أخرى، وأخذ يتساءل بينه وبين نفسه: أطبيعي تحررها هذا في الملابس وما ترسمه فوق أردافها.. ولهجتها التي تبدو غير مصرية في بعض الأوقات.

وفي اليوم التالي كانت كل المعلومات عن دعاء أمامه على مكتبه بواسطة أحد الأمناء الذي قال لأحمد: دعاء محمد رمضان ٢٤ عامًا تعمل في رسيبشن فندق.. ..منذ عام، ولا أحد يعرف عنها أكثر من هذا، غير أن الجميع يشهد لها بأخلاقها وذوقها الرفيع في التعامل مع كل من حولها، ويبدو سيادتك أنها في حالة مادية جيدة.

بعدما انتهيا من العشاء أخرج عبد الحي قطعة حشيش صغيرة ووضعها فوق الجوزة المشتعلة وبدأ يسحب الأنفاس وهو هائم، وكأنه ذهب لعالم آخر يراه حقيقة الآن ويحسه، وعندما أتى له سعيد بالشاي طلب منه عبد الحي أن يجلس أمامه، ثم نظر له وهويقول:

- اسمعني جيدًا يا بني.. إني لمسافر.
- أين؟
- لا تسألني عن أي شيء إلى أن أنهي كلامي كله فسوف تجد إجابة على كل ما تود أن تقوله دون أن تسأل.. أنا مسافر ياولدي ولم أخبر بموعد عودتي، ولذلك احفظ جيدًا ما أقوله لك أنا لم أمنح وأحب ابنتي رحمها الله، أكثر مما أعطيتك وأحببتك، ولذلك كن واثقًا أن ما أقوله لك الآن هي كلمات خارجة من قلب أب، كذلك هي خارجة من قلب رجل لاك أرصفة الطرقات حتى فهم جيدًا ما هي الحياة، وأول شيء لابد لك أن تحفظه هو أن ما خبرتني به بما وقع بينك وبين طارق وحاتم، لن يعرفه أحد مرة ثانية، مهما كانت الأسباب، وثق تمامًا، أن يوم البوح بهذا الأمر لآخر، هو يوم موتك وفنائك. أما الأمر الثاني.. إذا لم تعرف تحمي شيئًا معك، تخلص منه.. حتى لو كان هذا الشيء ثروة أو أكثر، فالتخلص منه أفضل من أن تؤذى بسببه، فامتلاكك لامرأة عادية غير جميلة، خير لك من امرأة جميلة وتؤخذ منك وهي بين يديك، واستغل يابني هيئتك

هذه وشكلك الوسيم، فالجمال مثل المال تفتح له الأبواب، والمرأة تعشق الرجل إذا كان رجلًا وسيمًا، والمرأة إذا ما أحبتك كانت كجواد جامح، يمكن أن يقفز بك آلاف الخطوات في خطوة واحدة، لكن كن حذرًا أن تحب امرأة بل اجعلها تحبك.. تعشقك دون أن يتسلل لقلبك مثقال ذرة من حب، فالحب يجعلك ضعيفًا عبدًا، بعض الأوقات ممكن أن تكون ذليلاً له، فهو ليس إلهًا بل هو شيطان متنكر، وإذا أردت أن تتزوج واحدة.. وأنا لا أفضل هذا، لا تفعل مع زوجتك شيئين أن تحبها أو أن تنجب منها؛ فأولادك في كل الأحوال سوف يقيدوك. الأمر الرابع منذ هذا اليوم لا تنظر لحاتم على أنه فقط عدوك، لكن لابد لك أن تدرك أنه مدرستك، سر دائمًا على دربه.. وافعل كما كان يفعل، واضحك فهو علمك أن تكون ثعبانًا مثله، علمك كيف تعيش بين الثعابين، ولذلك عندما تتأكد يومًا أنك تعلمت وأدركت، وأصبحت ثعبانًا بحجمه عد إليهما وتعامل معهما بقوة وثقة.. وأنت متأكد أن الثعابين لا تأكل بعضها، وعندما تعود لهما لا تحاربهما على أنهما قوة واحدة، فهذان الأخان سوف يفترقان يومًا.. لأن مختلفان المرض لا يضعان في عنبر واحد طويلاً..

وهذان ليس أعداءك الذي أخشى عليك منهما، بل هناك أعداء أشد قوة وبطشًا.. أولهم نظرتك لنفسك على أنك ضعيف.. هي أول عدو لك والذي يمكن أن يقضي عليك، فدائمًا انظر لنفسك أنك قوي،

أقوى من أي شيء أو أي فعل وتذكر أن الطفل الذي استغل فرصة وجود الأخوين في كليتهما، واعتدى على أختهما.. وسرق الأشياء هكذا.. وانتقم، فهو شخص يعرف كيف يثأر.. فمن المؤكد أنه قوي، عدوك الثاني والذي يمكن أن يقضي عليك، أن تفكر دومًا أنك تحيا في ستائر الحرام، فإياك أن تفكر كم مرة قتلت أو سرقت أو نهبت، لا تعذب ضميرك أبدًا بمثل هذه الخرافات والأسئلة مطلقًا، ولا تنظر لما تفعله من شر، فأنت أصبحت إنسانًا في حد ذاته شرًا كبيرًا، كتلة هائلة من النيران تسير على الأرض بقدمين تفعل كل شيء من دافع الانتقام.. يومًا مما حدث في دبرك وأحلامك، فلا تنظر يابني لما تفعل، فقد انتهى الأمر لن يدخل الشيطان الجنة أو يلد ملاكًا، وإذا ما أردت تحويل نفسك لكتلة من الخير، ستموت تحت أقدام من حولوك إلى كتلة من الشر ستموت بنعالهم. عدوك الثالث والذي سوف يقابلك هو حزنك، وفي كل الأحوال سوف تحزن، وسيقف أمامك عدو بالمرصاد، وإما أن تقهره أو يقهرك.. وهو حزنك، واعلم أنك مهما وصلت وربحت.. أو سحقت طارق وحاتم، لن تستطيع أن تهرب من العذاب ومدن الدمار التي فعلوها بداخلك، لكن كلما شعرت بالعذاب والحزن، وقسوة سياط ما بداخلك مما فُعل فيك ومما تفعل، قل لنفسك هذا مؤكد خير من قسوة حاتم وطارق علي، هذا خير من أن يقتلوني أو يقتلني ويعذبني أمثالهم، شيء واحد فقط من الممكن أن ينسيك آلمك وعذابك لبضع ساعات؛ ولذلك خذه

صديقك وحبيبك، لكن أيضًا كن حذرًا منه أشد الحذر في التعامل معه حتى يظل معك الصديق والرفيق، يظل معك القوة يظل هو دومًا لك منبع المال ومنبع النسيان، فقط هوالحشيش.. المهنة التي تعلمتها وعلمتها لك، ولن أقول لك عنه غير شيء واحد هو ثعبان أيضًا، وثعبان قوي.. ناعم أملس لكنه سام ومميت.. في شربه.. وتجارته؛ وهذه هى ظروفك وحياتك.. حاكم كل شيء وكل عدو حاربه بضراوة، إلا القدر لا تحاكمه أو حتى تلعنه.. لاتسيرخلف حكمة الضعفاء الجبناء والمجانين الذين يكرهون حياتهم وحياة كل من حولهم، وهم يقولون دومًا إننا كنا مقبلين وقت الاختيار لن نختار موعد ولادتنا أو يوم موتنا.. أو حتى فرج امرأة نأتي منه يمكن أن تكون صادقة أو عاهرة ،لاتقل هذا ولاتفعله.. فبدل من أن تلعن كل هذا السواد حاربه بشمعة تشق لك عتمته بشيء من النور، فنحن في زمن ليس مع الإنسان أحد يشعل له شموعه أو يساعده لإنارة طريقه.

ما إن رأى طارق هدى مع اللواء نبيل حتى انتشلته تلك البروز الساحرة لنهديها وردافيها، وراح يتأمل بشدة كل هذه التضاريس، وهو يؤكد لنفسه أن هذا الجسد والوجه لن يتكرارا، وأن هذه هي الإنسانة الوحيدة التي ستجعله يكتفي بامرأة واحدة، وعرف أنها ابنة اللواء نبيل مساعد وزير الداخلية مدير مباحث الأموال العامة والمعروف بثرائه وعقله العبقري في تكوين الثروات له

ولمن يرضى عنه. في خلال عام أنجب طارق من هدى أو ديدي مرمر واسمها الحقيقي رباب، ولا أعلم ما علاقة الدلع بأصل الاسم لكن هذا ما أطلقته عليها ديدي أمها، ورغم أن المسافة لم تكن قريبة بين شقة طارق وشهيرة أمه لكن دينا كانت تحرص كل الحرص، على أن تجلس أكبر وقت مع مرمر، وقد أحبتها دينا وتعلقت بها لدرجة أن ما بينها وبين مرمر اقترب أن يصبح مثل ما كان بين شهيرة وبينها، وما ساعد أيضًا على توطيد هذه العلاقة فترة ما بين عمرة رمضان والحج، والذي مكثت فيها شهيرة في السعودية لتؤدي العمرة ثم الحج، كانت دينا وقتها في عامها الأول من كلية طب أسنان، وكانت لا تفعل شيئًا إلا الذهاب للكلية ثم تقضي باقي اليوم مع مرمرتراعي شئونها وتدلعها.

أما حاتم فقد تم ترقيته.. وانتقل إلى جهاز أمن الدولة وكان يتحاشى دائمًا الجلوس مع أمه، التي كلما رأته أمامها لا تقول له إلا عبارة واحدة متكررة حتى عندما قام بتوصيلها إلى الطائرة لتأدية مناسك العمرة ثم الحج، آخر عبارة قالتها له؛ خذ حذرك على نفسك يا حاتم.. فأنت شخص تجعل الحجر ينطق.

فسأم أمه.. وكلامها، وكان يرى أنها وإن مر عليها بضعة سنين أخرى ولم تمت، فسوف يخرف عقلها.

عندما مات عبد الحي جار النبي، كان قد بلغ سعيد أشده وأتم عامه الثاني والعشرين، تهاوت قدماه وهو عائد بعدما دفنه، كان يسير نحو البيت يتساءل كيف للحياة أن تستمر، فهو يعلم تمامًا أن الإنسان الوحيد الذي وقف بجانبه قد مات، الإنسان الذي علمه ولقنه.. ومنحه كل شيء قد رحل، كل خطوة كان يخطوها نحو بيت عبد الحي كان يحاول تثبيت نفسه.. عازمًا أن يكون كما علمه، يحاول أن يتماسك.. إلا أن خطًا أحمر هناك قد ظهر في عينه، ودمعات محبوسة كثيرة كان يحتجزها، وألم واهات رهيبة يود أن يصرخ بها.. خوف كعدو مميت كان يلتف حوله.. ناشرًا الذعر في أرجائه.

حاول أن يتمسك بحصنه الوحيد كلمات عبد الحي الأخيرة له، فكانت تأتيه بوميض من القوة يظهرعبر عقله وسريعًا ما يختفي.

في المساء مارس سعيد حياته وكأن عبد الحي تمامًا معه لكنه في الخارج.. ويتوقع دخوله الآن.. في أية لحظة لم تقف عجلة التجارة والمثابرة فوق نزق المدمنين، بل كان كأي ابن فالح يريد النجاح بأكمله ففكر في توسيع تجارة أبيه بعد رحيله، هذا ما يفكر

فيه سعيد الآن، أن يأخذ مكان الجياش المورد الرئيسي للصعيد بعد ما قبض عليه، نظر لرامي والذي أصبح كظله لا يفارقه:

- لابد أن نذهب للصعيد، ويستمر التوريد كما هو، قبل ما يحل أحد مكان الجياش.

- وما المانع يا سعيد ستجدني معك، منفذ لأوامرك.

- ليست هذه المشكلة..

- وما المشكلة؟

- من أين سنأتي بالمال، فهذا يحتاج كميات كبيرة من البضاعة، ولو ذهبنا لهم بحالنا هذا سوف يكتشفوا ضعفنا.. ونصبح لقمة طرية بين ضروسهم.

- إذن اجعلنا نستمر هنا كما نحن مثل سابق عهدنا..

- أتود أن تظل في تجارة القطاعي والحتة طول العمر.

- هذا ما علمه لك أبوك يا سعيد..

- لا.. أبي علمني كل شيء.. كل شيء يا رامي ولا ينقصنا سوى المال للتنفيذ.

- ومن أين ستأتي بالمال..؟

- اسمع..

ثم قام سعيد وأتى بالحقيبة.. أخرج ما بها، ورامي ينظر.. ينتظر تفسيرًا لما يرى ولم يمهله سعيد وأجابه:

- هذه مصوغات أمي رحمة الله عليها، والتي دخلت السجن

بسببها، وأبي لم يستطع تصريفها لأن مواصفاتها مُبلغ بها، فإذا كان لك طريقة تُصرف لنا بها هذه المصوغات، سيكون حلاً لكل شيء..

- وما هذه الصور والكرنيهات.. ياسعيد..

- تعود دائمًا يا رامي في مهنتنا هذه، أن يكون لك رئيس واليوم الذي تعصي فيه كلام رئيسك هو يوم ضياعك..

- وأنا لم أعص لك أمرًا.

- إذن لا تسألني عن شيء لم أخبرك أنا به..

- لا تغضب يا سعيد، كما أن تصريف هذه المصوغات أمر بسيط.. أمازلت عند وعدك لي أني سوف أشاركك تجارتك، وأنت سوف تشاركني تجارتي.

- نعم.

- إذن فنحن سوف نأخذ فلتي ونحولها لشركة.

- اعلم هذا يا رامي..

- لا تثور تمهل.. ألم تسمع عندما ذهبنا للبنك وطلبنا قرضًا لإقامة الشركة، قالوا الضمانات لا تكفي.. وقتها قال لنا الموظف من بين الضمانات الوديعة أوالخازنة أوالمشغولات الذهبية، إذن سوف نقدم هذه المصوغات بجانب أوراق الفلة ونأخذ القرض نضعه في صفقتك.. ومن العائد نقيم الشركة، وهذه المشغولات الذهبية لن يراها أحد في هذه الحالة.

لم يعلم سعيد أنه وبحلول مكان الجياش، ستكون المكاسب متزايدة وسريعة هكذا، كان يتحرك مخططًا ومنفذًا وهو لا يأبى أي مخاطر، فقد تدرب عليها تمامًا طيلة عشرة أعوام، وعرف مخرجًا لكل ورطة.. لدرجة أنه يتعامل مع أشياء يشيب لها الوليد بتلقائية تامة، وكأنه يملك كل الرموز لحل أصعب الشفرات المميتة، أو كالمدرب الذي يضع رأسه داخل فم الأسد وهو يعرف كيف يخرجها وهو حي.

حتى جاء الموقف والذي جعل سعيد في مأزق لا يدري كيف يخرج منه ،وقد رأى نهايته وهي تقترب.. هذا عندما كان يعبر من كمين الرحمانية أشد وأصعب الكمائن وقتها وهو النقطة الفاصلة بين أسيوط والمنيا، وعندما أوقفهما أمين الشرطة وسعيد يقود سيارة أحد الأشخاص الذين يوزع لهم، طلب منه الأمين أوراقه وأوراق السيارة، ارتجف سعيد ورامي خصوصًا عندما طلب الأمين من العساكر تفتيش السيارة، وبينما يحدث هذا اقترب سعيد من الضابط الجالس والمسئول عن قيادة الكمين ولمح الثلاث نجوم على كتفه، فاتجه نحوه وهو يبتسم ابتسامة مليئة بالسماحة والمحبة: أعتقد أني رأيت سيادتك قبل هذا أين ..أين ..نعم أعتقد مع أولاد خالتي أحمد بيه العسقلاني وأولاد خالتي الأخرى حاتم وطارق بيه الجبالي.

وقف الضابط وهو يصافحه: أنت ابن خالت أحمد بيه وطارق

وحاتم بيه الجبالي نحن في أشد الأسف أولاد خالتك أعز أصدقائي..

ثم أمر الأمين بإعطائه أوراقه، وصافحه مرة ثانية قبل أن يمشي، ركب سعيد السيارة والضباط خلفه وما إن غادر سعيد المكان اقترب الأمين من الضابط وهو يقول له:

- لماذا تركتهم يمشون؟

- إنه ابن خالة حاتم بيه الجبالي ضابط أمن الدولة.. وطارق بيه وأحمد بيه العسقلاني.. وكلهم أصدقائي..

- لكن هذا الشاب يقود سيارة أحد المشتبهين فيهم بتجارة المخدرات..

نظر الضابط للأمين بعين مليئة بالدهاء.. ثم قال له: أتعتقد أنه مدمن!

ثم قام بالاتصال بطارق كي يخبره أن ابن خالته على صلة بأحد المشتبهين فيهم بالاتجار في المخدرات، وفي سرعة غير متوقعة شم طارق من كلمات الضابط رائحة سعيد، شعور كان يتملكه أنه هو، أكده له الضابط في كل كلمة قالها ووصفه به، ولم يجب طارق بغير هذه الكلمات: يؤسفني أني سوف أبلغ عنك مكتب الوزير يا حضرة الضابط لأني ليس لي أولاد خالة غير أحمد بيه العسقلاني، وأنت أضعت من يدك القبض على مجرم أو مهرب خطير، وإن لم تتبعه وتقبض عليه سوف أبلغ عن واقعتك هذه.

بعدما رحل سعيد كان رامي يتحدث معه وهو يقود.. ناظرًا أمامه واجمًا، وكأن السماء سقطت فوق أرضه، كما لو كان يرى ويسمع ما حدث بين الضابط وطارق، وطارق وحاتم فيما بعد، كان على يقين خلال ساعات جهات عدة في الداخلية سوف تضيق عليه الخناق وهي تبحث عنه، ولذلك ترك السيارة عند صاحبها بعد ما أخبره بما يقول لو تعرض للسؤال، وذهب لعم جابر الرجل الثاني في حياته بعد عبد الحي جار النبي، وهو الذي أفسح له الطريق ليحل مكان الجياش؛ ذهب سعيد ورامي لجابر في قرية بني حسن الواقعة في جبال مركز(أبو قرقاص)بمحافظة المنيا حيث مقابر المصريين القدماء والمصريين الجدد.

أكد الضابط الذي شاهد سعيد، أن هذه السيارة مرت من هذا الكمين كثيرًا خلال هذا الشهر، وهي ملك لأحد الأشخاص المشتبه فيهم بالاتجار في المخدرات، وهذا ما جعل الأمين يستوقفها طالبًا تفتيشها، وبسؤال صاحب السيارة تبين أنه قدم بلاغًا منذ أسبوع بسرقة السيارة ولا يعلم من كان فيها.

تأكد حاتم وطارق أن سعيد لجأ ولاذ محتميًا في الصعيد، ورأوا أن أول الخيط أصبح بين أيديهم لذلك في الصباح الباكر كان الاثنان في مكتب مساعد وزير الداخلية لشئون الضباط طالبين نقلهما إلى المنيا. في الوقت الذي كان كل الضباط العاملين في المنيا

يستجيرون لينقلوا منها لما يقع فيها من أحداث إرهابية خطيرة كما كانوا يطلقون عليها،ولذلك رفع اللواء مساعد وزير الداخلية سماعة الهاتف وحدث اللواء نبيل حمى طارق ليخبره على ما سوف يقدم عليه، وفشلت كل المحاولات. وتم نقل حاتم إلى وحدة أمن الدولة في ديرمواس، كما تم نقل طارق لمباحث مركز أبي قرقاص.

لم تمر إلا ثلاثة أيام على استلام طارق في أبي قرقاص وفي اليوم الرابع.. تحديدًا في الثالثة عصرًا، تحولت سماء أبي قرقاص إلى دخان كثيف، فوق مدينة تحترق.. والذعر قد دب أرجاءها، من صوت الفرقعة.. والحرائق التي تزيد حتى كادت تبتلع المدينة كلها، واختبأت الناس في بيوتها، وخلت الشوارع إلا من مجموعة من الملثمين، والذين كانوا يقومون بحرق سيارات ومحلات وصيدليات بعض من المسيحيين، وعندما اقتربوا من أحد محلات عزيز السكران نسيب عائلة الربع، ورآهم قادمين نحو دكانه.. قام بإطلاق الرصاص عليهم من مسدسه فتفرقوا سريعًا.. فقد كانوا لا يحملون أي نوع من الأسلحة، سوى عبوات مساعدة على الاشتعال، وفي سرعة خاطفة انتهوا وتفرقوا مختبئين سريعًا، رغم هذا العدد القليل

من الملثمين غير المسلحين، راحت الأخبار لمركز الشرطة، عما يحدث بالخارج، وأن قوتهم تفوق بكثير قوة المركز من عساكر وجنود، ولو خرجوا للمواجهة ربما لم يعد منهم واحد، واضطروا أن ينتظروا في أماكنهم جاثمين، لحين وصول قوات من مديرية أمن المنيا، ولم تمر ساعات قليلة وألقى طارق وزملاؤه القبض على مجموعات كثيرة، وقامت قوات إضافية بالسيطرة على المدينة بأكملها، ونزلت العربات المصفحة والمدرعات، التي تشبه الدبابات، وفي خلال يومين كان هناك أكثر من ألف دشمة مبنية من الحجارة فوق الكنائس ومداخل الشوارع المؤدية لها، ومدخل شوارع مركز الشرطة.. والاستراحات الخاصة بها، ونقل فريق العمل التابع لأمن الدولة في فلة داخل مستعمرة شركة السكر.وكنت ترى مركز أبي قرقاص عيانًا أو من خلال قنوات التليفزيون المحلية أو الدولية والتابعة لوكالات إخبارية، تراها مدينة أكثر سوءًا من أية مدينة أخرى في العالم محتلة احتلالاً كاملاً أو يجري على أرضها مذابح رهيبة، وعندما تقرأ الجرائد أو ترى التليفزيون وما تقوله الوكالات المختلفة، عن أسباب هذه الفتنة الطائفية بين مسيحي ومسلمي أبي قرقاص والنزاع الذي طال فترة من الزمن على أرض كانت مفترضًا أن تكون مسجدًا، فأقام المسيحيون عليها كنيسة، أو أسباب أخرى راجعة، لاعتراض مسيحي على وجود ميكروفان مسجد في بلكونة بيته.

وفي حقيقة الأمر أن أهل أبي قرقاص في هذا الوقت تحديدًا كانوا منهكين.. متعبين وهم يبحثون عن رزقهم ولايجدونه، حتى بين الجحور.. لم يكن هناك سوى جفاف رهيب عائم بين الشوارع،لاأحد منهم نستطيع أن نمنحه لقب حي يرزق إلا من أهلها الذين يعملون في تجارة أو شيء غير مشروع، فقد كان هذا حال مركز أبي قرقاص والذي لايختلف عن حال شعب بأكمله يعيش وقتها في أحضان المحروسة عليها السلام، شعب لا يفكر في نزاع ديني أو طائفي، أو أي شيء يخص الدين.. ومعدته وبيته خاو إلا من الفقر والعبث، فإشعال الفتنة الطائفية في مصر وقتها، كان أمرًا صعبًا للغاية، أو الأخذ بمبدأ إشعال النار بجانب البنزين لم يعد موجودا، فالحقيقة لم يعد هناك بنزين كثير أوبنزين من أساسه؛ ولذلك أي شرر أو نيران يمكن السيطرة والتغلب عليها بسهولة، لأنه بوضوح ليس هناك بنزين يشتبك مع هذه النيران، والبنزين أقصد به هو الدين بالتأكيد، فالأسباب كثيرة وعوامل داخلية وخارجية، جعلتنا ننفتح نحو اتجاهات عارية كثيرة، فتوغلنا أكثر في جهل عميق، ولأسباب أخرى تلاشى أيضًا الوازع الديني منا مسيحيين ومسلمين، فبكل تأكيد أن المصري المتسامح، أصبح لديه تسامح أكثر نحو المختلف عنه في الديانة، لشعوره الخفي بداخله إنه يعيش معه في نفس المركب، والتي سوف يغرقها من يقيدونها، وسنموت جميعًا مسلمون ومسيحيون غرقًا، فلماذا إذن النزاع مع

أخي في الغرق، ثانيًا المغالاة في صعوبات المعيشة.. والقهر والذل، جعل المصري مغيبًا، لا يستطيع التفكير إلا في النجاة من الجنون والموت، كيف يتنفس ويعيش، فهذا درب من دروب الجنون إذا قلت له فلان اعتدى على ديانتك، مؤكد سوف يصمت قليلاً حتى يتذكر ما ديانته، آه تذكرت دیانتي.. أنا مصري.. تحيا جمهورية مصر العربية دنيا وآخرة، أحسن يدخلونا النار في الآخرة. ولذلك إذا ما تفحصت الأمر ستجد معظم النزاعات والتي أطلقوا عليها نزاعات طائفية، هي مشاكل شخصية فتطورت، تمامًا مثل ما يحدث بين جرجس وصموائيل أو ما يحدث بين أحمد ومحمد، قد يحدث بين أحمد وجرجس ولا علاقة مطلقًا بأن أحمد مسلم وجرجس مسيحي، هذا ما حدث في أبي قرقاص من وقائع تناقلتها الجرائد ووكالات الأنباء العالمية والإخبارية وقنواتها التليفزيونية، على أنها فتنة لم يسبق حدوثها في مصر، وقد حدثت بين مسلمي ومسيحي أبي قرقاص، ولو أنك واحد من أهل هذا البلد، أو جار للأشخاص المتنازعين لأصاب عقلك الجنون، وأنت تسمع تحليلات هذه الوكالات،البعيدة تمامًا عن حقيقة ما حدث، فالمشكلة الحقيقة أن هناك فتاة تدعى سلوى الجمال وهي فتاة مسلمة، تنتمي للنوع الذي لاحرج عنده أن يخرج خلسة مع فلان، أو يحدث فلان، أو ..أو.. وقدعرفت مؤخرًا سلوى ناجي وشهرته الربع لنحافته وتضاؤل جسده، وكان يتواعدا ليتقابلا بعيدًا عن البلد تحديدًا في مدينة المنيا،

وهما لايعلمان أن هناك عينًا ترصدهما وتراقبهما بدقة وهي عين صقر، وصقر هذا هو لقب هشام صقر نسبة لعائلة صقر المشهورة بتجارة الأعلاف والعطارة في أبي قرقاص.

وصقر شاب لم ينجح حتى في الحصول على الشهادة الابتدائية، وقد ربته الأرصفة بجانب أبيه والتي اعتاد على طرده لمشيه مع مجموعة من الضائعين، والذين كانوا يحرضوه في أوقات كثيرة على سرقة أبيه، وصقر كان شديد الولع بسلوى، وقد تعلق بها خصوصًا بعدما نجح في أن يمشي معها لبضعة أشهر، نجح خلالها أن يتلمس بشرة نهديها حين اختلط لعابه بلعابها، بعدها تركته سلوى، حين رأت مدى انحرافه وخافت أن يفتضح أمرها على يده، ولم ينسها صقر أو يخرجها من عقله وبديهي أن يثور عندما رآهما يتواعدان هي والربع، واستثار أكثر عندما عرف أنه توغل أكثر منه واصلاً للنهاية سارقًا شرفها ،ولما تأكد صقر.. بطريقة أو أخرى، سرب هذه الأخبار لأبيها الذى اتفق هو وصقر وقام باختطاف الربع وتحطيم سيارته وحرقها وهوعائد ليلاً من سفره.. ثم قاموا بإخصائه. ولم تمر أيام قليلة حتى قام شقيق الربع الكبير بإرساله لأقاربه الذين يعملون في فرنسا، ثم قام بالانتقام من أهل سلوى، فقام بحرق دكانين لهم وسيارة، فارتمى والد سلوى في أحضان صقر، والذي قام بإثارة الهياج بين أفراد عائلة الجمال ودبر الأمر بالكامل بعدما قبض ثمنًا ليس هينًا، وقام هو وأصدقاؤه بحرق

كل محلات الربع، كما فعلوا هذا مع أصدقاء عائلة الربع من المسيحيين، والذين ساعدوه على الانتقام من عائلة الجمال، وفعل صقر هذا قاصدًا كي يظهر الأمر على أنه عداء طائفي وليس شخصيًا.

ولعن طارق اليوم الذي رأى فيه سعيدًا واليوم الذي قام بالاعتداء عليه، واليوم الذي دخل فيه كلية الشرطة، وهو يبحث ويقبض ويحقق مع كل من شكوا فيه، والغريب أنه تم القبض على الكثير من المنتمين لجماعات متطرفة، كما تم القبض على كثير آخرين ولم يقترب أحد من صقر أو يأتي اسمه في تحقيق، ولم يعرف أحد عما حدث هذا إلا عندما تشاجر صقر في سوق أبي قرقاص الرئيسي مع بائعي الليمون، فقام واحد منهم بضربه بآلة حادة على رأسه، وأثناء إجراء جراحة لصقر وجد الجراح قطعًا من عظم جمجمة صقر وقد التصق بطريقة خاطئة، وعندما جاءت الضربة الأخرى استحال عليه التعامل مع الأمر، وقام بترقيع هذا المكان، ولما فاق صقر من البنج سأله الطبيب عن سبب هذا القطع الخطير في رأسك، فأجابه صقر:

- إنني كنت واحدًا من الموجودين في أحداث حريق أبي قرقاص..

- أتنتمي للجامعات الإسلامية يا صقر..

- بل أنا أميرهم...

- كيف يا صقر وقد وجدنا أثناء تحليل الدم قبل إجراء الجراحة... تعاطيك المخدرات والمواد الكحلية بكميات هائلة، لدرجة أننا ضاعفنا لك جرعة التخدير دون جدوى وما أعرفه عنك جيدًا أنا والكثير من أهل البلد أنك لا تصلي.. وتشرب الخمر والمخدرات وتسرق وتزني، ماذا يتبقى من محرمات لم تفعلها كي تدافع عن حقوق المسلمين.

نظر له صقر وابتسم بسخرية: كنت أدافع عن حقي أنا.

كان يفرح أحمد عندما يرى رجالاً كثيرة ذوي مال ونفوذ يتهافتون على دعاء، رغم ذلك تعلقت به هو دون غيره. في الوقت نفسه كان يستاء لمزاجها المتقلب، اختفاؤها المفاجئ.. فتكون معه في الغردقة وبعد بضع ساعات يتصل بها يجدها في شقتها بالقاهرة.وذات مرة كانا يتناولان الغداء معًا، وفي الليل اتصلت به تقول له إنها في الإسكندرية وتنتظره ليقضيا معًا يومًا آخر.

كان يتأملها وهي تسبح في حمام السباحة.. وكأنه يسافر لعالم

بعيد، عندما خرجت أخذ يراقبها وهي تقترب منه والماء يتساقط منها.. تضع شالاً حريريًا حول خصرها وأردافها، كان يثقب بعينه جسدها.. وحمى تسلل إليه وهو يتصبب عرقًا، وعندما جلست جواره.. أبدت استياءها له في كلمات من الدلال: أرجوك يا أحمد لا تنظر لجسدي مرة أخرى هكذا.. أنا أتعامل معك بصفتك إنسانًا متحضرًا فلا تشعرني بتفاهة ما بيننا وأنت تنظر لجسدي هكذا، ثم إني منحتك ما هو أجمل وأغلى من جسدي فأنا منحتك قلبي.

تكررت لقاءات أحمد ودعاء كثيرًا، حتى أصبحت كل يوم تقريبًا يتناولان الغداء معًا.. أو يخرجان فضلاً عن السفر، والجلوس في الفنادق الغالية، وأثناء كل هذا أبدًا لم ينجح أحمد للوصول إلى امتضاء جسدها..وغزو فرجها.. أو العبث في حدائق نهدها، شعر أنها إنسانة متحررة شيئًا ما، لكنها بعيدة تمامًا عن منطقة العلاقات الجسدية. ويومًا بعد الآخر بدأت دعاء تثق فيه، وأفضت له عن كل تفاصيل حياتها، وكثيرًا ما كانت تضع رأسها على صدره وتحوطه بذراعيها وهي تدمع وتقول: أنا لم أشعر بالأمان إلا معك.. لماذا قابلتك.. إني أحبك.

كان يشعر أن قلبه ينتفض والحب يشتعل في جنباته، أصبح لا يفكر في جسدها فقط بل في كل كيانها الأنثوي نادر الحدوث، لكن هناك مشكلة أصبحت تأرقه.. باتت تهدد استمراره في دربه متعدد اللذات، وهو راتبه الذي لا يكفيه سوى أسبوع على الأكثر

شعر أن حافلة كبيرة.. ضخمة ورهيبة.. ولايوجد بها إلا القليل من الوقود كي تتحرك وتنطلق، شعر للمرة الأولى أن ما يراه في نفسه من نفوذ وسطو وهيبة يحتاجون إلى شيء مهم، بجانب بدلته.. ربما قبلها.. وهو المال؛ ليظل يدخن نفس نوع سجائره، كي يستطيع الخروج مع دعاء، ويشتري نظارة شمسية غالية بدلاً من نظارته التي كُسرت، ملبسه.. مأكله، وما السبيل للمال، وقد رفع والده عنه أية مساعدات، خصوصًا بعدما خطب له أميرة الجارم وتكبد أموالاً طائلة ليتم الأمر سريعًا كي لا تضيع هذه العروسة الثرية من ابنه، وإذا أردت أن تعرف أميرة فانظر لكل ما يتمناه شاب في فتاة ستجده مجموعًا في أميرة، ولذلك رحب أحمد باقتراح والده بزواجه منها، خصوصًا أنها سترث ملكًا رهيبًا من مال أبيها، لكنه لم يسكن إليها.. وظل هائمًا بالأنثى متعددة الألوان.. البراقة.. دعاء. لاعجب فإذا أخذت كلبًا من الشارع، وقمت بحمومه بأجود أنواع الشاور، وعطرته بعطر فرنسي.. وجعلته ينام على سرير غال، سيترك كل هذا خلسة، وينزل للشارع يرتع ويلهو ويشرب من ماء المجاري العفنة، حيث متعته ولذته الذي يشتهيها، ويرى نفسه من خلالها. هكذا يبدو أن أحمد كان يرى متعته في فروج النساء السميكة الواسعة التي تسع لأكثر من قضيب.. وقضيب.. أما مشكلة المال فقد أنقذه طارق منها.. فبعد أن انتقل طارق إلى مركز أبي قرقاص مباشرة طلب من أحمد بإلحاح أن يعرفه على أعضاء لجان الصلح

في المحافظة والتي تضم بين أعضائها والده مدحت العسقلاني، خصوصًا وقد تأكد طارق من القوانين التي يتبعها معظم أعضاء هذه اللجان.

ولجان الصلح في المنيا مثل باقي المحافظات، لها وظيفة واضحة وهي فض المنازعات والخلافات بين العائلات والأفراد، وأعضاؤها يتم اختيارهم من قبل وزارة الداخلية، وأهم أعضائها في المنيا العمدة أشرف السروجي والعمدة مدحت العسقلاني، والشيخ عبد الحميد، وثروت المحامي، وما يحدث بداخل هذه اللجان وأعضائها، لا يختلف عما يجري ويحدث مع هذا الشعب وحكومته في هذه الحقبة السعيدة، فعندما ينشب خلاف أونزاع بين طرفين يكون الحكم لصالح من يدفع أكثر، من خلف الستائر وفي كواليس أعضائها، حتى تحول معظم أعضائها إلى غلان، بوجوه ممسوخة من تارات النيران والمقت.. أحياء وكائنات غريبة تتحرك حولك.. كروشهم المنتفخة.. التي لا تشبع من أكل السحت والحرام، ترى ذلك عندما يجلس أحدهما أمامك والمكر يتدلى من أنفه وفاهه، مثل ضال مجنون.. مخاط يتدلى من أنفه.. ملطخًا بقعًا في وجهه، يجلس أمامك.. يراودك بمقدار ما ستدفع.. بمقدار ما سوف تضيق الخناق على خصمك، لدرجة أن الخناق كان يضيق على الخصم غير القادر على الدفع حتى يموت من الظلم قهرًا، ولا تتفاجأ عندما أقول لك كارثة تجعلك تشعر بوابل الأمر أن نفس هؤلاء الأعضاء للجان

الصلح يرشحون أنفسهم في مجلس الشعب ونفس هؤلاء الناس الذين ينعون ظلم هؤلاء الأعضاء وضمائرهم الخربة نفس هؤلاء الناس الذين ذاقوا منهم معنى الموت وهم أحياء، نفس هؤلاء الناس يذهبون لصندوق الانتخابات، ويصوتون لهؤلاء الأعضاء حتى ينحجوا!!

ووجد طارق مصالح مادية باهظة بين هؤلاء المتنازعين وأعضاء اللجان، وجعل أحمد يوطد العلاقة فيما بينهم على أن تكون المكاسب مناصفة ، ورغم أن طارق كان لا يمنح أحمد إلا القليل من مجموع هذه الأرباح، إلا أن هذا المورد كان كافيًا جدًا ليجعل أحمد يستمر، وتتحرك حافلته.. ويخرج مع دعاء ويتقابلا، حتى تطورت علاقتهما وبلغت ذروتها، ونظر أحمد حوله.. لا يجد لنفسه منقذًا من أرداف دعاء وانفلاجة فرجها الرهيب الذي يظهره بنطلونها الضيق.. كان يعتصر ألمًا كلما لمست يدها يده أو قبلها خلسة.

وعندما صار به الأمر لحد أنه كان لا يعدو ليلاً عند نومه إلا استحضارها في خياله فيستمني.. على صورتها القابعة في مخيلته وهي تحدثه في دلال ونغج،.. حتى صرح لها يومًا: إني حقًا.. لا أستطيع المقاومة أكثر من ذلك..

نظرت له دعاء:

- وأنا مثلك.. فأنت لا تعلم ما شعور المرأة إذ أحبت ورأت

نفسها عاجزة أن ترتمي في أحضان حبيبها.. ولكن لا جدوى من هذا يا أحمد لن يحدث بيننا شيء إلا بعد انفصالي.. وقتها تزوجني إذا أردت..

- وماذا نفعل كي تنفصلي عن زوجك في أقرب وقت.

- لا توجد سوى طريقة واحدة.

كان لابد وحتمًا على وزارة الداخلية، السيطرة على تلك الأحداث المتفرقة في مراكز المنيا. هذا وقد تولى عميد أمن الدولة صالح عبد الجواد الإشراف على مركز ديرمواس، للسيطرة على مجريات الأحداث هناك. وصالح عبد الجواد من الضباط الأكفاء، والمشهود لهم بالحكمة والذكاء في إدارة مثل هذه الأزمات، كما أنه مؤمن تمامًا أن ترقيات ضباط الشرطة تقف عند رتبة لواء، وليس هناك ترقية برتبة إله. ومن البديهي أن أول شيء فعله العميد عبد الجواد هو تكليف فريق العمل بالقبض على كل المشتبه فيهم، ومن لهم ملفات خاصة بهم وبجماعاتهم المنضمين إليها، ولم يتلكأ حاتم وأصدقاؤه من فريق العمل في تنفيذ هذه الأوامر سريعًا، إلا أن طريقة حاتم في القبض على هؤلاء كانت مختلفة عن طريق

باقي زملائه، وإن كان البعض منهم يتبعها، وقد كان حاتم يفتش ويتقصى عن الشخص المطلوب القبض عليه، بعدما يداهمه في منزله عدة مرات، فإن فشل في العثور عليه اصطحب أهله معه ويقوم بتعذيبهم حتى يقروا بمكان هذا الشخص، وهذا ما حدث بالفعل عندما أرسل حاتم قوة للقبض على ربيع الطاهر، وربيع بالغ من العمر ٢٨ عامًا.. يعمل كهربائيًا، ومعروف بورعه الإيماني وملازمته للمسجد، وقد انضم الطاهر لجماعة التكفير والهجرة بملوي، ولم يلبث معهم سوى القليل وتركهم للاختلاف في الآراء، ثم انضم إلى جماعة الدعوة في ديرمواس، ولم يكن لربيع أي نشاط تخريبي أو حتى تجمهري، سوى المداومة على الصلاة وتحفيظ القرآن، والخروج مع الجماعة للدعوة، وقد أُستدعى ربيع أكثر من مرة لمقر أمن الدولة في مركز ملوي، وفُتح له ملفًا ضم كل تحركاته، والجماعات التي انضم إليها.. وأهدافها، وعرض لأفكاره ومبادئه.. كذلك صور محاضر جلسات التحقيق معه، وفي كل مرة لم يمكث ربيع إلا أيامًا قليلة معهم وخرج، حتى قابله النقيب أحمد عبد الجليل والمشهود له بالقدرة غير العادية على التحاور مع هؤلاء، والوصول إلى مفاتيح شخصياتهم، وقد حدث وأقنع عبد الجليل ربيع بعدم تضييع وقته وأن من الدين أيضًا الحفاظ على نفسه وأهله، ومن الإيمان أيضًا العمل والكسب ونفع أمتنا، وألا أحد يختلف أن منبع ومكان الإيمان الحقيقي في القلب، على الأقل

هذه الأيام حتى نعبر بالدولة من حالة الغليان هذه، وفعل ربيع هذا تمامًا وبعد عدة أشهر وافق على فرصة عمل مقدمه له كهربائي صيانة في المدينة المنورة، ولم تمر إلا خمسة أشهر على سفره، حتى قامت هذه الأحداث المتفرقة في مراكز محافظة المنيا، وجاءت الأوامر واضحة بالقبض على كل من لهم ملفات ومنضمين إلى جماعات نشطة، ولم يصدق حاتم قصة سفر ربيع الطاهر من أهله، وقام بالقبض على زوجته وأخيه محمد وزوجته ووالد ربيع وأمه، وقام بتعذيبهم حتى رأوا أن من الأهون عليهم أن يكذبوا ويقولوا نعم لم يسافر ربيع وهو من قام بكل هذه العمليات التخريبية.. بل هو الوحيد وراء عمليات أبي قرقاص، كان هذا أهون وأشد وطأة من العذاب الذي كانوا يذوقونه على يد أتباع حاتم.

في الثالثة صباحًا بلغ أحد الضباط العميد عبد الجواد بما فعله حاتم، وما نتذكره جيدًا ، في الثالثة والربع كان حاتم ماثلاً أمام عبد الجواد في مكتبه، والذي كانت ثورته عارمة وهو يوبخ حاتم على ما فعله، لكن حاتم جلس أمامه وأخرج سيجارة وأشعلها وهو يقول له:

- إني أحاول العثور على من خربوا البلاد فماذا أفعل؟ أأقبل يد أبيه وأمه حتى يفصحوا لنا عن مكانه.

- لا ياحاتم بيه.. بإمكانك من خلال تليفون صغير تتأكد من

مغادرة هذا الشاب للبلاد ومتى؟

- وما أدراك سيادتك أنه لم يعد، فهؤلاء لايغلبون عند عودتهم في الدخول بطرق غير شرعية حتى لا يدرجوا في قائمة دخول البلد وهكذا هو في نظر القانون غير موجود في مصر فأنا لا أنسى أنني أتعامل مع مجرمين..

- إذا كنت تتعامل مع مجرمين فأحذرك أن تتعامل معهم بإجرام من خلال وزارة الداخلية فالتعامل في كل الأحوال بالقانون، والذي يمكن أن تقع أنت نفسك تحت طائلته إذا ما خالفته، هذا إذا كنا نتعامل مع مجرمين فكيف إذن.. وأنا وأنت إلى الآن لا نعلم إذا كان ربيع الطاهر بريء أم مدان، أهله يعودون إلى منازلهم فورًا.

همَّ حاتم بالخروج.. فأوقفه صوت عبد الجواد: حاتم لا تحملني فوق طاقتي.. فنقلك من أمن الدولة لن يكلفني سوى ورقة صغيرة وبعض الكلمات.

خرج محمد الطاهر شقيق ربيع وزوجته وزوجة ربيع ووالده وأمه، لكنهم خرجوا بإصابة كبيرة توغلت في أعماقهم النفسية، ولم يتصور محمد الطاهر أنه سوف يستطيع العيش مرة أخرى في هذه الدنيا دون أن ينتقم من هذا الضابط ترك أهله وزوجته، فهو لا يستطيع أن يضع وجهه في وجههم، بعدما شاهدوا كل شيء يحدث فيه، وشاهد هو كل شيء يحدث فيهم، وكل منهم واقف مع وتر العجز صامت ذهب لأصدقائه في ديروط، في كل يوم كانت

تزيد النار تأججًا بداخله، فيعرض كل الأفكار المتاحة والممكنة، للتخلص والانتقام من هذا النحيف الساقط.

كان يجلس أحمد في أحد الأكمنة المرورية.. أثناء عمله.. وهو لا يرى سوى صدر دعاء.. وجسدها، كل شيء أمامه يتحول إلى صورتها.. كل شيء يصدر نغمات صوتها المميز حاصرت عالمه.. وقيدت عقله من التفكير إلا فيها. طلبها في الفندق لم يجدها؛ طلبها على هاتفها المحمول.. مغلق.. ظل يجرب عدة مرات حتى جاءه صوتها متكسر مرهق.. في لهفة كان يحدثها:

- أين أنت يا دعاء؟
- في شقة القاهرة.
- شقة القاهرة.. كيف؟
- بعدين.. يا أحمد سوف أحكي لك عن كل شيء.
- لا أرجوك.. الآن.
- أنا مجهدة يا أحمد..

كانت تتحدث وكأنها تبكي.. وأغلقت الخط دون أن تزيد حرفًا

حاول الاتصال بها مرات عدة، دون جدوى، توجه نحو المحطة واستقل أتوبيسًا متوجهًا إلى القاهرة وهو مازال يجرب الاتصال بها.. وقبل وصوله بقليل.. أجابت دعاء:

- أعذرني يا أحمد أغلقت الموبايل.. فأنا لا أقوى على الكلام.

- دعاء.. ماذا حدث أنت جعلتيني أقلق عليك.

- لاشيء يا أحمد.. لا أريد مضايقتك .

- لن تضايقيني أبدًا.. أنا في الطريق إليك.

- إلى أين؟ إلى مصر؟!

- نعم.

- مرسي..مرسي.. يا حبيبي فأنا حقًا محتاجه إليك.. سأنتظرك في المحطة.

وانخرطت في بكاء شديد، عندما وصل ورأته أمامها ارتمت في أحضانه وهي تبكي:

- أنت الوحيد المتبقي لي في هذه الدنيا.. أنت لا تعلم هذه الفترة الأخيرة.. اكتشفت أني أحبك لحد الجنون، عرفت كم محتاجة لك أنا وجسدي كل مقاومتي انهارت يا أحمد، أصبحت لا أستطيع العيش بدونك فروحي أصبحت متعلقة بك.

- وأنتِ تعلمين أني أكثر منكِ.. لكن ما الحل.

- الكلب اتصل بي.. وقال إنه يعيد التفكير في مسألة

الطلاق.. وأنه لايستطيع الاستغناء عني.. وطلب مني مجددًا التفكير في موضوع الطلاق، الحقير يساومني ويعذبني من جديد، لكن العذاب أصبح ألف عذاب، فأنا الآن لا أريد الخلاص منه من أجل الخلاص.. بل من أجل من أحببت من أجلك أنت.. افعل أي شيء يا أحمد أرجوك..

- تعالي إذن نذهب لأي مكان نتناول العشاء ونكمل كلامنا.
- لا لن أستطيع الذهاب لأي مكان فأنا أشعر أن أحدًا ضربني على رأسي وسوف أسقط منك.
- وأنا لن أتركك في مثل هذه الحالة.
- أرجوك يا أحمد لا أستطيع أن أتكلم وغدًا سنكمل.
- دعاء ثقي بي.. وأنت متعبة الآن.. لماذا لا أذهب معك المنزل نكمل كلامنا.
- لا يا أحمد لم ولن يغلق علينا مكان إلا وأنا زوجتك.
- أعاهدك ألا يحدث شيء.. لكن لا تجعلينا بعيدًا عن بعض في مثل هذه الأوقات..
- إذن عاهدتني مجددًا أنه لن يحدث شيء.

عندما دخلا الشقة شعر أنه في متحف لفنان معاصر كل الأركان تحتوي على صور لها وهي شبه عارية.. وفي حالة

إغراء كاملة، المطبخ على الطريقة الأمريكية، كذلك الحمام.. محاط بمربع زجاجي شفاف يكشفه تمامًا، ثم اقتربت منه وهي تقبل أصبع يدها ووضعته على شفتيه:

- اجلس هنا إلى أن آخذ شاورًا ساخنًا، وأخرج لك نكمل كلامنا.. لكن أرجوك لا تنظر للداخل ناحية الحمام .. فأنا أثق فيك.

دخلت إلى الحمام.. وأغلقت الباب، تَصنع أنه لا يهتم.. ثم اعتدل في جلسته في مواجهة الحمام محاولاً أن يتوارى وأخذ ينظر لها وهي تخلع ملابسها.. سروالها وبلوزتها ثم فكت خصلات شعرها، وألقت بحمالة الصدر والأندر.

عندما استيقظا من النوم، كانت الخامسة عصرًا.. كان وكأنه يحلم لا يصدق أنه بات ليلته في فراشها، نظر إليها وهي نائمة بجواره عارية تمامًا وملاءة حريرية صغيرة ملتفة حول أحد فخذيها.. قبلها وهو يقول لها:

- استيقظي..
- كم الساعة الآن؟
- الخامسة..
- تأخرنا..
- متى سيحضر أصدقاؤك.
- في التاسعة.

مال عليها وهو يقبلها:

- إذن هناك وقت كي..

- لا يا أحمد ما حدث بالأمس لن يحدث مرة أخرى.. حتى تنفذ ما اتفقنا عليه.

- حددي أنت الوقت وأنا جاهز للتنفيذ.

وقد اتفقت دعاء مع أحمد بأن يقوما بسرقة أوراق مهمة ضد زوجها من شقة محاميه، بعدما قالت له: هذا المحامي يراودني عن نفسي وسوف أقنعه أني قبلت عرضه وأذهب معه لشقته ،أثناء ذلك ستدخل أنت وصديقي بصفتك الحقيقية ضابط وأثناء ما تتحدث معه وهو في حالته هذا، سوف يقوم أصدقائي بالبحث عن الأوراق بعدها إنه أنت الأمر كيفما شئت، لكن أرجوك تدخل بمجرد ما أرن على هاتفك فمن المؤكد أنك تخاف علي..

كامين الرحمانية.. هذا الكمين بعينه والذي أخبر الضابط طارق بمواصفات سعيد عندما كان يعبره، مؤكد هو سعيد هكذا كان يقول حاتم لنفسه وهو يذهب ويجيء عبر ردهات الكمين، كنمر جائع يبحث عن فريسته، ولم يكن موضوع الإرهاب هذا يشغله؛ فهو لا يرى أمامه سوى علبة الذهب الكبيرة والمال أي سعيد، كان يفكر بعمق لدرجة أنه يراه أمامه قردًا صغيرًا يتقافز فوق أكتافه ليغيظه،

قطع تفكيره هذا ليخرجه من وادي النسانيس.. صوت مشادة كلامية بين صاحب السيارة وواحد من الضباط، عندما توجه نحوهم كان سراج أبو جبل قائد السيارة مازال يتحدث مع الضابط بجواره ابن عمه عاشور أبو جبل وفي الخلف زوجة كل من سراج وعاشور وأم عاشور، سأل حاتم الضابط:ماذا حدث؟!، أشار الضابط على سراج:الباشا معترض على تفتيشه يقول أنا محام، نظر حاتم إلى سراج وهويشعل سيجارة، ويحدثه بسخرية: محام آه آه (كذا.. أم)المحامين كلهم.

وتفوه بهذا السب وهو ينظر إلى الضابط: نزلهم.. وفتشهم جميعًا هم ومن في العربية..

اقترب عاشور من حاتم: معنا حريم يا باشا..

نظر حاتم إلى الضابط في ثورة: نفذ يا حضرة الضابط الأوامر..

أمر الضابط الأمناء بتنزيل من في السيارة وتفتيشهم قطعة قطعة، اقترب سراج من حاتم وهو جالس على كرسي في منتصف الكمين:

- لماذا تفعل كل هذا ياباشا؟!
- علشان لسانك الطويل يا روح أمك..

وكأن جبالاً من النيران وقعت على سراج، وهو يقترب من حاتم الذي وقف على الفور ينظر في عين سراج التي تحولت للون

الأحمر وهو يقول له: - أنت تعرف أمي علشان تسبها.. أمي أفضل من أمك..

وقبل ما أن ينتهي من باقي الكلمة كانت قد هوت يد حاتم على وجه سراج ليصفعه بكل ما أوتي من قوة، وفي لمح البصر انقض عليه الأمناء يشلون حركته، وحاتم مستمر في ضربه في أماكن متفرقة من جسده، تدخل عاشور ثائرًا على ابن عمه، وكأنه قد ألقى بنفسه تحت المقصلة، انهالت عليهما أحذية العساكر والأمناء وهم يضربونهما بخلفية بنادقهم، حتى أدخلهما حاتم حجرة الكمين ولم يلبثا بداخله كثيرًا.. وخرجا وكأنهما شخصان آخران.

نظر سراج لحاتم وهو يغادر الكمين، فسبه حاتم بأمه أيضًا لكن بشتيمة أكثر قبحًا:

- اتكل على الله يا(كذا..أمك)أم تريد أن تخلعوا..

انطلقت السيارة وصمت رهيب يفرش خيوطه بداخلها، لم يخرج أحد حرف من فاهه، لكن أعين سراج وعاشور كانت معلقة تتحدث.. تمامًا هما يفهمان بعضهما، وكأنهما قد اتفقا أنه فات الوقت لابد أن يموت هذا الضابط.

وسراج وعاشور من عرب بني حسن جبال مركز أبي قرقاص ينتمون لعائلة ثرية والتي منها جابر، المختبئ عنده سعيد ورامي، وهي عائلة لا تهتم بالتعليم وليس بها رتب ولا مناصب، فنادرًا ما تجد لديهم شابًا حصل على ليسانس الآداب أو الحقوق، فالاهتمام

الأول عندهم هو التجارة والرجل عندهم غال، هذا إذا كان رجلاً أي له وعد وكلمة وميثاق، يفي بخداماته لقبيلته ولا يبخل بتقديم ماله وروحه لها، فإذا كان كذلك فالقبيلة لاتتحمل أن تسمع عنه أن نموسه تجرأت ووقفت على جبينه حتى ولولم تمتص قطرة من دمه، ومعظم عائلات بني حسن أقارب أو أصهار ومعظمهم أيضًا يعمل في تجارة الحشيش أو الآثار أو العملة وقت ما كانت تجارة العملة محظورة وآخرون منهم يقومون بإخفاء المطاريد بمقابل، وفي عرفهم كل هذه الأشياء مخالفة لقانون الدولة لكنها ليست مخالفة لقانون الله.

كان يحكي سراج وعاشور ما حدث، بينما سعيد ورامي من بين القاعدين في مجلسهم، شعر سعيد أن سراج قد وضع أول الخيط في يده، ابتسم من داخله عندما رأى أن هناك من سوف يتحد معه على تلك الأفعى الخبيثة، نظر سعيد إلى سراج وهو يحاول تهدئته:

- هدئ من روعك يا سراج، ولا تحمل همًا لهذا الأمر، اتركه لي..

- لا.. يا ولد العم متشكرين إحنا هنحتاروا في ولد مثل هذا، المشكلة كلها أن الأمن شادد هذه الأيام علشان إللي بيحصل، غير ذلك كان أصغر عيل عندنا صاده مثل عصفورة صغيرة، فرفور مصر الجديدة هذا..

- بالعكس يا معلم سراج، ما يقع من أحداث هذه الأيام هو

الذي سوف يجعلك تصطاد هذا الضابط بسهولة.. لكني سمعتك تحكي أيضًا عن شقيق صديق لك.. محمد الطاهر، والذي يمكث في ديروط منذ ما فعله هذا الضابط معه أيضًا.

- نعم .. أنت لا تعرف حالته الآن، هو لا يأكل ولا يشرب، يهذي ليل نهار.. كيف يقتل ولد أمه حاتم هذا.

- من فضلك يا معلم سراج أحضر لي هذا الشخص ضروري.

- لماذا؟!

- أحضره.. وسوف أخبرك بكل شيء.

بعد ثلاثة أيام لم ينم سعيد ورامي خلالها، تمكن رامي يوسف غبريال من وضع خطة محكمة للانتقام من حاتم، وجاء سراج بمحمد الطاهر، وجلس رامي يحكي لهم كيفية التنفيذ: تعرفون جيدًا أن حاتم وفريق عمل أمن الدولة، يتواجدون في مركز شرطة ديرمواس في مكاتبهم الخاصة كل يوم من الثانية عشرة ليلاً وحتى الثامنة صباحًا، ولذلك الخطة ستكون الآتي.. في السادسة والنصف صباحًا تنزل مجموعة تابعة لنا ترتدي ملابس عادية وبيدها أشياء سوف يبعونها، وتدخل إلى شارع المركز.. تتفحصه جيدًا ثم تعطي إشارة، فتنزل مجموعة أخرى تقف عند بوابة شارع المركز ناحية

الجسر- طريق سيارات - أما المجموعة الأخرى فتذهب لنهاية شارع المركز من الجهة الأخرى، في تمام السابعة ستدخل الشارع سيارة تشبه تمامًا سيارة الحكمدار وتقف أمام المركز بها رجال منا مرتدين الزي الميري للشرطة من رتبة رائد فصاعد، عندما ترى المجموعة الأولى السيارة دخلت الشارع يتمركز كل واحد منهم أمام دشمة حتى يسيطروا على كل الدشم المزروعة على طول الشارع والواقف بها عساكر الحراسة، سينزل ضباط الشرطة من السيارة، ويدخلون المركز حتى يصلوا إلى آخره وقتها يفتحون النار على كل من يرون حاتم وأعوانة دون استثناء حتى يجعلوا المركز بلا صوت ولا حركة، عند أول طلقة تُسمع.. المجموعات التي تقف عند بداية الشارع ونهايته، يغلقونه، أما المزروعون أمام الدشم فيضربوا فورًا ذخيرة حية على العساكرالتي بداخلها، وبعدما يتأكدون من انتهائهم يضعون سيارة الحكمدار في منتصف الشارع ويفجرونها في منتصف الشارع تمامًا حتى لاتقع خسائر في روح بشر لاعلاقة لهم بما يحدث، ثم تأخذ المجموعة الأولى سيارة ملاكي مركونة من الأمس في نفس الشارع، وتأخذ مجموعة الضباط بها والذين سوف يغيرون ملابسهم ويتخلصون منها ثم تتركون الأسلحة وكل شيء في السيارة، وتغادرونها سريعًا وكل يعرف أين سيذهب بمفرده.

بعدما انتهى رامي من شرح الخطة، نظر سعيد وابتسم.. لما رأى في أعينهم الإعجاب بالخطة، ثم قال: والسيارة التي تتفجر

مني.. وثمن السلاح وأجر الرجال المنفذين كما يريدون.. كله مني...

أثناء وقوف حاتم بكمين الرحمانية أيضًا، لمح سيارة فارهة لم يكن بها سوى سائق وفتاة من الخلف، ومجرد أن لمح السيارة وقف في تؤدة وتصنع وأشار للأمين والذي فهم على الفور فأوقف السيارة وأتى بأوراقها لحاتم :إنها مذيعة حضرتك.. وهذا سائقها الخاص.

تصنع حاتم أنه ينظر في الأوراق وهو ينظر من أسفلها للسيارة الفارهة متأملاً إمكانيات صاحبتها، ثم نظر للأمين وقال: أخبرها أن الباشا نازل مصر فهل هناك مانع أن يستقل السيارة معكما.

عندما انطلقت السيارة كان حاتم جالسًا وهو يؤدي التصرفات الأولى لأي ضابط، يتحدث في اللاسلكي ويلقي مجموعة من الأوامر الزائفة.

وفي الطريق عرف منها أنها ابنة سفير سابق وأنها مذيعة في إحدى القنوات الفضائية واسمها نرمين رمزي..

كانت جميلة وأرستقراطية مظهرًا وجوهرًا الشيء الذي جعلها

تتعامل معه برقي فلم يظهر منه ما يجعلها تفعل العكس.

عندما وصل مصر كان قد قررحاتم أن هذه هي المنقذ الوحيد له، فكما بحث طارق عما يحب ويشتهي، كذلك هو يرى أن هذه هي الثروة التي يفتقدها الآن بشدة.

داهم أحمد المكان هو وأصدقاء دعاء، كانت دعاء والمحامي عاريين تمامًا، تغاضى أحمد عن ارتداء دعاء لملابسها بينما أبقى المحامي عاريًا، ومنعه حتى أن يتغطى بملاءة السرير، ثم أخرج له الكارنيه: شرطة يا روح أمك.. أتعرف ما عقوبة وضع التلبس هذا.. أكيد فأنت محام..

رد على أحمد وهو يرتعش.. وكأنه قد تفاجأ بعزرائيل قادم يقبض روحه :لا أنا لست محاميًا.. أنا رجل أعمال وكل ما تريده تحت قدمك شيك على بياض واكتب فيه المبلغ الذي تريده.. لكن أرجوك اتركني لا تتسبب في فضيحتي..

وتناول دفتر شيكاته من حافظته، وأقدم نحو أحمد يقدمه له.. نظر له أحمد في استنكار: كمان رشوة!

قدمت دعاء نحوهما.. وهي تخطف الشيك من الرجل..

وتحدث أحمد بلغة جديدة: أقبل قدمك، ويدك يا حضرة المأمور خذ هذا واتركني كي أربي أولادي..

ثم ضغطت على يده.. أي أقبل.

عندما عادوا إلى شقة دعاء وجد أحمد أصدقاء دعاء أخذوا من شقة الرجل علبة بها مشغولات ذهبية، وأشياء أخرى ثمينة. أقبلت عليهم دعاء وهي تتفحص هذه الأشياء، ثم صرخت فيهم:

- أين الأوراق؟
- لم نجدها.
- ولماذا أخذتم هذه الأشياء؟
- أفضل من وجهه.

صرخت فيهم أكثر.. إذن اتركا هذه الأشياء واذهبا الآن.

بعدها نظرت لأحمد وهي تبتسم:

- وأنت.. متى سترحل؟
- لا سوف أرحل أنا وأنتِ.. لكي نخرج نتناول العشاء في أي مكان.
- إذن انتظرني إلى أن أخذ شاورًا دافئًا وأغير ملابسي.

ثم استدارت داخل الحمام وهو يشاهدها.. وهي تلقِ بملابسها قطعة قطعة.. حتى صارت عارية.. فأخذت تلعب في حلمة صدرها وهي تشدها للأمام برفق.. وتضع أصابع يدها الأخرى في فرجها.. وتتأوه وتتلوى وهي تنظر..

في تمام الساعة الحادية عشرة مساء، كان رجلان يرتديان جلبابًا وعمامة وبيدهما حقيبة، مرا على استراحة أمن الدولة ثم قالا لأحد الواقفين على الحراسة: اعط هذه الحقيبة لحاتم بيه الجبالي.. شقيقه طارق بيه الجبالي أرسلها له.

أخذها العسكري.. وقام بتوصيلها لحاتم والذي كان مستيقظًا توًا من نوم متقطع يتخلله الكثير من كاوبيس مزعجة هيستريا، فتح الحقيبة وجد بداخلها لفة كبيرة، ملفوف حولها ورق صيدناوي الأصفر هذا المميز، فك الرباط وجد كفنًا مفصلاً تمامًا بحجم جسده، وزجاجة عطر والذي ترش على الميت بعد تكفينه، وورقة صغيرة مكتوب فيها، واجبك وصل.. وده رد الواجب والجميل.. كفنك يا حاتم بيه.

قال له أحد أصدقائه وكذلك العميد صالح عبد الجواد: لا تقلق فقد اعتدنا على مثل هذه الأفعال، لكن الأمر لم يخرج من رأس حاتم هكذا، وظل طيلة فترة العمل والتحقيقات يرتجف، يشعر أن للمرة

الأولى ارتكب حماقة كبيرة، عندما فكر في البحث عن ذهب أو ثأر يأخذه من سعيد. وفي تمام الساعة السادسة صباحًا كان حاتم جالسًا واجمًا يدخن سيجارة تلو الأخرى وهو يستمع إلى قرآن آتيًا من كاسيت صديق له جالسًا على مكتب بجواره"كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور".

ارتعش جسده كله.. شعر أن الموت ساكن فوق منه.. يتأرجح مثل لمبة الإضاءة أعلاه، وفجأة سوف يقع فوقه مفترسه.. رن الهاتف، أجاب أمين الشرطة والذي نادى على حاتم: تليفون لسيادتك.. طارق بيه الجبالي، أخذ حاتم السماعة يحدث طارق وهو مازال شاردًا في خوفه ووجومه:

- أهلاً يا طارق..

- أحمد ابن خالتك كلمني.. وهو هنا الآن في إجازة وطلب مني أن نذهبا إليه فهو يريد أن يتحدث معنا في أمر مهم ،أأذهب بمفردي أم أمر عليك نذهب معًا.

- لا اذهب أنت..

- هل هناك شيء حدث يا حاتم.

- وهل هناك أكثر مما نحن فيه يا طارق، ألم ترَ وتشعر بالموت من حولنا.. يهاجمنا من كل جانب..

- لن يموت أحد قبل موعده يا حاتم.. إذا كنت قلقًا لهذا الحد

لن يفيدك غير أن تذهب تتوضأ وتصلي الصبح.. وادع ربك.. فلن ينفعك سواه.

عندما وضع حاتم سماعة الهاتف.. شعر أن طارق وجد له الحل، فالقوة الحقيقية التي لابد أن أتمسك بها هي الله، فأنا بحاجة إلى قوى أكبر من هذه الحروب الصاخبة التي زُرعت فيها هكذا كان يقول لنفسه، ثم تمتم بكلمات في سره، تقريبًا كانت بعض الأدعية التي يحفظها، ثم نزع سلاحه من على وسطه، وهو يفتح خزانة بجانبه يضعه فيها هو ومشط الطلقات الاحتياطي، ونادى على العسكري بعدما خلع حذاءه، ووضع العسكري الشبشب أسفل قدمه وتقدم حاتم ومن خلفه العسكري يحمل له الفوطة، فأقبل العميد صالح فألقى عليه حاتم التحية الميري، عندما رأى صالح العسكري والفوطة، فهم أن حاتم ذاهب للحمام: خلص وبعد ما تنتهي تحضر لمكتبي فورًا يا حاتم.

- تمام سيادتك.

حمام حاتم وضباط أمن الدولة كان فوق غرفة المباحث، نصعد له بسلم خشبي من الخلف، فنجد غرفة صغيرة وبها حمام خاص بضابط أمن الدولة. والجدير بالذكر أن مبنى مركز شرطة ديرمواس مبنيان، الرئيسي فيهما عبارة عن طابقين، أما الطابق الأول به الأستيفة.. وغرفة المأمور وغرفة ثانية، أما الغرفة الثالثة فهي غرفة كبيرة خاصة لتحقيقات ضابط أمن الدولة.. فضلاً

عن مكتب بجانبها للعميد صالح عبد الجواد، ومن الخلف هناك مدخل آخر بسلم طويل مستقيم، وعندما تفرغ منه تجد أربع غرف بجوار بعضهم من الجهة اليمنى وكلهم خاصين بضباط المباحث وتنفيذ الأحكام، أما الجهة اليسرى فهو سطح خال تمامًا إلا من غرفة متوسطة الحجم تسمى غرفة أمن الدولة وفوقها غرفة أخرى بها حمامان تصعد لها بسلم خشبي صغير من الخلف لا يُرى وهذه الغرفة عبارة عن استراحة صغيرة غير الاستراحة الأساسية المخصصة للمبيت لهم خارج المركز، وصعد حاتم السلم بعدما أخذ الفوطة من العسكري، وأعطاه أمر الانصراف وغلق خلفه باب الحجرة وباب الحمام، فتح الصنبور وملأ يده بالماء وضربها في وجهه فسمع ضجيج طلقات أعيرة نارية متتالية، وكانت أصوات مدوية تأتي من كل مكان وكأن مدفعية داهمت المكان.

تشبس حاتم مكانه.. تحجرت قدماه، لم يستطع أن يتحرك أو ينطق.. أصوات النيران بدأ يختلط معها أصوات حشرجة أنفاس أشخاص، فجأة سكت كل شيء لم يستغرق الأمر خمسة دقائق على الأكثر، ولم يتبق سوى أصوات نشيج وحشرجة الروح وهي تخرج من أجساد كل الضباط والجنود والأمناء، كان مازال واقفًا أمام حوض الحمام متوقعًا قدوم أحد مقتحمًا عليه الحمام، فاتحًا عليه النيران وهو ماسكًا في يده كفنه.. نظر لرف الحمام الذي أمامه وجد نن عينه اليسرى انفتح ليسع العين كلها، هوت قدماه.. سقط على

الأرض فاقدًا الوعي.

في المستشفى انتابته حالة هيستريا.. وهو لايقول إلا كلمة واحدة: ابعدوا رائحة الدماء هذه عن أنفي.

وفي الصباح كنت تطالع الجرائد لترى حقائق كثيرة ومغالطات أكثر، عندما تقرأ بجريدة مجموعة الإرهابين يواصلون نشاطهم الإرهابي مقتحمين مركز شرطة ديرمواس، ....، وجريدة أخرى كتبت تقول بعنوان الحقيقة الغائبة عن أعين الكثير منا: أخيرًا بدأت تدرك الحكومة أن الأحداث المتفرقة التي تقع ليست بأيدي الإخوان المسلمين، هذا جعلها تفكر أن هناك تمويلاً خارجيًا يرصد البلاد، وهذا أدى إلى تشويش كبير، ولبس أصاب عقول الحكومة ورجالها، هذا التشويش.. جعل أناسًا آخرين كثيرة تقدم على قتل رجال الشرطة، فتسرع السلطات معتقدة أن من قام بهذا نفس هذه الجماعات. مما جعل هذه الجماعات تنشط، وتقوم بقتل ضباط الشرطة، فضلاً عن أعمال تخريبية أخرى، وذلك لسببين الأول أن الحابل اختلط بالنابل.. ولم يعد أحد يستطيع معرفة من المرتكب الحقيقي لهذه الجرائم، بل بدأت الداخلية توجه كل هذه الجرائم لجماعة واحدة بعينها.

السبب الثاني والذي جعل هذه الجماعة تنشط بالفعل، لأن

الداخلية هي التي جعلتهم يسعون للانتقام، عندما شعروا بالظلم وهم يعذبون على يد رجالها على جرائم وأفعال لم يرتكبوها. أما الجريدة الثالثة كتبت: شيء لا يصدق هم لم يستطيعوا أن يروا الحقيقة، وأن السبب في كل الويلات التي تحدث في المنيا السبب فيها ضابط وآخر متعجرف، والذي أثار غضب بعض أهالي المنيا.. أناس عاديون ربما كانوا مسيحيين أو مسلمين، وهم لا علاقة لهم بجامعات ولا هباب، وقد أثار هذا الضابط أو ذلك غضب هؤلاء عندما لعب لهم في أماكن حساسة، والتي مفادها كلمات كبيرة مثل الشرف والعرض، والثأر، والكرامة، فأثار غضب هذا الرجل وآخر الذي أراد الانتقام من نفس هذا الضابط. و هذا لا يعني أنه يهاجم نظامًا أو عظامًا، بل ربما لا يعلم اسم رئيس الوزراء الحالي، تاكيدًا لكلامنا ألم تتساءل هذه السلطات إذا كان هؤلاء ضد نظام بأكمله، لماذا لم يقوموا بنفس هذه العمليات مع محافظ أو أعوانه فهو واحد من نظام وليس مجرد مأمور ضبط قضائي يعد من مجموعة الموظفين العاديين بالدولة، أو ما يسمى بموظف عام، لماذا لم يقتلوا رئيس مجلس المدينة فهو مثل مأمور المركز، لماذا لم يقتلوا أو يهددوا أحد الضباط البعيدين عن نطاق التعامل معهم؟ لاشيء فهم لا يعرفون ولا يريدون غير الذي عض في جسدهم وكشف عوراتهم.. وضربهم بالنعال، هو نفسه ذاك الضابط الأعجر ومن اتبعوه على شريعته ومنهاجه، عرفتم إذن من السبب في إشعال كل

الحرائق، وكتبت جريدة رابعة: هذا محتمل لكنه في نفس الوقت يستحيل ألا يكون هناك جماعات إرهابية أو كما يسمونها جماعات إسلامية، الحقيقة أنهم موجودون وقد نشطوا هذه الأيام وهم وراء الكثير من هذه الأحداث، وعلى صعيد آخر كان هناك تصفية حسابات بين أفراد وقبائل وعائلات، مع بعض من أفراد الشرطة المستفيدين والذي كانت تصدر منهم أفعال مهينة لهؤلاء الأشخاص والعائلات فدفعوهم على ارتكاب هذه الجرائم، حتى ينتقموا ويردوا لأنفسهم اعتبارها، فاختلطت أفعال هؤلاء الأشخاص وردود أفعالهم بالأعمال المنظمة لتلك الجماعات، أما الجريدة الأخيرة قد كتبت واصلت الجماعات المتطرفة عملياتها الإرهابية مستهدفة عميد أمن الدولة صالح عبد الجواد المسئول الأول عن سير حركة العمليات في مركز ديرمواس. هذا وقد قامت هذه الجماعات بمداهمة المركز في السابعة صباحًا، وهم يركبون سيارة تشبه تمامًا سيارة حكمدار المحافظة.. ويرتدون زي الداخلية، ثم هاجموا المركز فاتحين النيران في كل الاتجاهات، وكانت المقاومة عنيفة من ضباط وجنود المركز، استمر خلالها تبادل إطلاق النيران ما يقرب من نصف الساعة، كما كانت مجموعات أخرى مسلحة تتدفق على المركز من الإرهابيين حتى قضوا على الضباط والجنود، ولم ينج سوى النقيب حاتم الجبالي، هذا وقد أمر السيد وزير الداخلية بترقية الشهيد عميد صالح عبد الجواد إلى رتبة لواء، كما أمر سيادته بصرف مكافأة

لأسرته كذلك أسر باقي الشهداء، هذا وقد شيع جثمان اللواء صالح عبد الجواد ورفاقه من ضباط وجنود إلى مثواهم الأخير صباح اليوم، وسط حشد كبير من ضباط الداخلية.. وكبار المسئولين كذلك ومندوب رئيس الجمهورية، ومما يذكر أن نقيب أمن الدولة حاتم الجبالي ما زال يرقد في مستشفى المنيا العام وحالته غير مستقرة ولا تسمح للتحقيق معه في تفاصيل الحادث الأليم.

هكذا كتبت كل الجرائد، وكم رأى البعض أنها مسألة عداء شخصي بين قبائل وأفراد الشرطة، اعتقد البعض أن هذه الأفعال مدرجة بين الأفعال التي تقوم بها الجماعات الإرهابية ليل نهار هذه الأيام.. لتظل حادثة اقتحام مركز شرطة ديرمواس عن طريق أفراد يرتدون زي الشرطة واقعة حقيقية لا يستطيع لأحد أن ينكرها كذلك لم يتسن لأحد الوقوف عند حقيقة ثابتة وكاملة من هو وكيف فعل هذا ولماذا؟!

"وليس هذا ما نشرته الجرائد فحسب بل هذا ما حدث بالفعل" .

بعد انتهاء العملية اختفى كل في المكان المحدد له وصعد سراج وعاشور الجبل، عندما رآهما سعيد شعر دون أن يتكلما أن أفعاه مازالت حية، وأنهم لم يستطعا الوصول إليها، شعر أن رائحة سمها حوله تفوح.. وهو يشمها الآن، أدار وجهه وهو ينصرف لا يريد أن يسمع أو يرى.. اختفى في غرفته ولم يخرج.

في الصباح دخل عليه رامي وبيده الجريدة بها أخبار الحادث وصور حاتم.. ثم أخذ يتحدث ثائرًا:

- هذا.. هو الضابط الذي فعلنا كل هذا من أجله.. هذا هو الضابط الذي تخشاه يا سعيد، هو من فعلنا كل ما فعلناه من أجل التخلص منه، مازال حيًا يا سعيد.

- رامي.. لن أكرر ما أقوله لك مرة ثانية، إذا لم تستطع أن تأكل خوفك وتلتهمه سوف يلتهمك ويقضي عليك.

- أعلم.. لكن لابد أن نرحل.. نستغل فرصة وجود حاتم في المستشفى وانشغال أخيه معه ونرحل، ياسعيد الشرطة مشغولة بالإرهابيين وما يقع هذه الأيام من تخريب وقتل وذبح في ضابط الشرطة وليس بتجار الحشيش، أنا لا أعلم لماذا خوفك الشديد هذا من حاتم وأخيه.

- لأنهما كانا يعلمان كل شيء عن تجارة أبي،.. فهمت.

- على كل حال أنا طلبت من المعلم جابر أن يقضي أمرنا هذا اليوم.

- لماذا طلبت منه هذا، ستظل أحمق ومتسرعًا، كيف تطلب من أناس يعتبرونك إلهًا في حياتهم أن يحموك حتى تخرج من المنيا، جابر وأولاده وأتباعه هم دومًا الذين ينتظرون منك، سوف تضيع هيبتنا بما فعلته هذا..

- لن يحدث كل هذا يا سعيد، ثم إني أتاجر معك في الحشيش من أجل مزاجي، وليس من أجل أن أُحبس هكذا، أريد أن أخرج من هنا قبل ما أُجن، أريد خمس فتيات عاريات، وخنزيرًا كاملاً.. وزجاجة.. أريد أن أرى البحر.. ثم إني ما أريد أن أعلمه لماذا الحياة كلها معك وملك يدك، وأنت لا تريد أن تخرج من تابوت الموت هذا..

نظر إليه سعيد ولم يجب.

في المساء كنت ترى شوارع أبي قرقاص كشوارع أية مدينة تجري على أرضها حرب طاحنة، الدشم المرشقة في كل

الأماكن.. فوق الكنائس، ومركز استراحات الشرطة، المدرعات التي تشبه الدبابات المنتشرة في كل مكان فضلاً عن العربات المصفحة، كان أسهل عليك أن ترى عفريتًا في الشارع أحسن من أن ترى ضابط شرطة يسير دون أن يختفي داخل المدرعات أو السيارات المصفحة، هكذا كان يفعل طارق في ليل هذا اليوم، وهو يقوم بتجهيز قوات متعددة من الأمن المركزي.. والاقتحام.. يسبقهما فريق من البحث، والذي جعلهم طارق يعبرون كوبري شرق ترعة الإبراهيمية بأبي قرقاص كل يوم، واصلاً إلى مشارف النيل عند بداية بني حسن ويعودون، واليوم ينتظر طارق إشارة الهجوم على الجبل لتمشيطه بحثًا عن أفراد إرهابيين نشيطين مؤكدًا اختفائهم داخل الجبل، والحقيقة هو رتب لكل هذا بعدما جاءته أخبار مؤكدة أين يختفي سعيد.

دخل جابر على سعيد ورامي الحجرة أثناء حوارهما، وبيده حقيبة ممتلئة بالمال، أعطاها لسعيد وهو يقول له:

- هذا ثمن التموين الأخير الذي وصلنا، ومعه ثمن التموين الجديد الذي اتفقنا عليه مقدم كمان.

نظر إليه سعيد:

- لكني لم أطلب منك مالاً مقدمًا ياحاج جابر، فأنت تعلم الثقة التي بيننا منذ والدي.

- هذا حقك.. وأنا أعلم أنكما رجلان من الصعب أن

تتكررا، وأعلم أنكما في حاجة للمال كي تتوسعا في تجارتكما.. وهذا أقل من حقك يا ولدي، أما ما فعلتماه مع ولدينا سراج وعاشور فلهذا حديث آخر بعد عودتكما إلى بلدكم سنتقابل في الإسكندرية، وأنا رتبت كل شيء كي تخرجا من هنا حتى تصلا للقاهرة سالمين.

نظر إليه سعيد في ريبة وكاد أن يتكلم فأسرع جابر وكأنه قرأ ما يود قوله:

- أنا كبير يا ولدي، أموت قبل ما أصغر في كلمتي ستصلان إلى القاهرة معززين مكرمين.

اقترب منه رامي:

- كيف يا حاج جابر:

- لا تسألني يا ولدي، فقط كونا جاهزين غدًا عند الفجر.

فجأة فتح باب الغرفة ودخل أحد رجال جابر في هلع.. وأخذه بعيدًا يخبره.. بأن الحكومة بدأت تداهم الجبل من الخلف، نظر إليه جابر وقد تحولت عينه لعين صقر ضال وظهر الوجه الحقيقي له وهو يتحدث إليه: أرحل سراج وعاشور؟!

رغم أن قلب سعيد كادت أن تتوقف نبضاته، عندما سمع بخبر هجوم الشرطة على الجبل، إلا أنه تماسك راسمًا عدم المبالاة، نظر جابر إلى الرجل الذي أخبره وتأكد من رحيل سراج وعاشور.. ثم

قال له: أخبر الرجال ألا يطلقوا عيارًا واحدًا، ورحبوا بهم فهم ضيوفنا اليوم، وأرسل لي عزاري سريعًا. ونظر لسعيد والذي بدأ يمتعق وجهه ويظهر ما يخفيه بداخله: لا تقلق يا ولدي فرجال الداخلية يريدون أن يشربوا شاي الجبل، ربما نسوا مرارته!! سيأتي عزاري الآن.. وهو من خيرة رجالي، كونوا ملازمين له حتى ترحلوا.. وسأنتظر منك يا معلم سعيد التموين الجديد أرجوك لا تتأخر علينا، ولا تقلق هكذا من عيال الداخلية هم لا يبحثون عن حشيش أو من يتاجروا فيه هذه الأيام.

خرج جابر من دهليز إلى آخر حتى وصل إلى تمركز القوات والذي وجدهم يمشطون الجبل ،اقترب جابر من طارق الذي يقف بين مجموعة من الضباط:

- أهلاً وسهلاً بالبهوات.. نطلب شايًا ولا نأمر بتحضير العشاء.

- لا تضيفنا يا حاج جابر.. بل أخبرنا أين خبأتهم..

- لا أحد هنا يا باشا غير رجالي، وأمامك الجبل ابحث فيه كيفما تشاء.. وأنزل رجالك هنا عامًا وعشرة محاصرين الجبل، إن خرج إنس ولا جن غير رجالي بحق عندي.

اقترب طارق منه وبداخله براكين تغلي:

- للمرة الأخيرة أسألك.. أين سعيد؟ أين خبأته؟ أعلم تمامًا أنه عندك هنا.

- من سعيد يا باشا؟ أتقصد سعيد بائع الزلابيا.

اقترب من طارق ضابط أقل منه رتبة وهو يهمس له في أذنه: لا أحد معنا في الكشوف اسمه سعيد سيادتك.

حاول أن يخرج طارق من ثورته: أقصد ربيع الطاهر.

نظر إليه جابر ورد عليه بكلمات مغلفة بمكر ودهاء: لا أحد عندنا طاهر في هذا الجبل يا باشا.

بني حسن عبارة عن جبل يمر تحته نهر النيل، وبني حسن مكان ممتلئ بآثار الفراعنة؛ ولذلك جميع رحلات السياحة تحرص على زيارة أفواجها لهذا المكان.

وعندما أتم الفجر خيوطه وفرشها فوق الكون، وقفت سفينة عند جبل بني حسن بها فوج ضخم جميعهم من الفرنسيين وهم آتين من رحلة نيلية تبدأ من الأقصر وتنتهي في القاهرة، يزورون خلالها كل الأماكن الأثرية، وعندما غادرت السفينة بني حسن كان سعيد ورامي بها، بعد ما سلمهما عزاري لعم قنديل ووصى كثيرًا عليهما وعم قنديل أحد أتباع جابر وهو يعمل منذ ثلاثين عامًا على نفس هذه السفينة، وعندما سقطت الشمس في حجر السماء، كانت السفينة

في شريان النيل تسير في اتجاه نحو القاهرة.

أحب أحمد هذه المغامرة التي أقدم عليها مع دعاء، بل أصبح يتلذذ وهو يفعلها.. عندما يرى الرجل من هؤلاء يرتعش وهو يحاول أن يستر عورته.. يحاول أن يركع له؛ كي يتركه.. مقابل أي شيء.. أحب هذا الرضوخ وهذا الذل، والذي لم يعرفهما سوى في أحلامه.. وهلاوسه الدماغية، والتي لم تحققه له بدلة الداخلية، كما كان يزعم أن مجرد ارتدائها سوف يسوق أممًا بكرباجه أمامه، وفي كل مرة كان يفعلها يزيد تعلقه بدعاء والتي قدمت له مائدة متعددة الأطباق من السادية سادية في الحب.. سادية في الجنس.. سادية في تعذيب البشر.. من الرجال المتلبسين معها، وفي كل مرة كانت تعطيه أكثر، فهي مدركة لنوع المرض الساكن في هذا الرجل النائم فوقها، وأنه لا ينتظر منها المال بمقدار انتظاره أشياء أخرى، فكانت تتصنع الصرخات والتأوه وأنه يؤلمها ويعذبها.. عندما يأتيها، تتصنع تعلقها به.. فلا يوجد رجل هكذا هو الوحيد من جاء هذه الدنيا بهذا الطراز الفريد، كانت تتعامل معه بحرفية تامة.. حرفية امرأة تربت فوق فروج العاهرات وبين الحانات. فدعاء ... مواليد محافظة السويس لأب يعمل في محل حلاقة، ولديه ثلاثة أولاد غير دعاء ، حنان وأدهم وفلة. أما أُم دعاء بهيجة فكانت تقوم

بجمع البيض من الفلاحين والمزارع.. وتبيعه لتاجر يأتي لها، وكان مكسبها بضعة جنيهات قليلة، إلا المرات التي كان ينام معها هذا التاجر، فكان يضاعف لها مكاسبها، كذلك كانت بهيجة تخدم في بيوت الأسر ميسورة الحال، وكانت تأتي لدعاء ببعض الملابس القديمة.. من عند هذه الأسر، وتفرح دعاء عندما ترتدي هذه الفساتين الغالية، وتنظر لها بهيجة: والله أحسن مائة مرة عليكِ من ابنتهم الرفيعة.

وكان يطلق على دعاء في منطقتها السكنية دعاء الصاروخ، فأدركت في سن مبكر ما مدى جبروت جسدها، وعلمتها أمها ما هو الجزء الذي تظهره من صدرها فتجعل الرجال تلهث خلفها، وكيف تتحدث.. وكيف.. ولذلك دعاء كثيرًا ما خبأتها بيوت قديمة.. ومهجورة مع شاب وآخر، بمقابل مالي بخس.. وكانت مازالت بكارتها معها، وفي كل يوم كانت تراقب فخذيها ونهديها.. حتى كبرا، وأصبحت ممتلكاتها تخلب كل الأنظار، خصوصًا تاجر البيض والذي عذبته بهيجة إلا أن نال دعاء.. حتى قطف بكارتها بين أقفاص البيض، وكانت المكاسب مجزية وكافية لإنعاش حال كل الأسرة، حتى خرجت دعاء إلى القاهرة ذاهبة إلى كلية الآداب قسم إرشاد سياحي، ولم تنس وصايا بهيجة لها: الفتاة الجميلة لديها كنوز كثيرة، لابد من استغلالها لتنتعش الحياة حولها، ومارست دعاء هوايتها في الجامعة، دون أدنى عبء، فكان رجال ..وشباب

كثيرون واقفين طابورًا أسفل قدمها، وتعمقت علاقتها بصديقين واللذين بدورهما عرفا دعاء على رجل من دول الخليج، والذي حول حياة دعاء وهذين الشابين إلى رغد وثراء، وعندما مل ورحل كان عليهم البحث عن آخر، وتركت دعاء الكلية حتى فصلت.. فتفرغت إلى حرفتها، حتى انتقلت هي وصديقاها إلى تجمع لاريب فيه الغردقة ، وكان صديقاها يرتبان كل شيء بدقة متناهية، وأبدًا لم تهو دعاء أو يلاحظ عنها شيء، بل كانت تزداد من نجاح إلى نجاح.. حتى حصلت على الدكتوراه بمرتبة قلة الشرف، وأصبحت أكاديمية يفترض أن تدرس بها كل عاهرات الجيل، فهي حقًا محترفة في سرقة الرجل من نفسه ومن اسمه.. ومن ماله، وحين تعرفت على أحمد قرأت من خلال سطور تعاملاته معها.. ضياع شخصيته وأدركت مبكرًا كيف تسيطر عليه، ورحبت به هي وصديقاها لاستغلاله فيما كانوا يفعلونه من قبل التعرف عليه..

عندما تختلي دعاء بداعرها، يتسلل صديقاها إلى الشقة يمشطان ما بها، ومرات أخرى كانا يباغتونهما على أنهما أخواها، أو واحد منهما زوجها.. ويتمم السيناريو بالطبع بابتزاز هذا الداعر، أما هذه المرة سيضاف للسيناريو تطور كبير.. سيكون هناك ثالث، ضابط.. أحمد وصديقاها هما الأمناء أو القوة، حتى يمتصوا دماء الداعر الجديد لآخر قطرة.

وفي إحدى هذه المرات دخل أحمد ومعه القوة ليجد دعاء في أحضان رجل عربي، وعندما قال له أحمد: شرطة..

رد عليه الرجل: أهلاً وسهلاً.. تفضل معنا.. ماذا أفعل لجنابك لأنك شرطة.. ثم كيف دخلت شقتي.. ومن أنت..

ثم أخذ هاتفه المحمول.. منعه أحمد، فاقتربت دعاء من الرجل العربي تقول له: أرجوك إنه معه الأمر وديًا.. أعطه أي مبلغ كي لا يفضحني فأنا من عائلة..

لا حظ الرجل شيئًا ما..لاحظ تجوال أصدقاء دعاء في شقته.. وهم يأخذون بعض الأشياء الثمينة فأسرع مغلقًا باب شقته بكل الأقفال.. وتحدث معهم بملء صوته، ولم يستطع أحد السيطرة عليه، حتى تحدث من هاتفه المحمول الآخر، ولم يقل سوى كلمتين أو ثلاثة، وفي لمح البصر امتلأت الشقة برجال المباحث، وأمن الدولة.. ورجال عدة من سفارة الرجل العربي.

عندما استيقظ سعيد ورامي من نوم عميق لم يذوقاه منذ

بضعة أسابيع، دخل عليهما عم قنديل بالكثير من الخيرات، وهو يسألهما هل يريدان أي شيء آخر، نظر له رامي وهو يقول له:

- هل يمكننا التجول في السفينة يا عم قنديل، أم نسبب لك إحراجًا؟!..

- إحراج؟!.. كيف يا ولدي وأنتما موص عليكما من ولي نعمتي، افعلا ما شئتما مثل أي أحد موجود في السفينة، فأنتما ضيوف.. وليس اثنين هاربين على ظهر مركب، وقد قال لي سيدي جابر اخدمهم يا قنديل فأنت معك اثنان من علية القوم، كما أن الريس يعلم بوجودكما.. وسوف يأتي يسلم عليكما.

مجرد خروج عم قنديل.. أقبل رامي على الأكل يلتهم منه بنهم شديد، ثم نظر لسعيد:

- لماذا لا تأتي لتأكل؟

- سآكل بعد قليل.

كان حقيقي.. وليس زيفًا حبه لسعيد، ولذلك وقف الأكل في حلقه لم يستطع أن يكمل، فقد لمح مدنًا كثيفة بالموتى تتحرك أسفل جفون سعيد، ألوان من الحزن والعذاب لم يرهما أو يسمع عنهما من قبل، قام.. تحرك نحوه وهو يقول له: لماذا لا تنفذ ما تقوله لنا يا سعيد؟

ثم أخذه من يده وجعله ينظر من طاقة زجاجية بالغرفة:

- أترى يا سعيد.. نحن في وسط النيل.. نزلنا وانتهى الأمر،

لا نستطيع الرجوع وإن لم نكمل سوف ننتهي، صدقني لا داعي في كل لحظة تقتل بهجة الحياة من حولنا، متذكرًا ويلات الطريق.

- لا شيء يا صديقي.. أنا متعب فقط.. كما أني أفكر في توريد البضاعة الجديدة والتي دفع جابر ثمنها مسبقًا.

- إذن تعالى نرى الأمم الأخرى التي بالخارج.. لنشاهد هذا الجمال الشهي.

- لا اذهب أنت وسوف ألحق بك..

خرج رامي.. بينما سعيد كان جالسًا ينظر للجريدة الموضوعة فوق السرير، قام.. ذهب نحوها.. كان يمشي كأنه يذهب لمدينة بعيدة.. والخطوات بينه وبينها كثيرة، ارتعشت يده وهو يمسكها.. يرى صورة صالح عبد الجواد.. صورة زوجته وأولاده وهم يودعون جثمان أبيهم، كل الصور كانت تتحرك أمامه.. ليست التي في الجريدة فحسب، بل مشهد أمه ودمائها النازفة أسفل إطارات السيارة، هياكل أخرى وأشباح تتراقص متنافرة، صور كثيرة تطوف حوله.. تذكره.. يغوص لأسفل، فيرى أشخاصًا تضحك وأخرى تنزف، أنين يتساقط من فتحات بجسد ابنة عبد الجواد، كان لا يراها هي بل يرى في صورتها دمعات دينا.. دماءها وهي ساقطة أسفل منه.. تتلوى تتعذب تستعطفه أن يرحمها، وهو على يقين أن شيئًا هناك قد أوأد الرحمة متبولاً في حجر السماء.. وكيف للرحمة أن تقوم من مرقدها، والكل ينهل من صدر أمي متخطفة،

إلا أنا طعامي تراب.. وديدان.. وعذاب، وقع على ركبتيه يتلوى غصة عند صدره تمزقه.. يداه قد اعتادت على عصير الدماء.. دينا وعبد الجواد.. وأكيد هناك ينتظره هؤلاء، رفع يديه... يراهما حمراء.. دماء.. ينظر.. وجد جمعًا مقبلاً عليه.. كلهم.. يدنون منه بخطا بطيئة يمسكون في عنقه.. يخنقونه.. صرخ: لا تقتلوني.. وتتركوا حاتم وطارق هما فقط السبب في كل ما حدث.. ويحدث، ليس أنا.

سقط على الأرض.. ذهب وراح في دوامة من تحتها دوامات شعر أنه يغرق ويغوص.. في أعماق العذاب تمامًا نفس المذاق يذكره ببيت شهيرة وويلاته.. راح في سراديب النوم يختنق يشعر أن الدنيا تضيق به مثل قبر صلد صغير، فجأة شعر بيد تربت على كتفه، كان عبد الحي:

- ألم أقل.. لا تترك نفسك فريسة للعذاب..
- أنت.. أنت أين ذهبت وتركتني ..

انتفض وهو يفيق من غفوته عندما دخل رامي.. ينظر له: أنت نائم يا سعيد هنا وتارك جنات الرب بالخارج..

ثم اقترب منه أكثر.. يرى دمعات في عينه:

- ماذا يا سعيد أكنت تبكي؟!
- أبكي!..لا إنها آثار النوم، سأغسل وجهي وأغير ملابسي.. وأخرج معك..

خرج سعيد مع رامي والذي مازال يشرح له عن جمال الفرنسيات ورقتهن وهن يستحممن في بيسين السفينة، بينما سعيد كان مازال يأرقه هذا الشعور الغريب، وهو رغبته الملحة والشديدة في البكاء دائمًا، والمجهود الكبير الذي يبذله كي يحبس الدموع في عينيه، ورغم هذه الدموع وعناقيد الألم المدلى من جفنه وأمعائه وقلبه.. وكل جوارحه، كان يدرب نفسه على التمثيل، تمثيل عكس حالته التي يعيشها في أعماقه، ممثلاً دور الأمير الأرستقراطي المبتهج دومًا.. وراح ينظر لرامي بادءًا فصول المسرحية: ما هذا الجو الرائع يا رامي..

لكن رامي.. وليس رامي فقط بل أي أحد يقترب من سعيد بضعة أيام، سوف يراه ولو خلسة بعيدًا عن الماسك الذي يرتديه، وسريعًا ما تأخذه شفقة نحوه، بل إن رامي هو أكثر واحد بعد عبد الحي كان يشفق عليه، وهو يراه يتمزق بين سكاكين حزنه وآلامه، كل يوم كان ينظر في عينيه ليراقب هذا المجهول والغموض المتجولين داخله، كان يشعر أنه يمشي مع شخص يودع الحياة، دائمًا ما كان يقول لنفسه إن سعيد لابد أن يكون مريضًا بمرض خطير.. وأنه سوف يموت عن قرب.. وهو يُخفي عني، وأخيرًا يفكر.. ويفكر.. دون.. ثم يحاول أن يخرج من عالم سعيد قبل أن يمسه الجنون.

نظر له رامي وقال:

- ارتدي يا سعيد نظارتك الشمسية، فالشمس لم تمل بعد، ثم إن عينيك واضح أنها تدمع.

- تدمع ..لا ..لا هذا يتراءى لك للون عيني المختلف.

ثم ارتدى نظارته وهو يحدث رامي متابعًا فصول مسرحيته التمثيلية:

- انظر يا رامي أترى هذا الشاب الجالس على البسين، وشعره الكستنائي المنسدل على كتفه..

- نعم.. إنه حقًا ولد.. انظر كيف تتطلع له الفتيات..

- ماذا تقول ولد! وتتطلع له الفتيات!.. إنهن يسخرن بداخلهن منه..

- إنه شاذ يا رامي.

- وكيف عرفت؟

- أنت حقًا خبراتك قليلة يا رامي.. كف عن الحديث سوف تعكر الجو بكلامك هذا..

ثم مشى بعض خطوات وهو يختال يشعل سيجارة:

- أترى يا رامي هذه الفتاة.. يا لهول وروعة صدرها.. أترى حلماتها.. نافرة هكذا من حمالة صدرها.. من نحت هذا المنكان.. رامي أخوك اليوم في حاجة إليك، اذهب.. حاول أن تحدثها وتأتي لي بها.

- سوف أفعل.. ولكن حذار أن تفعل معها مثلما فعلت مع..

ولا تعلم كيف كان يتعايش سعيد هذا الدور متقمصه بينما صفحات من الدمع هناك مختبئة خلف عدسة عينيه.

انخرط طارق بين أعضاء لجان الصلح، في الوقوف معهم ضد الشخص الذي لم يدفع، ومناصرة للآخر.. أعجبه اختياله بنفسه بينهم، والربح الذي يُدس له في صورة مُقنعة، حتى بدأ يلملم بخيوطه بعض الأشخاص دون أحمد، فترى شخصًا ذاهبًا.. يطلب مقابلته، وعندما يجلس أمامه نجده يقول له في حذر ودهاء:

- جراري الزراعي سُرق مني يا باشا، عائلة الزعلان هي التي أخذته وخبأته في جراجهم.. متعللين أني مدين لهم بمبلغ كبير.. وهذا كذب وافتراء يا باشا..

- وماذا تريد مني..أ قف أحرس لك جرارك!

- لا.. لا ياباشا لا تغضب.. كل ما هناك أني نذرت مبلغًا للمولى سبحانه وتعالى، إذا ما رجع لي جراري، وكي تتأكد من صدق كلامي يا باشا المبلغ كامل أمام سيادتك وأنت بيدك الشريفة هذه ستوزعه لله..

نظر له طارق برهة: ربنا يُكثر من أعمالك الخيرية يا حاج.

وضع المال في درج مكتبه، وهو يضغط على مفتاح، في لمحٍ من البصر كان أمين شرطة ماثلاً أمامه، نظر له طارق وهو يقول:

- تأخذ قوة يا بني.. وتذهب مع هذا الرجل البركة بعد ما تحرر له محضرًا ثم تتوجه إلى جراج عائلة الزعلان إذا وجدت جراره هناك، قم بضبطه وإحضاره، هو وواحد من أفراد العائلة، وأنا سوف أحدث معاون النيابة يرسل لي أمر التفتيش.

- أوامر سيادتك ..يا فندم.

ولذلك كانت صدمة لطارق بعد ما احتفظ لنفسه بمصدر مادي مؤَمن أن ينقل من مركز أبي قرقاص إلى بندر المنيا، وكان سبب نقله غريبًا وغامضًا، ففي آخر أيام خدمة طارق في أبي قرقاص، كان هو مسئولاً عن الحجز المتواجد فيه بعض العناصر الإرهابية الخطيرة، والذين يطلق عليهم زعماء قاعدة التنظيم، وعلى رأسهم بهاء خليفة الذي حُجز عامًا كاملاً أثناء سير التحقيقات. وقد تناقلت أخبار لقادة أمن الدولة، عن زوجة بهاء خليفة التي تتنقل بين أرجاء البلد دون حرج من بطنها المنتفخة، لحملها في شهرها السادس، وقد أكدت تحريات سرية عن طريق جهاز أمن الدولة، أن بهاء كان يخرج من حجزه أيامًا كثيرة.. وأكدت تحرياتهم أن واحدًا من المسئولين قد تقاضى مقابلاً ماليًا على هذا، وقد دارت الشكوك كلها حول طارق وصديق له، وتم نقل طارق في هدوء رغبة في عدم تصعيد الأمر.

جلس سعيد على منضدة.. يراقب رامي وهو يغازل الفتاة التي أعجبته أو ادعى أنها أعجبته، كان رامي يتحاور معها بطلاقة لإجادته الفرنسية من أمه.. ولم يأخذ وقتًا حتى تعرف عليها، ابتسم سعيد وهو يطلب مشروبًا من الويسكي.. شرب وهو مازال يراقب رامي والذي امتد تعارفه إلى أصدقاء الفتاة.. ولم يلبث قليلاً حتى خلع ملابسه ونزل معهم البيسين، تركه سعيد.. واستدار ناحية النيل يلوذ بأنفاس سيجارته مع كأسه، والذي اعتاد على احتسائه.. وأخذ ينظر للنيل وهدوئه.. والمدن المترامية على ضفافه وهو يستعرض مشاريعه القادمة وكيفية إتمام صفقات عدة، هو يعلم بل اعتاد.. عندما يفترسه الحزن هكذا.. المخرج الوحيد هو التفكير في العمل، فأخذ يفكر ويخطط.. يبني وينظم حتى رأى نفسه شيئًا ضخمًا، الثعابين العملاقة بجانبه أقزام، لم يسكت فهو لا يحلم بل ينظم بدقة لكيفية الوصول إلى هذا، وأخذ يفكر.. ويشرب حتى جاء رامي، كانت الشمس غابت:

- ألم تجع يا سعيد؟
- لماذا لم تأت بما أرسلتك من أجله؟

- آتي بمن.. ألم تر هاتين الفتاتين اللتين يجلسن من خلفك وهما يتأملاك منذ ذهبت وكأنهما يشاهدان فيلمًا سينمائيًا..

نظر سعيد وجد فتاتين فرنسيتين في العشرين من عمرهما يجلسان أمامه وهما يراقبانه، تقدم رامي نحوهما وهو يرتدي ملابسه: من الممكن أن تنضما إلى طاولتنا.

ابتسمتا دون أن يتحركا، أردف رامي: إذن ممكن أن ننضم نحن إليكما.

قالت إحداهن: avec plaisir

ابتسم رامي وهو يدعو سعيد: هيا يا صديقي إنها تقول على الرحب والسعة..

جلس سعيد وبجانبه رامي، الذي قام بالتعارف.. فراحت إحداهن تعرفه بهن: أنا دانيلا مهندسة ديكور، وهذه صديقتي لي لي مترجمة الأدب الشرقي إلى الفرنسية.

ولم تتحدث لي لي وهي من حين للآخر تنظر لعين سعيد، وكأنها تزداد حنقة وفضولاً كلما شدها لغز فيهما.. وكلما اقتربت.. تتوه عبرها أكثر، ثم بدأت تتحدث، وهي تنظر لعينيه أيضًا.. تقرأ شيئًا ما فقد اكتشفت لتوها سفينة الحزن الغارقة في عينيه، شعرت أن الزمان وضعها أمام أسطورة.. غامضة.. أو صيحة هاربة، أو إنسان أمامها جالس وأحد لا يعلم أنه الآن يموت.

أخذ ينظر إليها سعيد أدهشه تعلق عينيها بعينه، كان شيء من

هناك يشمه.. رائحة عطف وحنان.. ربما هذا ذاقه من قبل.. فقط مع أمه وعبد الحي، إنه شيء جميل جربه ثمُحرم منه لكن هذه المرة نفس الشيء لكنه عال الجودة بنكهة الفرنسية الخلابة.. لي لي.

قاطع سعيد كلام رامي المستمر مع دانيلا عندما قال له:

- ألم تقل من قليل أنك جائع يا رامي.

دعاهما رامي على العشاء ووافقن على مضد، ثم ذهبا جميعًا إلى المطعم، طلب لهن سعيد أرقى وأغلى المأكولات والمشروبات حتى خلب عقول الفتاتين من حوله، والأكل يوضع تحت أضواء الشموع، وأخذ يأكل سعيد بشهية لم تحضره من قبل، وكلما نظر بعيدًا ثم اعتدل نحو لي لي.. وجدها ناظرة لعينيه تراقبه.. ثم ابتسمت له وقالت:

- أأنت مصري؟!

- نعم مصري..

لم تتحرك عدسة عينها من عليه تحدثه وهو واجم شارد في وجهها ثم ابتسمت وهي تعيد سؤاله له: على يقين تام أنك مصري..

أسرع رامي:

- مؤكد مصري فأنا صديقه وأقرب الناس إليه.

- لكن ملامحه مختلفة تمامًا عن المصريين.

- تقول لك يا سعيد ملامحك مختلفة تمامًا عن المصريين،

- قل لها إذا كنت أنا بملامح مختلفة عن المصريين،

فهذامحتمل لكن الأكيد هي ذات ملامح مختلفة حقيقي عن كل البشر فهي لا تشبه أحدًا رأيته من قبل.. مؤكد هي لاتشبه كائنات تمشي على هذه الأرض، فمثلها يعيش فقط بين الملائكة في السماء.

ثم أنهى أكله وهو يحييهم تاركًا المائدة: أنا في غرفتي يا رامي.

أبهرتها تلك الكلمات..تركت الأكل.. مسرعة خلفه تلحق به: مسيو سعيد..مسيو سعيد...

لم يقض طارق أسبوعين في مدينة المنيا حتى تعرف على ميمي صاحب محل لخدمات المحمول، وهو أول محل ُيدخل المحمول وخدماته للمنيا، وميمي كان معتزًا جدًا بصداقة طارق، صانعًا له حفاوة كبيرة؛ فكان يتعامل معه على أنه حصانة له بين جيرانه وأصدقائه، والذين ينظرون لميمي على أنه قد وصل وصادق الرتب.. لدرجة أن الضابط يذهب له المحل، فكان هذا يصنع له المهابة بين جيرانه وزبائنه، والذين يتحاشون الدخول معه في مشاكل، فصديقه ضابط، وطارق كان واعيًا بما يحدث فهو قارئ جيد، لكل ما تحاول أن تخفيه أعين ميمي الساذجة، ولذلك لم

يتلكأ أبدًا في استفزازه بكل الطرق الممكنة، فطارق أول ضابط في بندر المنيا يمسك في يده جهاز المحمول، بخلاف كروت الشحن والذي أبدًا لم يدفع ثمنها، فضلاً عن سيارة ميمي التي يأخذها طارق عندما يود الذهاب لحاتم أو لأحمد، أو عندما يخرج مع ماجي صديقته الجديدة، وهي مغتربة من الإسكندرية.. وتدرس في فنون جميلة بجامعة المنيا، وفي نفس هذا اليوم، الذي كان يعتزم طارق الذهاب لـماجي، طلب من ميمي السيارة، والذي كان يفرح أن طارق سوف يطأ السيارة بقدمه.. ويراه الجميع وهو يقودها، دليلاً على عمق الصداقة بينهما، ولا يضيع الفرصة.. خارجًا خلف طارق يودعه بحفاوة حتى ينطلق طارق بالسيارة، ثم يستدير ميمي عائدًا إلى المحل، وهو يراقب أعين جيرانه ونظراتهم له. وقد اعتاد ميمي أن يعطي لطارق مفاتيح السيارة في سلسلة المفاتيح الكاملة، والتي تحتوي على مفاتيح الشقة والمحل والأدراج الخاصة حتى مفاتيح الخزنة. وقبل أن يتوجه طارق إلى ماجي ذهب إلى محل مفاتيح، وطلب منه استخراج نسخ على كل المفاتيح الموجودة في السلسلة..

قبض على أحمد، وحجز في مقر الأمن المركزي.. وفي الرابع والعشرين من نفس هذا العام، كانت جلسة محاكمته. وقد وجهت لأحمد تهمتي السرقة بالإكراه، وتيسير الدعارة، ولسوء حظه أن محاميه بدلاً من أن يحَسن موقفه أضعفه، فقد قام بتحرير عقد زواج عرفي بتاريخ قديم بين دعاء وأحمد، وفي المرافعة اعتمد على هذا العقد موضحًا أن حقيقة الأمر أن رجلاً باغت زوجته في فراش عشيقها.

وفي اليوم التالي كتبت جرائد عدة عن أحمد العسقلاني، وكان من بين ماكُتب مقال للواء في الداخلية تحت عنوان جذور الوهن، والذي جاء فيه: ليس حقيقيًا أن وظيفة ما لطبيعتها المهنية، هي التي أفسدت العاملين بها، لكن الحقيقة أن مجموعة من المرضى.. الذين حلموا أن ينضموا لهذه المهنة فقط كي تحقق لهم أوهامهم الشخصية، كانوا يتوقعون أن الالتحاق بهذه الوظيفة، ستجعلهم يفعلون كل ما يتراءى لهم بلا قيد ولا حدود، هؤلاء هم الذين أفسدوا وظيفتنا.. ربما ألحقوا بها العار بعض الوقت، وأعتقد أن هؤلاء هم مرضى.. من منحرفي السلوك، ولو أنهم ينتمون إلى وظيفة أخرى لأفسدوها أيضًا.. فهم فساد في حد ذاته، ولذلك ليس حقيقيًا أن السبب فيم أقدم عليه الرائد أحمد العسقلاني هي سلطته، لا هو مريض من الأساس، والسبب في مرضه مجموعة من الناس تعيش حوله،

سكتوا..وصمتوا ..على أفعاله وأفعال أمثاله فتآمروا معه حتى شعر أن أوهامه حقيقية ومرضه أصبح تراتيلاً تقدس ويصلى بها... ولذلك أرى حتمية تطهير وزارتنا من مرضاها، أحمد وأمثاله.

وحكم على أحمد بالسجن ثلاث سنوات، وأصدر قرار من الداخلية بفصله نهائيًا.

"ليس هذا ما نشرته الجرائد فحسب بل هذا ما حدث بالفعل".

بعدما خرج حاتم من المستشفى وتماثل للشفاء لم يكن أمامه هدف سوى نرمين، غره الهيكل الواقع عليه طراز منزلهم.. ومنصب أبيها، رغم أن لنرمين هيكلاً من الجمال العجيب يشيب منه أي رجل أو وليد، وفضلاً عن جمالها كانت تتمتع نرمين بنوع خاص من الجاذبية، ودلال أنثوي راق ينم فورًا عن نشأتها الأرستقراطية، لكن حاتم كان ينظر لما خلفها.. وظل يتعقب خطاها مرددًا لها كلمات الحب والولع والاشتياق، وفي كل مرة تقترب منه نرمين يبعدها عنه مستواه المالي ويقلقها، حتى قالت له صراحة:

- حاتم أنا لا أعترض على شخصيتك أو عائلتك، لكن دعنا نكون أكثر واقعية ألم تنظر لنوع سيارتك ومستوى شقتك التي ستنقلني للعيش فيها، كيف أهبط كل هذا المستوى يا حاتم..

- لا تنسي أنني في بداية حياتي..

- لا أنت في منتصف الطريق، ولا يجب أن تكون كل ممتلكاتك هي الطبنجة التي في حزامك، وجهاز اللاسلكي.. الذي أصبح مع عمال الحفر والمجاري، يحدثون به بعضهم أثناء العمل، أنت مهتم ومتمسك بأشياء وهنة مثل خيوط العنكبوت لا يقع أسيرًا فيها سوى الأعمى أو الضعيف، أما الأقوياء أنت بالنسبة لهم أضحوكة يا حاتم، فالقوة الحقيقية وهي المال.. بعيدة وبعيد أنت عنها..

- هذه مهنتي..

- نعم مهنتك.. أي دليل على اختيارك، فإما كنت تقصد ما أنت فيه الآن، أو كنت موهومًا ولا تعلم حقيقة الأمر، وفي كلتا الحالتين هذا لا يتوافق مع حياتي..

- وما بيدي أن أفعله كي أحتفظ بك يا نرمين.

- ابذل مجهودًا أكثر من ذلك.. خصوصًا وأنت ذكي جدًا يا حاتم، وأرى ليس أمامك سوى طريقة واحدة.. أنا مستعدة أن أعرفك على باسم.. دكتور باسم وأخته دكتورة مها أولاد خالتي.. وأصحاب مستشفى.. وهو يعمل أيضًا في حقل البيزنس ويساعده كثير من

ضباط أمن الدولة والداخلية وأعرف أنهم يتقاضون رواتب عبقرية..

- وماذا سأعمل مع طبيب وأنا ضابط؟

- لا أعلم.. تعرف عليه ثم قم بتقديم طلب لنقلك من الصعيد إلى مصر، خصوصًا أنك تقول إن أمامك فرصة للعمل في أمن الدولة هنا..

- لا أستطيع أن أترك الصعيد الآن يا نرمين..

عندما عاد حاتم إلى مركز شرطة ديرمواس، كان قد تحدث مع باسم وتعرف على أنماط العمل التي سوف يقوم بها والتي سوف يتقاضى عليها مقابلاً ماليًا ضخمًا، انفلجت شفتيه عن ابتسامته المعهودة.. المتدلى منها قراطيس المكر والدهاء والسخرية، وكأنه يخرج لسانه للقدر والزمان، وقد قرر.. أن ينسى سعيد وكل ما يتعلق به، و تنفيذ كلام نرمين بالحرف.

اتصل بطارق ليبلغه قراراته الجديدة، ويعرف منه ما سوف يفعلانه مع أحمد ابن خالتهما، في هذه المشكلة التي ورط نفسه فيها، طلب منه طارق أن يقابله في المنيا بعد ساعة، كما طلب منه أن يمر على مركز شرطة أبي قرقاص ليحضر له باقي متعلقاته وأشياء سوف يعطيها له صديق هناك، أكد له حاتم أنه في خلال ساعة

سيكون عنده ، بعدما يمر على مركز شرطة أبي قرقاص ليحضر له باقي متعلقاته.. وعندما دخل حاتم شارع مركز شرطة أبي قرقاص، الواقع أول البلد من الجهة القبلية، والذي أصبح مقتظًا بالدشم، وكثيرًا من نقاط حماية حصينة، ومجرد ما دخل الشارع.. وكان على بعد١٠٠متر من مركز الشرطة، صرخ فوقه مجند مختبئ داخل دشمة: ثابت.. ثابت..

وثابت كلمة مشهورة وقتها، يستخدمونها العساكر والمجندون الواقفون في الدشم، لتثبيت الأشخاص المشتبه فيهم، أو لو لمحوا أحدًا في الشارع أثناء موعد حذر التجوال الذي فرض على البلد وقتها بعد الساعة ٧ مساء، ويقوم بتثبيته بالسلاح من أعلى وهو في الدشمة، ويقوم فورًا بالاتصال بالمدرعة تأتي وتأخذه، وكانت الأوامر للمجندين هؤلاء، من يثبت ولايقف يضرب فورًا بالرصاص، أما بعد حادثة اقتحام مركز شرطة ديرمواس، من مسلحين يرتدون زي الشرطة، أصدرت الداخلية أوامر للقائمين على نقاط الحراسة والتأمين، أنه لا يعتد بكلمة شرطة الكل يقف مجرد سماع كلمة ثابت من المجند، ولو ضابط يقف أيضًا يفصح عن هويته، لعدم تكرار ما حدث في ديرمواس، وما حدث أن العسكري كرر كلمة ثابت لحاتم لكنه تابع السير، فقرر العسكري كلمة ثابت بصوت أعلى وسمع حاتم صوت أجزاء الآلي وهي تسحب استعدادًا للضرب، فأشاح له بيده في حدة:

- شرطة يا بني آدم .. شرطة..

- ولو شرطة ثابت ..ثابت في مكانك..

- أقول لك شرطة يا حمار..

واستمر حاتم.. ولم يبعد متر والآخر حتى انطلقت الأعيرة النارية بغزارة من بندقية المجند صوب حاتم، مفجرة بقعًا من الدم على هيكل السيارة والرصيف، وأصيب ذراع حاتم بجرح خطير..

وهكذا أصبحت الداخلية لا ترى أمامها ولا خلفها؛ حتى بدأت تضرب في بعضها، أما الجندي الذي أطلق الرصاص على حاتم، كافأه مدير أمن المنيا فضلاً عن ترقيته، ولا يستطيع أحد ينكر هذه الواقعة، ولا حتى يستطيع نسيانها.

وبهذه الواقعة رمى حاتم الصعيد خلف ظهره ونقل إلى مقر أمن الدولة في مدينة نصر.

شعر طارق بشدة الاختلاف المادي، بعدما نُقل إلى المنيا، يريد تنفيذ أمرًا ما بمساعدة ماجي صديقته، لكنه لم يجد الطريقة

المناسبة، كي يقنعها بالأمر، واليوم كان يضحك من أعماقه.. وهو عائد بعد ما قام بتوصيل ماجي إلى المدينة الجامعية، والتي رحبت بفكرته دون أدنى جهد، ولم تقل له سوى كلمتين: أنت ضابط وتحمي الناس ومن المؤكد أنك ستحمي ماجي صديقتك.

وبعد الفجر بنصف ساعة، كان طارق وماجي أمام محل ميمي، وقف طارق بسيارة الشرطة في أول الشارع مداريًا المحل، وفتحت ماجي المحل.. وفي خلال خمس دقائق.. انتهت ماجي وأغلقت المحل، وعادت لطارق ومعها المفاتيح وعددًا لا بأس به من كروت الشحن والتي كانت تأخذها وتقوم ببيعها لزملائها.. ..

أدرك سعيد تمامًا خلال الأيام القليلة التي قضاها مع لي لي في الإسكندرية أنها إنسانة نادرة الحدوث ترك نفسه لها تمامًا، أو كانت مخططاته أقل مقاومة لكل الجليد الذي سكبته لي لي فوق نيرانه المتوهجة. أقاموا في فلة رامي ما يقرب من أسبوعين، نسي خلالهم كل المرارات التي رآها في المنيا ، كانت تجلس أمام وجهه يحدثها وكأنهما اتفقا أنهما حقًا يجهلان لغة بعضهما البعض لكن القلوب فهمت تمامًا ما يشعرون به، بدأت تعلمه الفرنسية بعدما قال

لها:

- إني أريد أن أحصل على الدكتوراة في إدارة الأعمال من باريس..

- حصولك على أية شهادة لا يتطلب منك سوى إتقان الفرنسية واترك لي الباقي.. فأنت سوف تأتي معي لباريس كما وعدتني.

خلال أيام قليلة كان قد رتب سعيد كل خطوات العمل، قبل ما يذهب إلى السفارة الفرنسية ويتزوج من لي لي، مثلما تزوج رامي من دانيلا، وعندما لمست الطائرة أول شبر في مطار باريس شعر أنه حقق نجاحًا لا يستهان به، وأنه وضع قدمه على أول سلم المجد والذي يصعب تحطيمه.

طالت فترة غياب ماجي في الإسكندرية، مما اضطر طارق أن يذهب لمحل ميمي، في نفس الموعد فاعلاً ما كانت تفعله ماجي، لكنه عندما وضع المفتاح في باب المحل ارتعشت يده، وارتبك.. ارتبك أيضًا عندما دخل المحل.. ولم يأخذ من الكروت بحرفية مثلما تفعل ماجي، كما أخذ جهازين محمول وكل السيولة النقدية المتواجدة في الخزنة، وفي الصباح تلقى طارق مكالمة تليفونية من ميمي، وهو يستغيث به:

- اتسرقت يا طارق بيه.. البنت التي تعمل عندي سرقتني.. سرقت أكثر من مائة كارت شحن ومبلغًا كبيرًا من الخزنة وذهب زوجتي، وعشرة أجهزة محمول.

- كل هذا يا ميمي..

- ومحتمل أكثر.

- ولماذا أنت متأكد أنها هي؟

- الشرطة.. أصدقاؤك يا باشا هم الذين قالوا لي لم يسرقك إلا واحد معه مفاتيح المحل والخزنة..

- لا تقلق يا ميمي، سأتابع التحقيق وأعدك أن أشياءك سوف تعود لك ..

بعد يومين كان طارق جالسًا مع صديق له، والمسئول عن التحريات التي طلبتها النيابة أثناء التحقيق، وعندما سأله طارق عن

التطورات.. قال له الأمر بسيط فقد عرفت أن موزع الشركة يكتب أرقام الكروت التي يعطيها للمحلات، وقد أخذ منه ميمي أرقام الكروت المسروقة، وسوف يستصدر وكيل النيابة أمرًا للشركة بمتابعة أرقام هذه الكروت.

ارتعش طارق وهو يقف من أمامه وينصرف، فقد قام طارق بشحن موبايله وموبايل ماجي من نفس هذه الكروت، كما قامت ماجي ببيع الكثير منها لأصدقائها.

نظر سعيد حوله رامقًا لي لي وهي تتحرك في بيتها الذي يشبه القصر، متأملاً رقتها في نفسها وفي كونها الداخلي والخارجي ملابسها كلماتها عطاؤها، قام بتفحص المكان يشاهد الستائر الوثيرة الفخمة، والتكيفات الحديثة شعر أن كل الأجواء هنا المحيطة بـ لي لي بريئة ونظيفة إلا هو متسخ.. متشرخ.. مهزوم، كان لا يزال يشعر أن أحدًا يراقبه.. سوف يقتله، الدنيا كلها سوف تنفجر به وتجعله شظايا، كره يومه وغده.. كل الأشياء الفارهة من حوله..

لعن ضعفه وهو لا يستطيع حبس الدموع الآن.. وربما تسأله هي لماذا تبكي، رأى دموعه تتساقط أمامه.. يراها تقع منه مثل حبات النار، كره دموعه ولعنها لا يفكر إلا في الانتقام في كل وقت ومن كل شيء.. بصورة مستمرة، وكلما نجح وتقدم كلما انتقم.. وكلما انتقم يشعر أنه مهزوم أكثر وأنه ميت تائه بين الأحياء.

عادت إليه لي لي.. نظر إليها وهو يقول لنفسه: ماذا تكون الحوريات في الجنة إذن؟! بعد كل هذا الجمال الماثل أمامي.

رفعت يديها ولفتهما حول ظهره وأخذت يده ووضعتها على خصرها بعدما شغلت موسيقى كلاسيكية ساحرة، شعر أنه جائع وظمآن وأمامه الشراب والطعام الفاخر، وأسود واقفة أمامه تقول له إذا أكلت قطعناك إربًا، يود أن يستسلم ويلقي نفسه في بحيرتها العذبة، فمؤكد سوف تطهرني من ماضيَّ وضعفي وجرائمي، مؤكد أنني سوف أرتاح في ثنايا هذه العذراء الفاتنة، لكن أخاف أن ترى يومًا سعيد الحقيقي، فتلعني وتلعن ذكري..

أخذ يتذكر كلام عبد الحي عن النساء والحب.. وهو يقول لنفسه أيضًا.. مؤكد أنه صادق فقد صدقت رؤياه في كل حرف قاله، وتحذيره من الحب شيء منطقي فلابد أن لا أقع أسيرًا لشيء.

ابتعد عنها وكأنه يبتعد من مرض معدي، فاقتربت منه لي لي تقبله.. دغدغت جسده راح وسافر.. بدأ يشعر أن شيئًا يقع من فوق

أكتافه، ارتمى فوق المقعد نامت بين قدميه.. تخلع له حذاءه.. أمسكت يده وهي تقبلها برقة ثم جلست بين فخذيه.. احتضنته بشدة وهي تقبله، لكن يبدو أن ما بداخله كان أقوى.. فقد استطاع أن يحطم ويلغي من بين يده الحضارة الفرنسية العريقة التي شهد لها كل من يعرف ما هو مذاق النساء الحقيقي، لم تغضب أو تثور بل وكأنها كانت متوقعة.. فهي تعلم أنها أحبت إنسانًا يعاني من وهن بين ضلوعه النفسية، وأن هناك سفينة غرقت مؤكدًا في شطآنه، حتى أصبح هيكلاً لا يحتوي إلا على غرق وأموات.

نظرت إليه وقالت: لا تبالي.. أنا لا يهمني سوى أن أكون بجانبك، يهمني فقط أن تكون مسرورًا، وأرجو يومًا يأتي تعرف فيه أنه لن يحبك أحد مثلما أحببتك فارم بهمومك عندي وانظر لما سوف أُفعله معك، كما لابد أن تعلم أن الأمر قد انتهى وقد ربطٌ مصيري بك.. وحياتي بجانبك فافعل كيفما شئت، فغضبك مني أو بعدك عني هكذا معناه الموت.. الموت وانظر أنت واتخذ قرارا بحياتي أو موتي يا سعيد.. اجعلني أموت لأني أحبك وأريد أن أقدم أي شيء من أجلك افعلها، وأنا لن أحزن لأني مت رغبة في إسعادك، إسعاد الإنسان الذي لم أحب غيره، كي تعلم لو أن هناك من جرحك يومًا، فهناك من تريد أن تموت من أجلك، وهكذا هي الحياة فصول مختلفة، فنحن لا نعيش في شتاء دومًا أو صيفًا دائمًا، وإذا كان يومًا خذلك القدر فضعفت، فأنت الآن ملك وقوي، وأميرة هنا نائمة بين

قدميك، فعد لي وارتم في أحضاني، وصدقني لن تجد حضن لك مثل حضني، فالحب إذا صدق فهو سلاح لا يهزم ولا يقهر إلا إذا لم يخلص له صاحبه، ثم ارتمت بين ذراعيه وهي منهمرة في بكاء أجش.

في مساء اليوم الثاني كان سعيد في عيادة كبيرة للعلاج النفسي بصحبة رامي، حكى له عن حالته ورغبته غير المنقطعة فى البكاء بصورة مستمرة وفي أي وقت، سأله الدكتور بعض الأسئلة المتعلقة بحياته، وعن بعض النقاط.. علم الدكتور أنه يخفي عليه شيئًا ما، صمت لم يرد أن يضغط عليه.. ثم قال له:

- أنت تعاني من اضطراب في السلوك، فضلاً عن أنك على مشارف الاكتئاب، ولابد أن تتبع خطوات العلاج كاملة وسأراك بعد شهر، واندمج في عملك ومع زوجتك واعلم أن الأمر إذا ما تفاقم أكثر من هذا، سيتحول لرغبة وتفكير فعلي في الانتحار.

ضحك سعيد.. اندهش الدكتور وهو يسأله:

- لماذا تضحك؟!

- لأنك تقول سوف يتحول إلى...، إنه تحول بالفعل يا دكتور فأنا لدي رغبة ملحة وتفكير فعلي في الانتحار..

وانصرفا ولم يترجم رامي هذه الجملة للطبيب.

ثم خرجا ليذهبا إلى مكان يتحدثا فيه عن خطة العمل القادمة

ركبا المترو.. جلس سعيد بجانب رامي. في المحطة التالية.. ركب آخرون من بينهم ضابط والذي لم يجد مقعدًا شاغرًا فوقف، أخذ سعيد يتأمله مليًا.. ثم سأل رامي:

- أهذا ضابط؟

- نعم ..ضابط شرطة..

لم يعتر سعيد اندهاش لمثل هذا الحد قبل ذلك، وهويسأل بينه وبين نفسه في حيرة، معقول هذا ضابط شرطة.. وما هؤلاء الناس الذين يجلسون في لامبالاة، وكأنهم لايرون ضابط شرطة واقف هكذا، وهو لماذا لم ينهر أحد منهم ويجلس، ثم بدأ يشك في الأمر فراح يسأل رامي مجددًا:

- أنت متأكد أن هذا ضابط شرطة؟!

- نعم ..لماذا تسأل هكذا.

- ألم ترَ... ضابط شرطة وواقفًا عادي هكذا بيننا والناس تراه واقفًا ولن تفعل شيئًا له.

- وما الغريب في هذا.. كما أنه يمكن لك أن ترى هذا المشهد في بلدنا أيضًا.

- في بلدنا مصر! في مصر يفكرون جديًا أن يجعلوها ديانة جديدة.

قضى طارق يومين من ألعن أيام حياته، وهو يتجول بأفكاره في كل الاتجاهات فلا يجد مخرجًا من هذا المأزق، وعندما رن هاتفه المحمول نظر فوجد اسم ميمي محمول شعر أن أمره قد انفضح فأجاب على ميمي والارتباك ظاهرًا في كلماته:

- أهلاً يا ميمي ..إيه أخبار من سرقتك يا خايب.

- البنت بتنكر،.. وأنا منتظر والبركة في سيادتك .

- وسيادتي سيقول لك شيئًا لاتتوقعه انس يا ميمي الأمر برمته، واذهب للبندر وتنازل عن محضر السرقة الذي قدمته.

- ماذا تقول يا معالي الباشا!!

- اسمع ما أقوله لك لصالحك يا ميمي..

- أمرك يا باشا.. لكني أريد أن أفهم؟!

- لا تفهم نفذ هذا لمصلحتك أنت يا ميمي، فإذا استمر

المحضر سوف تخسر كثيرًا ولو كنت ترى الأشياء التي سرقت منك كثيرة عليك، خذ ثمنها مني.

- لا يا باشا... العفو..
- إذا كنت تريدني أن أظل صديقًا لك وافق على ما أقوله، واشتر رضائي أفضل من عدائي لك يا ميمي.

في صباح اليوم التالي ذهب ميمي للقاهرة لمقابلة صديق له، والذي يعمل في نفس الشركة التابع لها كروت الشحن وبطريقة ودية تابع صديقه أرقام الكروت، والتي وجد بعضها قد تم شحنه بالفعل في هاتف..... يحمل شريحة رقم.... باسم ..... وهكذا أخبره بأسماء ماجي وطارق و ...وحاتم وآخرين ممن باعت لهم ماجي الكروت.

وبمجرد رجوع ميمي من القاهرة ذهب للبندر، وطلب مقابلة ضابط المباحث المتابع أمر سرقة دكانه، وعندما وقف أمامه، قال له: أريد سيادتك أن أتنازل عن محضر السرقة الذي قدمته.

شعر طارق بنفس الشعور الذي شعر به من قبله أحمد ابن خالته وحاتم أخوه وهو يقول لنفسه: قد مللت من هذا الفيلم الساخر

الذي أعيشه داخل هذه البدلة الخادعة، تأكدت بماذا أحتمي، إنني أحتمي بسلطان زائف، سلطان على الضعفاء والفقراء فقط، أما الآخرون من رجال الأعمال والأثرياء، فأنا الضعيف والفقير إليهم، لأن السلطان والنفوذ الحقيقي هو المال والذي أفتقده الآن بقوة.

ولذلك وفي اليوم التالي مباشرة قام طارق بطلب نقله للقاهرة، بعدما ساء الأمر، وبدأ يقرأ في عين ميمي كيف يستغله مقابل غلق فاهه ولا يخبر أحدًا بما حدث.

ذاب حاتم سريعًا في منظومة العمل مع باسم، ونفذ ما يُطلب منه بجدارة، فلم يكن هناك أي عائق على المستوى: المهني والأخلاقي أو الشخصي، أن ينفذ حاتم كل ما يطلبه منه باسم، في الوقت نفسه ظل محافظًا على هيبته كضابط أمن دولة يسدي لنسيبه بعض الخدمات، ولم يجرح باسم ذلك الغشاء الناعم الذي وضعه حاتم بينهما، بل ظل يحرص عليه خصوصًا وأنه محتاج لخدمات حاتم هذه، فضلاً عن أنه من حين لآخر كان يخاف من بعض فلاشات المكر الذي تصدرها عين حاتم، ولذلك ظل مخفيا عنه

بعض الأشياء.

وبتدفق المال في يد حاتم، استطاع أن يرى ابتسامة نرمين الحقيقية: استطاع أن يرى دلالها الحقيقي بين خطواتها الراقصة الناعمة، استطاع أن يتمم زواجه منها: ونشرت كل المجلات الفنية صور زفافها مشيرة لسيادة السفير، وبعض الوزراء وبعض رجال الأعمال مما أكد لحاتم أنه فعلاً دخل بيت العمالقة.

كانت لي لي بالنسبة لسعيد كل الكنوز، وكل الأسلحة.. فسوف يحصل على الجنسية الفرنسية، وسوف يقيم في فرنسا وقتما شاء وكيفما شاء، وقد يستطيع ضرب وسحق طارق وحاتم وهو في منأى عنهما، كذلك لي لي وعكس ما كان يعتقد.. هي ثرية ثراء فاحشًا، وتعمل في مجال يحقق أرباحًا كثيرة، والأهم أنه قرر أن تكون لي لي أداة له في أشياء أخرى كثيرة، نظر له رامي:

- أنا لا أستطيع أن أصدق أن تتركها تعرض نفسها للخطر.
- لا خطر عليها... لم يشك أحد فيها مطلقًا... كذلك هي فرنسية ومشهود لها بالسمعة الحسنة.

- ألم تحبها يا سعيد بعد ما فعلت... وتفعل كل هذا من أجلك.

- أنا لم أحب يا رامي سوى ثلاث في دنيتي هذه ولا مكان في قلبي لغيرهم أبي وأنت وعملي... وكما تعلم يا رامي نحن نسير على حبل رفيع فوق مرتفعات شاهقة وأقل خطأ سوف نسقط ونلقى حتفنا فاذهب وافعل ما أمرتك به ولا تنسى أن ليس للعمل سوى قائد واحد .

- وما المطلوب مني تحديدًا أيها القائد المحنك.

- اذهب أنت ولي لي ودانيلا إلى مصر، ولا تقلق حقائبك ليس بها أي شيء، كل شيء في حقائب دانيلا ولي لي، وثق في كلامي لن يتعرضن لأي خطر فكل شيء مخطط له بدقة، وخذ حذرك لا تترك نفسك أكثر من ذلك لحب دانيلا..

- وما البرنامج المتبع في مصر.

- سنورد باقي الكمية التي طلبها منا جابر وسوف يعطيك شيئًا.. أثمن شيء ربما تمسكه يداك، تضعه في حقيبة لي لي وتجعلها تعود لي هي ودانيلا إلى باريس..

- وأنا.

- أنت سوف تأخذ باقي المال من جابر فضلاً عن مال آخر للتوريد القادم، ثم تقوم بسحب باقي اعتماد البنك.. كذلك سوف يعطيك أحد أولاد المازني مبلغًا باقيًا.. ثمن بضاعة سوف تصل إليهم.

- وماذا أفعل بكل هذا؟

- نكمل باقي إنشاءات الشركة ونفتحها وسوف نجعل فرعها الرئيسي في القاهرة واسم الشركة يكون لي لي.

- وماذا سيعطني جابر وأرسله لك مع دانيلا ولي لي؟

- أترى أنه شيء بحاجة إلى سؤال فماذا يعمل جابر في هذا المكان الأزلي الذي يعيش فيه؟

- في المخدرات .

- جابر تاجر آثار يا رامي.

أنجب طارق بعد مرمر حاتم، وكانت ديدي تطلق عليه ميمي، ثم أنجب سمر والذي كانت تطلق عليها ديدي توتو، هذا وقد فار جسد مرمر سريعًا فأصبحت بنهدين غليظين وأرداف سميكة، وكانت ديدي دائمًا ما تقول لها إن صدرك مثل المرأة التي تُرضع وقد ابتعدت مرمر عن دينا لأن ديدي أمها لا تحبها، وأجمل ما كان

يميز مرمر في هذه الفترة هوايتها، والتي تجعلها تجلس أمام التليفزيون أو الكمبيوتر تشاهد أفلامًا... أو تتحدث مع صديق لها في الهاتف وتتراخى وهو يحدثها في... وتستمع له في متعة وهي تلعب في بذارها حتى تنتفض وترتاح ثم تعمقت علاقتها مع زياد ابن خالتها والتي تذهب لبيتهم لتأخذ الدرس معه أو يأتي هو، ونشأت بينهما عاطفة ملتهبة.. تحولت بعد ذلك إلى ممارسات عنيفة وكأنهما رجل وامرأة في الثلاثين من عمرهما، وبالطبع تضجرت مرمر من طارق، بعد نقله من الصعيد إلى الجوازات في ميناء القاهرة الدولي، وحاول طارق تضييق الخناق على مرمر ومراقبة تصرفاتها وحديثها مع زياد وإن لم يفلح في تغييرشيء فقد كانت تستطيع مناورته جيدًا، لكنه ترك لها بعضًا من: الخوف والاضطراب والضيق منه الأمر نفسه الذي أصاب ديدي لتدخله في كل شيء ومحاولته لإصلاح أحوال كثيرة كان يرى أنها ستؤدي إلى كوارث، فلذلك أبدًا لم يمر مساء يوم أو ليلة إلا واندلع شجار عنيف بين طارق وديدي، والذي ينتهي في كل مرة بهذه الأفعال والكلمات التي تصدر من ديدي بعدما يفيض الكيل ولا تجد مهربًا من طارق، فتقوم من أمامه وهي تنتفض بجسدها الضخم الرجراج.. ونهداها يتقافزان أمامها.. فتفتح النافذة وتتحدث بأعلى صوتها: قسمًا بالله يا طارق إ ذا لم تنته: أو رفعت يدك ولمستني، لأتصل بالنجدة وأحرر لك محضرًا على الفور.

هذا لا يعني أن وقتهما كان خاليًا من بعض السعادة، لا.. فكثيرًا ما كان طارق يحفر السرير دقًا بمجدافه وهو يعلمها فنون جديدة في الفراش، خصوصًا عندما يكون الود واصلاً بينه وبين حماه اللواء نبيل.. والذي كان مازال رئيسًا لمباحث الأموال العامة، ولذلك أسماء كبيرة وخطيرة خرجت من هذا البلد بإذن من اللواء نبيل، أن يغادروا من مطار القاهرة.. فيؤشر طارق لهم.. بمجرد تلقيه الأمر من حماه الذي كان يحتفظ له بحقه المالي وأزيد.. وعلى يد طارق خرجت أسماء كثيرة من البلاد مثل سامي لكح، وتيمور إسماعيل، وأحمد عريس، وسعد محمد ،وكل كتبت الجرائد عنهم فعلوا كذا... أو أخذوا مال البلد وهربوا، دون السؤال عن شيء بسيط، كيف خرج هؤلاء وأسماؤهم مدرجة على قوائم الممنوعين من السفر، حتى نتذكر ذات مرة وصل الأمر أن اعترض ضابط أقل رتبة من طارق على منح تأشيرة مغادرة لواحد من هؤلاء، فاستدعاه طارق من مكتبه.. وجعل زميلاً له في شباك الجوازات يختم الجواز، ثم قضى أمره مع هذا الضابط.

كان المال العائد من هذه الطرق كلها التي فتحها له اللواء نبيل جعله يتقبل جنون ديدي وعبثها الذي يفكره بأمه، فضلاً عن علاقته التي لا تنقطع مع أخريات، التي انتهى بعضها بزواج عرفي، وأخرى بجواز رسمي وأنجب منها بنتًا أخرى، ولم يتلكأ طارق يومًا في علاقته النسائية، فقد كانت حقًا الفاكهة أو الشيء الحلو

الوحيد في كل حياته.

عادت لي لي لباريس كانت تعلم أنها فعلت شيئًا غامضًا، لكن ثقتها في سعيد، كانت تسمح به، حبها له جعلها منفذة لكلامه وأوامره دون تفكير أو تردد، ومجرد أن رأته ارتمت في أحضانه: كم مشتاقة إليك...

ثم جلست بجواره وهي تغير ملابسها.. وتحدثه:

- تتخيل دانيلا قالت لي إنها تشك إننا نحمل مخدرات وعملات مزورة، وقالت لي أنت ورامي تعملان في تجارة الآثار .

- وماذا قلتي لها ؟

- بالطبع ضحكت ولم أصدق فأنت الكتاب الذي تتعلم الناس منه الأخلاق والمحبة.

وإذ بها تسمع صوتًا أنوثيًا آتيًا من خارج الغرفة... ثم دخلت عليهما فتاة في العشرين من عمرها فرنسية الملامح عارية.. ملتف حولها فوطة حمام كبيرة وهي تجفف شعرها، وعندما رأت لي لي اعتذرت وغيرت ملابسها بسرعة وخرجت، لم تستطع لي لي أن تصدق ما يحدث أمامها.. نظر إليها سعيد:

- قبل أن تتكلمي وتثوري.. أعلم ماذا ستقولين .. إذا أردتي أن أترك البيت حالاً وننفصل سوف أفعل.

- نعم اترك لي المنزل واذهب.. اذهب من حياتي كلها، فأنت حقًا لا تستحق ما أفعله من أجلك، لا تستطيع أن تلمسني يا سعيد أو تقترب مني ثم أجدك مع عاهرة.

- هي ليست عاهرة... إنها سكرتيرتي الجديدة وهي التي تسللت لمخدعي.

- أي مخدع هذا يا سعيد..غرفة زوجتك وبيتك التي وعدتني أنك ستحافظ عليه مدى الحياة.. اخرج أرجوك وتذكر.. فقط أني أردت أن أشفيك من مرضك.. أردت أن انتشلك من ويلاتك ومدنك الخربة التي تشتعل فيها النيران لكن يبدو أنك ضعيف، أو هن من أن تفيق من غيبوبتك ...

صفعها على وجهها وقد اشتعلت نيران الغضب بداخله :

- تقصدين بمن الضعيف أنا؟ ماذا تعلمين عني أنتِ...أنتِ لا تعلمين عني شيئًا.

انفجرت دمعاتها ..والكلمات تقع منها بغزارة:

- غضبت عندما قلت لك ضعيف ضربك لي أكبر دليل على ضعفك.. نعم أنت ضعيف... حتى عندما أردت أن تصلح ماضيك.. جعلت نفسك ثمنًا... وفتيلاً يشتعل حريقًا لتأكلك قبل ما تأكل غيرك، أنت تهرب يا سعيد.. .. ..

انتابتها حالة هيستريا مخرجة كل ما في جوفها مما رسمته منذ أن رأته وحللته:

- أنت تهرب يا سعيد معتقدًا أنك تحارب، أنت إنسان لا يسكن بداخل نفسه.. بل جعلتها متسولة على الأرصفة وممرات الضياع، فالتفوق والنجاح، حتى الانتقام له نظام وشريعة، وأنت للأسف آت من عبث وقذارة أنت.. ماذا تفعل.. تلعن قانون الغابة ترسم لنفسك صورة ملاك وضحية وأنت تريد أن تكون حية كبيرة تتلوى تلفح كل ما يقابلها، تلعن نظام الغابة يا سعيد أم تريد أن تكون سيدًا فيها، من خلال نفس قوانينها التي كرهتها، إذن ماذا فعلت أصبحت حيوانًا أيضًا لكنك أقوى بعض الشيء وأخيرًا وحقيقة الأمر أنت كشعب ضائع لا يحارب الغابة لكنك تريد أن تصبح قويًا فيها، ولذلك ستظل هاربًا يا سعيد، ستظل تضحك على نفسك وتضحك عليك الناس وكأنهم يشاهدون قردًا في سيرك.. اخرج يا سعيد... اخرج الآن.

- سامحيني أرجوكِ.. لاولن يتكرر هذا مني مرة أخرى، وإذا كنتِ ترين أني لم أغرق بعد فارم لي بطوق النجاة ، فأنا أعلم ألا نجاة لي إلا مع شراعك.

اقتربت منه وهي ترتمي في أحضانه ،وقد بدأت تنخفض ثورتها وتهدأ: أنت لا تعلم كيف أحبك .. إن حبي لك وصل إلى حد التقديس.

ثم أعدت له العشاء تحت شموع خافتة، وجلست أمامه.. ينظر لوجهها وبريق عينيها وهو يقول لنفسه: مصر أن أتقمص دور العاشق معك فلا أحد يعلم ما مقدار أهميتك لي في هذه المرحلة.

تعرفت نرمين زوجة حاتم على الجنس من بابه الشرعي والحقيقي.. يوم دخلتها، فعشقته عشقًا رهيبًا، ومع مرور الأيام اكتشفت شيئًا غريبًا في زوجها: جسديًا فهو ينتهي معها في الفراش قبل ما تبدأ هي، ونفسيًا هو غير راغب إلا في إلقاء شهوته والسلام، لا يكترث بالمرأة التي بين يديه أو متعتها أو أي شيء من رغباتها، فتضجرت منه.. ولأنها مطلعة ومثقفة عرفت أين العطب، وطلبت منه الذهاب للطبيب لكنه كان يرفض.. ويرفض بطريقة ساخرة وكأنه يحدث عاهرة لا تشبع، لذلك كل يوم كان يزداد تقززها واشمئزازها منه ومن تصرفاته وأفعاله، وبدأت تحكي لأصحابها

وأبيها وأمها، وقد رفض والداها فكرة الطلاق نصحاها أن تحاول تغيره غير أن أبيها كان يشعر بحقيقة المعاناة التي تحاصر المرأة عندما تشمئز من طباع زوجها وسلوكه، كذلك بدأت تحكي نرمين لعمرو صديقها المقرب ومخرج برنامجها وكاتم أسرارها، واليوم عندما انتهت نرمين من التصوير دعاها عمرو ليتناولا الغداء معًا، وعمرو صديقها منذ الدراسة، يعرفها جيدًا مقدرًا ثروتها الثمينة الكامنة في جمالها وجاذبيتها كمذيعة،.. كما يعرف أنها يومًا ستصبح من ألمع مذيعات مصر والوطن العربي، ورغم ذلك.. ومنذ ما عرفها لم يستطع يومًا أن يقول لها أية كلمة بعيدًا عن حدود الصداقة، لأنه كان يرى الفارق بينهما في المستوى الاجتماعي، كما أنه كان يعرف جيدًا التطلع الرهيب داخل هذا النوع من النساء شديدات الحسن والجمال، واكتفى أن يشعرها كل يوم أنه صديقها الوافي، وأنه الشخص المستعد دائما أن يتعب حتى الموت كي تستريح هي، ولا مانع إن كان يصنع أي شيء ولو وضعه في مكانة الخادم أو الساعي كي يكسب رضاها، وتجعله يخرج لها برنامجها الخاص، وبالفعل رغم برامج نرمين المتعددة، لم يخرج لها أحد غيره، وحاز على ثقة بلا حدود منها فكانت تحكي معه في أدق أسرارها، ودائمًا تجد منه العون وحلاً لأية مشكلة، ولذلك هي لا تجد حرجًا اليوم ..وبعدما تناولا الغداء أن تحكي له عن أسرارها الخاصة وأدق المشاكل بينها وبين حاتم متوغلة في حياتها الزوجية

واصفة عذابها مع حاتم وأنها عادت لا تستطيع الاحتمال لدرجة أنها فكرت في الطلاق عدة مرات لولا أبويها.. ثم تطرقت لأسرارالفراش واصفة اشمئزازها من أداء حاتم وسرعة قذفه، والخلافات كل يوم بينهما بسبب هذا الأمر لأنه يرفض الذهاب لطبيب مكتفيًا بالأدوية التي يأخذها، والتي لا تصنع أي تقدم في حالته، امتد الحوار حتى قالت له حرفيًا: كدت أنفجر يا عمرو من هذه المشكلة.. فأنا امرأة لا تعتبر متزوجة، كما أنه فضلاً عن مرضه.. فهو خبيث وجبان، أنا أعيش مع ثعبان صغير.. ونحيف لكنه أملس وناعم، يتسلل إلى مخدعك حتى ينفث في جسدك سمه اللعين.

كان قد بدأ حاتم تلقي دورات تدريبية خارج مصر والتي يجلس بها قرابة الشهر، وعندما عاد هذه المرة وجد دكتور باسم يطلب مقابلته بإلحاح، فتركه حاتم بضعة أيام وذهب إليه.. كان العرض المالي المقدم من باسم لحاتم مغريًا، والمقابل كان ما أبسطه على حاتم .. لكن حاتم لم يبد ترحيبه بسهولة عندما قال له باسم:

- إننا نتعامل مع بعض الأشخاص، نشتري منهم أشياء

تخصهم... ونمنحهم الثمن، بعدها يحاولون استبزازنا وطلب المزيد خاصة إذا وقعوا في طريق واحد من الصحفيين.. فيهددونا باللجوء إلى الصحافة إذا لم ندفع... وليس من المعقول يا حاتم أن تقع في أسر هؤلاء المجرمين.

- وما المطلوب مني؟

- أن تحضر هؤلاء.. وتفهمهم أن ماأقدموا عليه جرمًا كبيرًا، ولابد أن يبتعدوا عنا ولا يحتكوا بنا لمصلحتهم أولاً... وأنت تفهم الباقي يا حاتم.

- وماذا تشتروا منهم يا باسم.

- تبرعات لمساكين يا صديقي ...

- فهمت.. إذن حقًا ما يقال.. أنت وأختك تعملان في تجارة الأعضاء من خلال مستشفى والدكما .

- ليست تجارة.. لكنها عمل خيري.. فليس هناك خطأ في هذا.

- الخطأ أن تطلب مني ما قلته الآن، فأنت تعرفني تمامًا

- حاتم أنت صديقي وقد أصبحنا عائلة واحدة، ولن أتأخر عنك في أي شيء تطلبه

لم تمر أيام قليلة وبدأ حاتم يستدعي الأشخاص الذي يخبره باسم بأسمائهم، وعندما يقف هذا الشخص أمامه ينظر له حاتم كصقر.. جائع وهو يقول:

- أنت تعرف فلان ....، وفلان ....

- نعم يا باشا.

- إذن أنت شريك لهم في كل جرائمهم، وسوف تشرفنا هنا كثيرًا.

- لماذا يا باشا.

- لأنهم مجموعة من الخارجين عن القانون، وكل ما يفعلوه سوف يُذهب بهم إلى السجن، وأنت تساعدهم على ذلك.

- كيف يا باشا؟!

- ألم تبع لهم ... مقابل مبلغ ..... إذن أنت شريك.

- يا باشا أنا غلبان ...لا أقوى حتى على قوت يومي.

- أعلم ولذلك أرسلت لك فأنت لن تحتمل المعتقل وعذابه.

- وماذا أفعل أقبل قدمك وترابها يا سيدي وتاج رأسي.

- تبتعد عن هؤلاء الناس نهائيًا، تمحو أسماءهم من ذاكرتك

- ولو حدثك أي أحد عنهم لا تقل غير لا أعرفهم أبدًا ولم أرآهم وأجريت جراحة استئصال لعضو تالف في جسدي.

- أوامر سيادتك يا فندم، ثق أن ما قلته سينفذ من الأمس وليس من اليوم .

ثم يخر يقبل يد حاتم ثم ينزل أرضًا ليقبل...

كان هذا هين على حاتم، يفعله وكأنه يشاهد فيلمًا كوميديًا،وما حدث بعد ذلك أن حاتم خلص باسم وأخته من هؤلاء، بينما بقي هو

ضاغطًا عليهما يؤرقهما أكثر منهم.

وبدأ حاتم بطريقته، وبغير أن يظهر في الصورة، يُعرف باسم على أشخاص يريدون بيع أعضائهم، ثم يتابع هو ذلك باستدعائهم مكررًا نفس السيناريو، لدرجة أنه فهم الكثير عن تجارة باسم وعلاقته خارج مصر وداخلها وبدأ يتعرف على شركاء له، وعندما كان جالسًا يومًا مع باسم في مكتبه، سمع صوتًا نسائيًا يستجير من خارج المكتب، وعندما وقفت أمام باسم، كان يحاول فهم ما يحدث وباسم يحدثها:

- ماذا تريدين يا سماح؟!

سماح واحدة من زبائنه، وسماح نعرفها جميعًا، سوف تجدها في إشارات المرور، وفي الأسواق أمامها سبت صغير به ليمون.. سوف تجدها أمامك في أوقات... وطرقات كثيرة، فسماح في بلدنا اليوم أكثر من عشرين مليون شخص، و منذ بضع سنين شيء يمزق سماح يقطع أحشاءها، لم تكن ندرة الأكل.. أو النوم في الشوارع، أو مرض أبيها...أوتسول أخواتها، عجيب فما كان يألمها لحد أنها لا تستطيع الاحتمال، رغبتها المزمنة في الزواج.. باتت تحلم ليل نهار أن يكون لها طفل، ترتدي فستانًا أبيض ورجل تعيش معه في فراش أحله الله، وعندما وجدت رجلاً يتمسك بها، فعلت كل شيء هي وهو ليتمما هذا الزواج.. دون جدوى، حتى دلها السمسار المشهور والذي يطلقون عليه في بلادنا الدكتور.. وباعت

سماح كليتها، وقبضت الثمن، وقد غمرتها لذة وفرحة لم تذوقها من قبل، شعرت أن صحتها أفضل عن مما كانت كليتها معها. وأن الدنيا كلها سوف تشترك في زفافها، ونزلت تشتري جهازها.. كل كوب... أو حلة تشتريها، كانت بالنسبة لها أغلى من كلية باعتها؛ فهي استطاعت أن تجمع حبيبها معها تحت سقف واحد، وسوف تكون عروسًا.. وغدًا أمًا، كانت تجعل جيرانها يشاهدون جهازها.. وكأنها قد حصلت على نوبل في العلوم والآداب. وعندما أنجبت ولمست ابنتها فاطمة بين يديها، أدركت لتوها أنها أخيرًا قُيد اسمها في تعداد الأحياء فوق هذه الأرض، ولم تمر سوى أشهر قليلة، ونضب البيت من الطعام، وندر منه حتى بقايا الخبز، تتكسر جدرانه من صرخات فاطمة وجوعها، عادت سماح تتمزق كلما أمسكت ثديها واعتصرته دون جدوى كانت تريد أن تقطعه من جسدها لجفافه، باعت جهازها.. كل حلة كانت تبيعها، تشعر أنه اليوم فقط تبيع كليتها ،كانت تبيع... وتتألم وتبكي، لكنها... تطعم ابنتها وزوجها، وعندما نفد جهازها... بيتها هاوٍ إلا منهم هم الثلاثة،.. لاشيء يحدث سوى الجوع والشجار... وصرخات الرضيعة، وكل يوم تبحث عن السمسار - الدكتور- كي تأخذ باقي حسابها لا تجده. وفي صباح هذا اليوم، والذي لم تغمض لها جفنًا خلال ليله، من صرخات ابنتها، قررت أنه لا مفر.. سوف تبيع كليتها الأخرى .. سوف تبيعها، وقالت لنفسها: هذه المرة لن ألمس

الفلوس، سوف أجعل زوجي يشتغل بها.. يشتري خضارًا ويبيعه.

ذهبت لنفس المستشفى التي أجرت فيها الجراحة، وعندما وقفت أمام باسم، وحاتم ينظر لها، وباسم يخيب آمالها... وضعها أمام الموت مباشرة وهو يقول لها:

- ما تقولينه هذا... تخاريف، فنحن لم نأخذ منك شيئًا، كليتك كانت فاسدة فاضطررنا أن نستأصلها.

- يابيه.. أنا بعت كليتي في هذه المستشفى.

- أنت نصابة.

ثم.. نادى على الأمن... فألقوها خارجًا، خرج خلفها حاتم يتبعها، وهو يضع يده حول كتفها يحدثها:

- يا سماح ما تقولينه تخاريف حقًا... فأنت لا تستطيعين بيع كليتك، فالإنسان يستطيع أن يعيش بكلية واحدة، لكنه لا يستطيع العيش دون الاثنين.

- لا يا بيه... جربني أنا أستطيع أن أفعل أي شيء وأعيش بدون أي شيء من المر اللي إحنا شربناه.

- ستموتين يا سماح... اسمعي الكلام.

- أموت أحسن ما تموت ابنتي مني.

- لن ينفذ لك أحد ما تقولينه، لكني سوف أعرض عليكِ شيئًا أفضل، بدلاً من أن تبيعي أنت كليتك وتموتي ابحثي بين جيرانك ومعارفك، عن أحد يبيع.. وستأخذين نصف ما يأخذه هذا أفضل أم

تبحثين عن حقك الذي أكله منكِ السمسار الذي تقولين عنه.

- صحيح يابيه.. من بكرة هتلاقي طابورًا أمامك

- لا.. خذ ي هذا الرقم واتصلي بى.. اتفقنا.

- اتفقنا يابيه.. بس أعطني أي شيء الآن ولو قليل؛ أشتري علبة لبن للبنت.. أحسن دي هتموت من الجوع.

- لا يا سماح.. لو فعلت هذا... أضرك لأنك لو أخذتي مالاً الآن ستتأخرين في تأدية عملك!!

ولم تطل الفترة الزمنية بين حوار حاتم معها، حتى نفذت سماح المطلوب منها على أكمل وجه.. وكان لديه طبور من المتبرعين.

لم يتغير أحمد العسقلاني ظل مهووسًا عربيدًا، عمل في شركة حراسة بشارع الهرم.. يرأس مجموعة مكونة من سبعة أفراد يقومون بحراسة أشخاص، ورغم الكثير من الشخصيات المطلوب حراستهم كان أحمد متخصصًا في حراسة الفاجرات والراقصات.. من أجل المتعة والمال الذي يغدقونه عليه وعمل أحمد في هذه الفترة مع الكثيرات مثل تيتي عبده، وسوزي، ولينا.. ولا

مانع أنه نزل عن هذا المستوى قليلاً، ورغم أن أحمد عمل مع بعض من رجال الأعمال إلا أنه لم تتوغل علاقته بهم إلا عندما عمل مع الراقصات اللامعات، فكان الرجال في هذه الحالة يعتبرونه كاتم الأسرار وأحد الرجال المهمين لهم، وعرف أحمد من خلال عمله مع هؤلاء النسوة أسماء براقة ولامعة في مجالات عدة من السياسيين والحكومة والصحافة ومحامين، وقد عرض عليه الأستاذ رأفت مذكور محامي الراقصات المشهور أن يرفع له قضية في مجلس الدولة لإعادته للداخلية فقال له أحمد: وماذا سوف آخذ من الداخلية؟ وأخيرًا تعرف أحمد على الأمير هلال والذي تعود أحمد أن يتمسح في مجلسه، ويلبي كل أوامره قبل أن يطلبها، الشيء الذي جعل هلال يقرب أحمد إليه ويأتمنه على قضاء بعض الأسرار المهمة مثل مراقبة أحد مذكر أو مؤنث ومصالح من هذا القبيل. وأخيرًا طلب هلال من أحمد أن يرشح له أحد معارفه ليسند له مهمة كبيرة، بعدما قرر نقل مقر مجموعة شركاته هنا في مصر، ويريد ضابط حراسة يرأس شركة خاصة لحراسة هلال وشركاته في مصر، وبالطبع هذا عرض مغري لأي أحد، استند أحمد للخلف وهو يشعل سيجارة وبعد قليل أخذ نفسًا عميقًا وظفره كعادته وقال في تؤدة:

- وما نظام عمولاتهم ورواتبهم؟
- هو سوف يؤسس شركة خاصة به يكون نشاطها مقصورًا

على حراستي أنا وشركاتي فقط..

اندهش أحمد من هذا العرض المغري.. ثم قال: متأكد معاليك من هذا العرض فسوف أرشح لك خيرة ضباط الداخلية، وسوف يستقيل من أجل هذا العرض..

حدقه هلال بنظرة تعني الكثير.. ففهم أحمد أنه تجاوز الخطوط الحمراء، ووقف وهو يقول له: خلال أسبوع سوف يكون عندك هدية ثمينة من أخيك الصغير.

كان قد رحل اللواء نبيل من منصبه وافتتح مكتبًا للمحاماة في جزء من شقته بجاردن سيتي، يدير من خلاله مصالح عدة، لكنه لم يلبث كثيرًا حتى ثارت عليه بعض الجهات والأشخاص، لتورطه في بعض الوعود الذي لم يستطع القيام بها لأشخاص مهمين وذوي نفوذ وسلطان، هنا كانت قد انعدمت كل المصالح المادية العائدة لطارق من خلاله، بل بدأ يستدين نبيل منه، حتى وصل حجم الدين المقترض من طارق مبالغ كبيرة، وشعر طارق بالظمأ وندرة المال.. وجفاف الحياة، ولذلك لم يفكر كثيرًا عندما عرض عليه أحمد العسقلاني العمل مع الأمير هلال، وبالفعل لم تمر أيام قليلة وكان طارق جالسًا مع الأمير هلال يتفقان على حيثيات العمل، سوى طارق معاشه سريعًا وأصبح عميدًا متقاعدًا طارق الجبالي، وبدأ يؤسس في الشركة.... باع أشياء كثيرة فضلاً عن ذهب

زوجته، من أجل إقامة شركة الحراسة ،وانتهى من الأوراق والتصريحات، وقتها كان حاتم يحاول الاتصال بطارق ليعرف لماذا يفعل كل هذا، فقد استفزته تصرفات طارق وكتمانه... حاول أن يعرف من أحمد لكن أحمد لم يفصح له نتيجة أوامر طارق..فهو لا يريد أن يخسر طارق فهذا هو الشريك الجديد، لكن طارق خذل أحمد عند الاتفاق الجاد والصريح، فقد قال أحمد لطارق: أنا شريك بالنسبة في كل دولار تأخذه من الأمير هلال..

إلا أن طارق وقف وقد انتفخت جنبات وجهه:

- لماذا يا أحمد... يا ابن خالتي... سوف تأخذ مني إتاوة.
- لا هذا حقي.
- حقك يا أحمد مرتب مقابل شغلك ..غير كدة ملكش حاجة عندي.. كفاية بدل سيادتك ما تعمل في شركة حراسة شخص غريب سوف تعمل في شركة ابن خالتك.
- أعصابك.. فكر مرة أخرى يا سيادة العميد المتقاعد فهلال هذا أنا الذي أتيت لك به وبيدي أن أصرفه من حيث أتى.. ففكر جيدًا قبل ما تتخذ قرارًا، فإذا لم تنجح شركتك هذه أين ستذهب؟ إلى عملك الذي سويت معاشك به أم مكافأتك التي بددتها..
- وصلت بك الجرأة يا أحمد أن تهددني..انتهى الأمر يا أحمد لا راتب ولا نسبة.

كانت تستحم نرمين ...وهي شاردة...غائبة عن عالمها، تفكر في طريقة تخلصها من حاتم، بأقل الخسائر والفضائح الممكنة، كان هذا عندما سمعت هاتفها يرن بصورة متلاحقة، ارتدت بورنسها، وهي تخرج... عندما أجابت كان عمرو:

- ألو أيوا يا أستاذ عمرو.
- أنا بالقرب من المنزل، فهل ستأتين لتأخذي .C.D لمقدمة البرنامج الجديد.
- لا... لن أستطيع اعطه للبواب... وهو سوف يصعد لي به .

لم تمر خمس دقائق إلا وسمعت رنات جرس الباب، تفاجأت عندما فتحت فوجدت عمرو أمامها: معذرة فأنا لم أجد البواب جالسًا..

اندهشت وهي تأخذ الـC.D وتشكره، لكن عمرو لاحقها: معذرة يا مدام نرمين، في الحقيقة لا أعلم ماذا أكلت اليوم ليجعلني أشعر بخناجر تقطع في معدتي..

ثم أمسك بطنه وهو يتلوى:

- معذرة يا مدام نرمين... أتسمحين لي أن أدخل الحمام

- اتفضل يا أستاذ عمرو.

كانت واقفة وهي ترتجف أثناء تواجده في الحمام، لا تعرف كيف سمحت له بالدخول، فهذه المرة الأولى الذي يدخل إنسان أو إنسانة بيتها، سواء في وجود زوجها أو غيابه فهي تحافظ دائمًا على خصوصيتها، عندما خرج عمرو كان يمسك بشريط برشام في يده، وطلب منها كوبًا من الماء فأخذ قرصًا منه، ثم قال لها وهو يجلس:

- منذ بضعة أيام وأنا لا أستطيع النوم، من التفكير في مشكلتك مع حاتم بيه، ولن أهدأ حتى أجد لك حلاً فما يحدث معك هذا حرام... حرام .

كانت تشعر أنه ليس هناك مجال للحديث، فاختصرت في ردها لحثه على الانصراف: لا أحد يعيش دون مشاكل يا أستاذ عمرو وللحديث بقية.

اقترب منها: مشاكل! إلا أنتِ! كيف واحدة مثلك في مقدار جمالك وجاذبيتك ومهنتك وتكون حياتها في كدر متلاحق هكذا، ثم أمسك يدها فارتعشت وهي تسحبها منه بقوة.. ..

ولم ينته عمرو إلا عندما نفذ ما أتى به الآن، فمنذ ما حكت له نرمين عن مشاكلها مع حاتم وهو يخطط كي يتسلل لها من هذا الثقب موقعًا بها، وكل ما حدث الآن من موضوع الـC.D. وحجة

دخول الحمام وخلافه جزء من مخطط ظل يدبره منذ أشهرماضية حتى الأقراص الذي ابتلعها من أجل المغص، هي أقراص منشطة وفعالة لتأجيل القذف فترة طويلة حتى يجعلها تشعر بالفرق، ويحك لها في جرحها المفتوح، وعندما انتهى نظر لها وهو يرتدي ملابسه:

سأنتظر منك تليفونًا يا حبيبتي، منذ الآن لن أناديك إلا بحبيبتي..

نظرت له دون أن تتكلم وهي تحاول أن تستر جسدها العاري، والدموع تهطل من عينيها بغزارة..

دينا أصبحت كدرة نادرة، كلما شاهدها أحد حلم ولو في الخيال أن يرتبط بها، لذلك تدفق عليها شباب كثيرة متقدمين للزواج..عارضين قلوبهم ومناصبهم تحت قدمها، سمعت من معسول الكلام ما يكفي لحشو مجلدات كبيرة، ولم تصل كلمة إلى قلبها.. ولم تترك نفسها لهذا التيار مطلقًا، بل كانت تسمعه وتضحك ثم تبكي وتلقيه جانبًا، حتى عرفت هشام وقتها كان مدرسًا مساعدًا في نفس كليتها.. ولم يكن مثل كل من حاولوا معها ترفضهم فيتركوها، ظل ست سنوات كاملة يهرول خلفها، حتى بدأت ترى أنه تأثر كثيرًا.. وأهمل ماله ومستقبله بسببها، لم يصل الحب لقلبها

قبل ذلك أبدًا منذ كانت طفلة إلى الآن إلا على يد هشام، والمشكلة أنها أصبحت هي أيضًا تبادله نفس الجنون، تضخم قلبها وامتلأ به، وحتى صارت عيناها لا ترى في الدنيا إلا هو. وعندما جلست في صباح هذا اليوم بينها وبين نفسها وقد قررت أن تحسم الأمر، فهو يطالبها بالزواج بعدما تأكد أنها أيضًا تحبه، نظرت حولها.. للكون الفارغ من كل الأشخاص، تريد أن تحكي لأحد،.. أحد يعرف الأشياء كلها التي حدثت في حياتها، لم تجد.. خصوصًا في هذه الأيام كانت قد بدأت شهيرة فصلاً آخر من حياتها، فقد تعودت على الشرود والسرحان... أهملت الصلاة وخلعت الحجاب... وهجرت القرآن، وخف عقلها، طوال اليوم أمام التليفزيون أو الثرثرة في التليفون أو مع الجارات، وكل النسوة يهربن منها خصوصًا أنهن استأن من تدخلها في كل شيء يخصهن ويخص أزواجهن وأولادهن وربما أحفادهن.. ابتعدن عنها عندما تأكدن من عقلها الذي خف، كما بدأت شهيرة تنادي على دينا باسم منال، فتكون جالسة في البلكونة أو أمام التليفزيون وفجأة تصرخ: أين أنت يا منال..ا حضرِ لي كوب شاي.

تأتي لها دينا بشاي، تنظر لها شهيرة وهي تضحك كالمجنونة: شكرًا يا منال.

أما ما حدث في العام الأخير كان أكثر فظاعة، فقد بدأت شهيرة تتبول وتتبرز على نفسها، ورفضت أن يوضع لها الحفاضات

الكبيرة والتي تشبه حفاضات الأطفال لكنها مخصوصة لكبار السن، فكانت لتجذب انتباه دينا تتعمد أن تتبول وتتبرز لها في أماكن واضحة في الشقة أو في غرفتها أو بالقرب من الثلاجة، وكل مرة كانت تزيل دينا آثار هذا، ودموعها تهطل تملأ المكان.

بعد ذلك بدأت ذاكرة شهيرة تتلاشى ببطء وتدريجيًا فتنسى الأشياء والأشخاص. وزاد هذا دينا عذابًا ورغم أنها قد نست أشياء وأشخاصًا كثيرة لكنها لم تنس منال، مطلقَّة هذا الاسم دومًا على دينا أو لو اندمجت مع طفلة من أحفادها تقول لها بعد قليل، تعالي أو اذهبي يا منال، كما بدأت شهيرة تخرج من المنزل خلسة، وتتجول في الشوارع دون هدف ولا تعلم بعد ذلك كيف تعود للمنزل، وفي كل مرة كانوا يحصلون عليها بأعجوبة وآخر مرة قال الضابط لطارق: معذرة يا طارق بيه أنا أعلم ظروف والدتك وهي أيضًا في مقام أمي أعلم ظروفها الصعبة لكن نحن وجدناها وهي تتسول بإلحاح من الناس.

قامت دينا وهي لا تستطيع أن تتخذ قرارًا، بحثت عن أمها لم تجدها عاودت البحث في طابقي الشقة لم تجد لها أي أثر، اتصلت بطارق فورًا.

وهذه المرة وجدوها بعد ثلاثة أيام... وهي واقفة على باب سينما... بروكسي تتسول، مما أدى إلى هياج حاتم على دينا حتى كاد أن يضربها، تدخل طارق وأخذ أمه عنده وهو يقول لدينا: لأنك

لم تستطيعي الحفاظ عليها..

ولأن ديدي لا تطيق دينا وتَغير منها ولا تقبلها في منزلها، حتى مرمر التي كانت تحبها انقلبت على دينا منحازة لصف أمها، فلم تذهب دينا معهم وبقيت في الشقة وحيدة ، ولم يمر سوى يومين وتحولت الشقة إلى غابة مفزعة عليها، ولم تستطع دينا أن تنام أو تأكل... وخوف شديد يتملكها، وعندما قاومت وحاولت أن تنام، أشعلت كل إنارة الشقة... ثم دخلت غرفتها وأشعلت الإضاءة، وألقت بنفسها على الوسادة.. كادت أن تتسلل إلى النوم، فقد كانت متعبة ومجهدة.. إلا أنها فجأة سمعت نقرًا على باب حجرتها من الخارج، تشبثت مكانها لم تستطع أن تتحرك أو تحرك حتى لسانها لتصرخ، زعرًا رهيبًا هجم عليها، وهي تنظر حولها.. تقول لنفسها لا يوجد أحد في الشقة نهائي.. من يطرق باب حجرتي من الخارج، حاولت أن تحرك لسانها جاهدة.. انطلقت الكلمات: من بالخارج؟ ..من؟ من؟

قامت مذعورة تفتح الباب لا تجد أحدًا، بحثت في كل مكان.. فتحت باب الشقة لم تجد أحدًا، لم تستطع العودة للشقة مرة أخرى، ظلت جالسة على سلم العمارة حتى جاء الصباح... وقتها كانت متكئة على حائط السلم وقد أسلمت نفسها للنوم ،عندما شعرت بصوت باب الأسانسير يغلق.. قامت سريعًا واندست بداخل الشقة من جديد.

عندما عاد سعيد إلى مقر شركته في القاهرة، كانت مظاهر التغير قد بدت عليه، فقد صبغ شعره باللون الأسود القاني، وركب في عينيه عدسات لاصقة سوداء وأطلق شاربه.. وكان يتكلم دائمًا بصوت أجش متصنع، كما كان يضع منديلاً ورقيًا أو قطعة قماش صغيرة حول عضوه، قبل ارتداء غياراته الداخلية، حتى يظهر أثناء جلوسه أن له قضيبًا ضخمًا ملتويًا بين فخذيه، كما كانت عادته الدائمة، أن يمسك عضوه من خارج البنطلون، أثناء حديثه مع أحد.

رغم كل هذا التظاهر، كان ومازال يشك في نفسه وفيمن حوله بطريقة تجعله يود أن يقتل نفسه، فعندما يجلس مع أحد يظل ينظر لعينيه، ثم إلى موضع عضوه.. سوف ينتصب قضيب هذا الرجل.. أو يشتهيني، سوف يفكر في بطريقة أخرى، كان يعتقد في الكثير ممن يجلسون معه أنهم يريدون أن يفعلوا فيه..

ومن جانب آخر اعتاد سعيد أيضًا على إطلاق الشائعات، فعندما يجد امرأة فاتنة، أو رجلاً معجب به الكثير ممن حوله،

فيقوم بإطلاق الشائعات على زوج هذه الفاتنة أو هذا الرجل اللافت للأنظار، بأنه شاذ جنسيًا.. وكثيرًا ما تنتهى هذه الشائعات بكوارث، وطلاق الكثير من الأزواج، ولم يبخل مطلقًا بدفع أي مبالغ لترويج شائعاته.

طلبت نرمين من مدير البرامج في القناة أن يستبدل عمرو بمخرج آخر، ولم يأخذها به أدنى نوع من الشفقة أو الرحمة، عندما قال لها مدير البرامج:

- كيف يا مدام نرمين..أنت تعلمين ألا أحد يرحب بوجود عمرو في القناة إلا من أجل برنامجك وتمسكك به، ومعنى استغنائك عنه أنه سيطرد من القناة إلى الشارع..

- أرجوك افعل ما أقوله لك.. ويفضل أن تختار لى مخرجة لسهولة التعامل بيننا.

ثم انتهت المكالمة.. ووقفت تنظر لنفسها في المرآة.. فترى

ملامحها الجميلة قد تبددت وقوتها وشموخها لاأثر لهم، اقتربت أكثر من المرآة وهي تقول لنفسها: خطيئتي الكبرى هى اختياري لحاتم زوجًا جعلت مني مجموعة من الخطايا تقف على قدمين.. ثم اندفعت عيناها بسلاسل من الدمعات المتلاحقة.رن جرس الهاتف.. تحركت نحوه وهي تقول لنفسها: مؤكد هذا الحقير، سيطلب مني أن أرجعه لعمله، متوقع أنه سوف يذلني بما حدث..

قررت أن تعامله بمبدئه، وألا تشعره أنها خائفة منه أو من أن يفشي لأحد ما وقع بينهما.

وعندما بدأ يحدثها كان أسلوبه عاريًا دون حرج، ولم يلمح لها عن أمر طرده من القناة، لكنه قال لها :

- نرمين أين أنتِ فأنا مشتاق جدًا لك.. ولسماع صوتك ولمسك مجددًا..

- أستاذ عمرو لن أقول لك سوى كلمتين أنت خائن، خنت كل ما أئتمنتك عليه ،ولم تقدم أي اعتبار لكل الخدمات والمال الذي كنت أساعدك به أنت وأمك، حتى ثقتي فيك خنتها عندما شكوت لك من زوجي وسوء معاملته لي، كي تقف بجانبي.. وليس لتحولني لواحدة أسوأ وأقذر منه، فالحقيقة التي لم أرها إلا الآن هي أنك شيء عفن ونجس يمشي على قدمين بيننا..

- لا تفعلي بنفسك كل هذا يا مدام نرمين، فثقي تمامًا أنكِ أنت وزوجك شيئان لا يختلفان عن بعضهما فكما تقولين على

زوجك ثعبان، والثعبان لا يتزوج إلا من حية أو أفعى.

- جبان.. كلب، كلب.. كلكم كلاب.

وانتهى الأمر أن ترجى عمرو مدير القناة، بكل وسائل الذل واستدرار العطف، حتى أبقاه في القناة مستبعده من برنامج نرمين، الشيء الذي جعلها لا تستطيع الذهاب للقناة أو النظر في وجه عمرو، ومكثت في المنزل لا شيء تصنعه غير شجارها مع حاتم طوال فترة وجوده في مصر، حتى قرأت إعلان عن افتتاح قناة فضائية جديدة والتابعة لمجموعة شركات لي لي، وأنهم يطلبون مذيعين ومذيعات.

دخل عليها حاتم بعدما قرأت الإعلان في الجريدة، وبدأت تهيئ نفسها للتقدم للاختبار، وهي ترى فساتينها ومكياجها وأي بينهما تختار، نظر لها ولملابسها المنتشرة في الغرفة وهي ترتدي بعضها :

- ماذا تفعلين؟

- أختار شيئًا أرتديه فسوف أذهب لمقابلة شخصية في قناة لي لي الجديدة.. فهم في حاجة لمذيعات ..

- لن تعملي مجددًا يا نرمين فالعمل والنجومية هما السبب في جعلكِ تبتعدين عني وتهملين بيتك وتتركيني..

- لا يا حاتم سوف أذهب للمقابلة ولو منعتني سوف أترك لك

كل شيء وأذهب لبيت أبي..

- لا تغضبي هكذا فمن الممكن أن أتركك تذهبين.. وأغلق لكي القناة نفسها..

- يبدو أنك نسيت حقيقة مهنتك أنت ضابط.. مجرد ضابط وليس رئيس جمهورية العالمين..

- تحبي أن تري يا نرمين ماذا أستطيع أن أفعل..

- ماذا ستفعل أتعتقد أنهم مثل مساكين وفقراء مصر،أو أنك تستطيع أن تفعل معهم مثل ما فعلته مع سماح وأمثالها.. لا..لا.. تنظر لي هكذا فأنا أعلم كل ما تفعله من باسم ..أعلم ماذا تفعل يا حاتم لأناس لا حول لهم ولا قوة.. لكني أسألك لماذا تصنع كل هذا مع هؤلاء.. أنت تتعامل مع شعب فقير، ألم ترَ مدى قسوة ظروف سماح التي تعرضت لها ، كي تفعل هذا معها.. ألم تنظر لمدى قهر هذا الشعب.. هو ليس في حاجة لمن يزيده قهرًا ..

- عن أي شعب تتكلمين يا نرمين.. عن الشعب المصري.. عن شعب كلهم مثلي ضباط شرطة.. معظمه يحلم أن يكون ضابطًا ولو أتيحت له الفرصة.. فقط تتاح له سيفعل ألعن مما نفعل، نحن شعب لا يتجزأ محكوموه عن حكامه، ألم تنظري أنت في الشارع.. انظري ستجدينه كلهم ضباط.. النظارة السوداء.. وهو يمشي منتشي ناصب ظهره في عظمة كاذبة.. ولو صادف ذبابة وصدمته، ستجدين كتيبة من الضباط خرجت من جوفه، فكلنا

متعجرف.. فقط هو لم يتح له الفرصة، أما سماح التي تحكين عنها فهي فضلت أن تبحث عن آخرين تضلهم أسهل وأفضل من أن تبحث عن السمسار الذي أكل حقها.. كلهم هكذا ولذلك هم لا يسألون عن حقوقهم لأنهم في اتجاه آخر يفعلون ما نفعل يا زوجتي الجميلة، فأنت تتعاملين مع رجل عشوائي العقل مريض بنفسه، فلابد أن أكون مريضًا بنفسي كي أتعامل معه، وهو أيضًا يقول هذا.. والكل يقول هذا، لا أحد يريد الإصلاح حقيقةً، فالإصلاح ليس مجرد رغبة يا حضرة الإعلامية.. الإصلاح هو تنفيذ وليس كلامًا في جريدة من أفاق يكت.. ويرقص.. ويقبض، أو أغنية بلحن مبكٍ، من يقول إننا نظلمه هو أكبر ظالم.

- حقيقي يا حاتم الآن فقط تأكدت من الحكمة التي تقول إن أسوأ أنواع الكذب.. هو الشخص الذي يكذب على نفسه وأنت كما تقول مريض بنفسك، لا ترى في هذه الدنيا سوى حاتم الجبالي، أنت يا حاتم وليس الشعب المصري المسالم الفقير الكادح.. أنت وأمثالك فقط يا حاتم..

- كيف تتحدثين معي بهذه اللهجة أترفعين صوتك علي يا نرمين ..

- نعم أرفع صوتي عليك.. نعم ولو بيدي أو استطاعتي قتلك ما ترددت، فأنت إنسان في استطاعته أن يجعل الحجر الأصم ينطق.. يصرخ متألمًا من تعذيبك فيه، رغم ذلك اطمئن يا حاتم لن

أتركك أو أذهب بعيدًا عن هنا حتى ولو نجحت في عملي الجديد، فاطمئن لا مجد ولا بريق لي مرة أخرى.. فنرمين التي تحكي عنها قد انتهت على يدك.. أنت نجحت في أن تحولني من ملكة ينبهر كل من يشاهدها، إلى مومياء حقيرة يود كل من يراها التخلص منها، أنت الوحيد يا حاتم الذي استطاع أن يقضي علي، ويجعلني أكره الحياة ..وأستسلم، عرفت لماذا لن أتركك.

انتهى طارق من كل شيء وافتتح الشركة وتفاجأ كلما اتصل بالأمير هلال لم يجب عليه. ومر شهر والآخر حتى وصل ثلاثة أشهر والأفراد يأخذون منه رواتبهم، ولا يجد سبيلاً للخروج من ورطته خصوصًا أن العقد يقتضي فقط العمل مع مجموعة شركات هلال.

وأخيرًا أجاب هاتف الأمير هلال: كان الصوت مختلفًا.. سأله طارق:

- من معي؟ أنا الحارس الخاص للأمير هلال.
- وأين سيادة الأمير.
- في اجتماع.

- وهل أنت من الحرس القديم؟

- انتظر معي قليلاً..

ذهب سأل أحد من رؤسائه ثم عاد ليقول له:

- كن حذرًا فأنت تتحدث لشخصية مهمة ومكالمتك ومكانها مسجل، فلا تسأل كثيرًا وافصح لي عن هويتك.

- أنا العميد طارق الجبالي يابني..

- أهلاً سيادتك..

- هل سيادتك تريد التحدث مع حاتم بيه الجبالي؟

- حاتم بيه!!.. ولماذا حاتم بيه تحديدًا..

- حاتم بيه سيادتك هو رئيس حراسات الأمير هلال وشركاته.

عندما لم يتوصل طارق وأحمد لاتفاق، غضب أحمد لأن طارق يريد أن يستولي على الغنيمة بمفرده، لذلك قرر أن يذهب لحاتم.. والذي كان يجلس مثل المرأة التي يشتعل في جسدها النار.. يريد أن يعرف ماذا يفعل طارق.. ويخطط، وعندما أخبره أحمد قائلاً: أنا لم أستطع أن أجعل صفقة مثل هذه تمر دون صديقي وحبيبي حاتم، لكن طارق لا يريدك معنا ! والقصة وصلت إلى أن أكون أنا وأنت أو أنا وهو.. وأنت تعرف يا حاتم ما مدى صداقتنا.

وما حدث أن حاتم اخترق كل حصون هلال حتى أصبح من المقربين له؛ فمميزات حاتم وخيوطه أكثر جسارة من طارق، خاصة بالنسبة لشخص مثل هلال فقد رأى أن حاتم رشيق.. ضابط سابق في أمن الدولة، عمل كثيرًا في الإنتربول ومكافحة الإرهاب، ولديه خطط و خبرات واسعة، فضلاً عن قدرته الفائقة على النشان من بعد،والقتل دون دماء هذا يعني أنه ثروة لأية قاعدة تجارية مثل قاعدة هلال.

ولا تعلم كيف دخل حاتم حتى الحجرة الصغيرة في عقل هلال، وعلم عنه كل شيء حتى استأمنه هلال على كل أسراره وجعله ينفذ له عملياته السرية والخاصة جدًا والتي لم يعلمها إلا غيرهما.

ولا تعلم أيضًا كيف ذُبح الخيط.. وانهار الجسر المادد بينهما، فجأة أنهى هلال كل تعاملاته مع شركة حاتم وأعطى له مكافأة كبيرة.. لم يعلم عنها أحمد شيئًا كي لا يقاسمه وحاول أحمد معرفة سبب هذا الانهيار.. و لم يجب حاتم..

ليس هناك مساحة كبيرة من الوقت أمام سعيد، لموعد طائرته المتجهه إلى إنجلترا... وسوف يعود بعدها إلى مقر شركته في فرنسا، ولذلك لم يعط وقتًا للمقابلات الشخصية، واكتفى أن يرى المقبولين ويوقع على قرار تعيينهم، وعندما دخلت نرمين زوجة حاتم عليه كان يتحدث مندمجًا في هاتفه المحمول ،بينما سكرتيرته وضعت له قرار تعيينها أمامه.. تفحصه وهو يمضيه وعندما همت نرمين أن تخرج استوقفها صوت سعيد:

- انتظري..

استدارت وهي تتجه نحو مكتبه مرة أخرى ،ثم أردف سعيد:

- أتجيدين الفرنسية بطلاقة كما هو موضح في سيرتك الذاتية؟

همت أن ترد فرن هاتفه الخاص الموضوع على المكتب، فرد سريعًا وهو يشير لها بالانصراف، ثم وضع يده على سماعة الهاتف، ودعاها للانتظار مرة أخرى:

- انتظري يا...

- نرمين سيادتك.. نرمين رمزي

- مدام نرمين ألديك استعداد أن تسافري معي لفرنسا، فأنا بحاجة إلى أحد الأيام القادمة متقن الفرنسية من المحطة هنا .

- بكل سرور.. أي شيء يندرج تحت متطلبات العمل ستجدني على أهب الاستعداد بالقيام به..

- شكرًا لك سنتقابل قريبًا.

فشلت دينا أن تستطيع مقاومة هذا الذعر كل ليلة في الشقة لوحدها، ولذلك ذهبت لشقة طارق.. رنت جرس الباب.. لم يفتح أحد، اتصلت بطارق قال لها:

- أنا في الخارج من باكر وديدي ذهبت لشغلها والأولاد في المدارس.
- وأين ماما؟
- مؤكد بالداخل.
- لا أحد يجيب يا طارق.
- محتمل أن تكون نائمة ولا تسمعك.

ظلت جالسة على السلم، حتى جاءت ديدي والتي تهربت منها، محاولة ألا تدخلها الشقة معها وطلبت منها أن تعود لمنزلها، اندهشت دينا من هذا التصرف وهي تقول: لها أريد أن أرى أمي قبل ما أذهب.

حاولت ديدي معها... وقد وضح الأمر أنها لا تريد أن تدخلها

الشقة، وبعد إلحاح دينا لترى أمها أدخلتها ديدي واختفت في حجرتها سريعًا، دخلت دينا تبحث عن أمها.. لم تجدها.. لكنها تسمع صوتًا يشبه صوتها بحثت أكثر... أخيرًا وجدتها في الحمام الصغير مربوطة من قدمها بإحكام بحبل متين في مسورة مياه لكي لا تتبرز في أي مكان في الشقة.. أو تخرج، انهارت دينا وهي تفك أمها سريعًا وانتابتها حالة هذيان وهي تصرخ: حرام عليك يا هدى حرام عليك لو أمك كنت ربطيها هكذا مثل الكلاب.

وفكت أمها.. ألبستها ملابسها وأخذتها وذهبت سريعًا إلى شقتها مرة أخرى.

في المساء عندما اتصل بها هشام وألح أن يراها قررت أن تقابله تحكي له.. لا تخفي عنه شيئًا.. جلست أمامه وهي تقول: أنت تريد أن تتزوجني ولا أخفي عليك أنا أيضًا أتمنى أن أقضي باقي حياتي معك، لكن الأمانه تقتضي علي أن أحكي لك كل تفاصيل حياتي.. .... ..

عندما انتهت نظر لها هشام وهم أن يتحدث قالت له :لا تتكلم فأنا لا أنتظر منك ردًا الآن، أمامك شهركامل من اليوم، فكر جيدًا وبتروٍ فهي حياة كاملة سوف نقضيها معًا، فإذا كان هناك شك أنها ستكون جحيمًا أو مُشرخة إذن أحرى لنا أن نجعل حبنا ذكرى جميلة أفضل ما نلقي به فيما بعد في سلة المهملات... بعد شهر من الآن سأنتظرك في نفس هذا المكان وفي نفس الموعد الثامنة تمامًا إذا

وجدت نفسك لا تستطيع أن تكمل معي لا تأتي، ولن أغضب منك فهذا حقك، أما إذا وجدت نفسك تحبني حقًا وتريد أن تكمل حياتك معي، تعالى ستجدني في انتظارك فاتحة لك ذراعي وقلبي وسأكون خير زوجة وصديقة لك مدى الحياة، فأنا حقيقي أحبك، لكن إذا ما قررت أن تأتي يا هشام وتكمل معي لا تفتح معي سيرة هذا الموضوع الذي قصصته عليك أبدًا مدى الحياة ،وكأنك علمت شيئًا ثم نسيته أواحتفظ به لنفسك في أعماقك فقط لا تخرجه مرة أخرى مثلما فعلت أنا منذ سنين ماضية وسأفعلها مجددًا إن لم تأت.. ..

هذه الأزمة المالية الأولى من نوعها وشدتها على طارق، مما جعلته يدور حول نفسه باحثًا عن مخرج..أو فرصة عمل.. حاول حاتم الاتصال به في الأيام الأخيرة، خصوصًا بعدما قضى نحبه مع الأمير هلال.. وانتهى، كانت الكلمات بنفس الأسلوب والمعنى: اعذرني يا طارق كنت أحاول أن أعرف نية أحمد ابن خالتك وما يخفي لنا.. ولم أعلم أن الأمر سيضرك لهذا الحد، سمع طارق وكأنه لا يسمع، وظل يبحث فلم يجد أمامه سوى حماه اللواء نبيل، ذهب إليه ليأخذ جزءًا من أمواله.. ولا أحد يشعر بما حدث

للواء نبيل، إلا لو تخيل أنه يحدث له. أثناء ما كان اللواء نبيل في مكتبه الذي يستخدمه شقة ومكتب وفي الثالثة عصرًا تقريبًا، ولا أحد معه نهائيًا بالمكتب، وقد تناول الغداء.. ثم خلد إلى النوم ساعتين تقريبًا.. بعدها دخل الحمام يستحم.. ماء دافئًا عذبًا كان منسابًا بغزارة فوق رأسه من الدش وهو واقف في البانيو يدلك جسده، ينظر لنفسه للمرآة التي أمامه.. متأملاً جسده.. فرحًا أنه لم يظهر فيه تجاعيد أو.. مثل أقارنه من سنه، تخيل نفسه عندما تراه غدًا فلانة وفلانة وتتأمل جسده هذا هل تشتهيني وهي تقول بينها وبين نفسها يستحيل أن يكون هذا الرجل تجاوز الستين، لابد أنه يضحك علي أو يمزح معي ،كانت هذه الكلمات وهذه التخيلات مع صوت زخات حبيبات الماء الساقطة على حواف البانيو وأرضيته كان لهم وقع موسيقى.. تشجيه وهو يتخيل متأملاً هؤلاء النسوة..حتى شعر بالماء ورغاوي الصابون تنزلج من فوق قضيبه، فأخذ يدلكه وهو يسترخي.. يدلك..

و إذا بباب الحمام يُفتح.. انتفض أحس أن كل شعر جسده وقف نظر أمامه. وجد رجلين شديدي البنيان ينظران ل.. وهما يضحكان، حاول أن يصرخ أو يتحرك.. شعر بثقل رهيب في لسانه وأنه التصق بحلق فاهه.. لم يستطع له حراك،.. مثل باقي أعضائه، وقع في البانيو ساقطًا.. نظر إليه الرجلان.. ثم سدد له عدة طعنات، ليتأكدا من موته، والحقيقة هو مات قبل أن يلمساه من الرجفة..

والتي أوقفت قلبه في الحال، هذا ما أكده الطبيب الشرعي فيما بعد، إنه قد مات نتيجة سكتة قلبية، قبل أن يلمسه أحد.

" ليس هذا ما نشرته الجرائد فحسب بل هذا ماحدث بالفعل".

نزل سعيد من الشركة في عجالة مازال يريد أن يذهب إلى فلته في المقطم، ليأخذ بعض الأوراق وحقيبة ملابسه.. ثم ينطلق إلى المطار، عندما وصل أمر الخادم بتحضير الغداء، ثم دلف إلى الحمام سريعًا.. ملأ مغطسه الخاص.. أدار زرار التشغيل فتحركت ذراعا المدلك بداخل المغطس.. رمى ملابسه وسقط بين الماء الدافئ أسلم جسده لذلك المدلك وهو يستمع لموسيقى كلاسيكية التي سمعها في ليلته الأولى مع لي لي في منزلها، أغمض عينيه مسترخيًا وهو يفكر في صفقته الجديدة والتي سيذهب لبريطانيا من أجلها بعد بضعة ساعات، أخذ يبتسم وهو يرى مقدار المكاسب الضخمة التي تتدفق عليه بعدها، ثم أخذ رشفة من كوب العصير والذي اعتاد أن يضعه له الخادم أثناء الشاور الخاص به. ارتشف بعض قطرات العصير وهو يزيح خصلات شعره للخلف، وقد خلع العدسات اللاصقة وبدت عينه بلونها الأزرق مشرقة.. ازدادت حمرة وجهه

كلما تذكر الأرقام.. المكاسب التي سوف تتدفق عليه، فجأة ارتعش جسده عندما شعر بيد تنزلج على رأسه استدار لمس يده نهدًا طري نظر وجدها لي لي أصابته هول المفاجأة:

- كيف أتيتي دون أن تخبريني؟!

- ألم تقل لي مرحبًا أولاً، ثم إنك تعلم إني ربطت نفسي بك ولن أستطيع البعد عنك أسبوعين كاملين كما أنك لا تجيب على تليفوناتي.

هم أن يخرج.. زجت به للخلف فسقط في المغطس ودخلت معه كانت عارية تمامًا جلست فوقه وهي تقبله بحرارة واشتياق.. تحضن جسده بشدة، ارتخت يداه.. تخدر الزمن منه.. تغيب عقله فالجنس مفتاح الانتقال من زماننا لحدود أخرى غير معروفة أو معلومة، رفعت نفسها قليلاً من عليه وهي تمسك عضوه برفق ودسته بين شفتي فرجها وفي أحضانه وهي تتأوه برفق، تضاجعه برقة تامة.. ثم استكملا باقي الرحلة على سريرهما في غرفة نومهما.. استمرا إلى أن غابت الشمس وغابت مدن ومعالم وحضارات... وتدريجيًا ظهر الإنسان، رأى نفسه من جديد عندما نظر لساعة أمامه:

- قد فاتني موعد الطائرة.

- أي طائرة يا حبيبي.. موعدها مضى منذ اثنتي عشرة ساعة تقريبًا، لا تقلق فقد أجلت لك السفر للغد وحجزت لنفسي معك، فلن أتركك مجددًا يا سعيد.

- أنتِ قد أصابكِ الجنون، وستكون سببًا في فشلي وضياع مستقبلي .

- لماذا تقول هذا يا سعيد أنا أحبك، وأنت أيضًا تحبني، فأنت لم ترَ نفسك منذ قليل، فلم تكن من قبل في مثل هذه السعادة.

ثم اقتربت منه وهي تداعب خصلات شعره وتقبله:

- سعيد لك عندي مفاجأة كبيرة، أنا اتعلمت الصلاة وأصلي منذ ثلاثة أشهر، وقراءة القرآن وسيرة سيدنا محمد وأصبحت مسلمة، لا ليس لأن زوجي مسلم وأنك تريدني أن أعتنق الإسلام، لكني اقتنعت وأحببت الإسلام وأحببت ديانة زوجي.

- أسلمتي.. أريدك أن تعتنقي الإسلام وأنتِ اقتنعتي وأحببتي الإسلام أحببتي ديانة زوجك.. ماذا تقولين يا لي لي.. هذا عندما أسلم أنا أولاً.

محمود حاتم الجبالي.. قرة عين أمه نرمين.. وسلوتها في الحياة، ورغم أن صيتها ذاع وحققت كثيرًا من أحلامها بين عالم المشاهير من خلال قناة لي لي، إلا أن محمود ابنها كان هو المغير الحقيقي.. وسرا لسعادة لها في هذه الحياة، نست آلامها وماضيها، وسم حاتم الذي ينفثه في وجهها صباح مساء، خصوصًا بعد ما جلس لها في المنزل بلا عمل، واليوم اقترحت عليه: لماذا لا تذهب للعمل في مجموعات شركات لي لي، فأنت ضابط أمن دولة كفء وهم في حاجة مستمرة لمثل نوعيتك يدير لهم حراساتهم الخاصة.

كان سعيد جالسًا يتحدث مع رامي بحدة عن العمل، عندما رن هاتفه المحمول الخاص، كانت لي لي.. عتابته كثيرًا على غيابه

وعدم الرد على تليفوناتها:

- أعذريني يا لي لي مشاغل العمل سرقت كل وقتي وأشياء غالية أخرى.

- لابد أن أراك قريبًا هناك مفاجأة كبيرة تنتظرك..

تاه عن كلمات لي لي لم يميز ماذا تقول، عندما نظر إلى شاشة المراقبة أمامه، فوجد شخصًا يدلف من باب الشركة، نظر أكثر وجده.. نعم هو حاتم الجبالي، أنهى المكالمة مع زوجته سريعًا وهو يستلقي على كرسيه للخلف ويضع قدمًا فوق الأخرى ويبتسم: ماذا أتى بك إلى عقر داري؟

نظر إليه رامي:

- من هذا يا سعيد؟

- أتتذكر الضابط الذي خطط لاغتياله.. إنه يصعد سلم الشركة المؤدي إلى الإدارة.

- حاتم الرفاعي.

- حاتم الجبالي ..أما زالت رأسك بها خطط أخرى.

ضغط رامي على زرار ثم رفع سماعة هاتفه يحدث مدير أمن الشركة:

- من الرجل الذي دخل لتوه من باب الشركة متوجهًا إلى الإدارة.

- إنه ضابط أمن دولة سابق، ولديه شركة حراسة مرموقة،

وهو زوج مدام نرمين، والمفترض أنه على موعد لمقابلة شخصية لتعيينه في حرس الشركة كما وعدت مدام نرمين سيادتك..

أغلق رامي السماعة، نظر له سعيد: حاتم يريد أن يعمل عندي في شركتي..

بعدما خرج حاتم من شركة لي لي توجه فورًا لطارق:

- عندي لك بشرى سارة.. كي تعلم أن فضلي عليك..

أطفأ طارق سيجارته وهو يضحك بسخرية:

- وما البشرى..بعروسة جامدة..
- لا وظيفة جامدة، في مجموعة شركات لي لي.
- سنعمل معًا.. إذ لم نفعلها ونحن في الخدمة.
- لا لن أعمل أنا في هذه الشركة من الأساس.
- لماذا؟
- لسببين الأول: قد قرأت في عين زوجتي وأنا ذاهب.. رغم أنها هي صاحبة الاقتراح أنها لا ترجح أن أعمل أنا وهي في مكان واحد، ثانيًا جاءني اقتراح لو وافقت عليه ستمطر علينا السماء مالاً وذهبًا.

- وما الاقتراح؟

- لو تم تعيينك أنت في هذه المجموعة سيكون مرتبك يعادل راتب وزير .

- وزير؟!

- هذه حقيقة، وبهذا أكون عوضتك عما حدث لك من جراء شركة الحراسة، لكن لي عندك طلب واحد، سأتقاسم راتبك معك وأستخدمه في إعادة هيكلة شركة الحراسة.. وستكون أنت شريك أيضًا بالنصف.. وبهذا سنكون ضمنا الشيئين، وعملك في هذه المجموعة سوف يساعد على تشغيل الحركة عندنا في الشركة لأنهم يحتاجون أفرادًا كثيرة بصفة دورية..

- ومتى يمكنني أن أتقدم لهذه الوظيفة؟

- سأتشاور مع نرمين وأبلغك.. شيء مهم لو تم وذهبت لهذه المجموعة؛ لا تندهش سوف تجدها جزءًا من وزارة الداخلية، فقد قابلت أكثر من عشرين لواء وعميدًا بالداخل، وعرفت من ضابط حراسة هناك كان صديق لي أن هؤلاء يأتون لمقر الشركة من أجل القبض فقط فبيوتهم مفتوحة من هذه الشركة، من له راتب شهري، ومن ُيدفع لأولاده مصاريف المدارس أو أقساط سيارته أوسيارة زوجته، حتى فواتير التليفونات تُدفع لهم، وأنت تعرف الباقي.. إذن نحن مقبلين على نعيم حقيقي..

ذهب طارق للمقابلة الشخصية في شركة لي لي، وعندما خرج كان كالتائه.. لم يصدق ما رأى.. وما سمع، رن هاتفه كان حاتم والذي ُيلح عليه في الاتصال منذ ساعة، ليطمئن على ما حدث.. طلب منه طارق أن يقابله فورًا، وظل شاردًا إلى أن جاءه حاتم:

- ما بك يا طارق؟!

- ما هذه الشركة.. وما هذا العالم..

- بعد كل هذه السنين يا طارق التي قضيتها في الداخلية بين المجرمين والنصابين.. والدجالين.. تسأل ما هذا العالم.. طارق الجبالي يقول هذا.

- نحن ُنفرم ونُطحن كي نأكل سمكة صغيرة أو أخرى أما هم فطعامهم حيتان.. حيتان كبيرة.. من يكونوا هؤلاء إنهم دولة.. دولة داخل الدولة

- هذا ممتاز أن نعمل مع أناس كبار مثلهم.

- هم يريدون مني أول شيء أفعله لتقديم فرائض الطاعة والولاء أن أقتل..

- هذا عملك مثلما كنت تؤديه في الداخلية، فانظر كم قتلت يا طارق أثناء الخدمة، أكان أحد يلومك بل كنت تُكرم لأن هذا واجبك.

ثم اقترب منه حاتم وهو يضع يده على كتفه:

- حقيقي يا طارق جميعهم كان واجبًا أم خدمة!

- أتعرف من يريدوني أن أقتله.. أحمد البحجاح صاحب مجموعة شركات البحجاح، وأكبر منافس لهم، وأنت تعرف كم وشكل حراسة هذا الرجل التي لا تفارقه ليلاً أو نهارًا.

- لكنه يستحق القتل، مصر كلها تعرف تجاوزاته وفساده، و أحد لا ينكر ما فعله مع مجموعة شركات لي لي، يستحق يا طارق لكن ألم يتكلموا معك على المقابل؟

- إنه كبير كبير جدًا يا حاتم ..

- اعتمد.. وتوكل على الله يا طارق لا تضع الفرصة من يدك.

المُتدرب على القتل وفنونه مثل المعتاد على ذبح دجاجة أو حمامة، لم يستغرق الأمر طويلاً مع طارق.. وتم بنظافة، وكلمة نظافة تعني في لغة أومعجم هذا العالم، أي بدون أي أخطاء ولو بسيطة .

في اليوم التالي كان طارق جالسًا أمام الدكتورة مي مديرة مكتب رامي، ينتظر مقابلته وإذ به يفاجأ وهي تقول له: أنت ستقابل عناية الدكتور سعيد شخصيًا.. بعد ساعة ونصف من الآن، انتظر

في مكتبك وسوف يصحبك أحد مساعديه حتى مكتبه.

عندما دخل طارق مكتب عناية الدكتور سعيد كان يتوقع هذه الهالة الجابرة من مساحة شاسعة للمكتب وأثاث ديكور لم يره من قبل حتى في السينما وأفلامها، لكن ما كان لا يتوقعه أن وجد رامي وابنته جالسين مع سعيد، وسعيد مندمج مع ابنة رامي يلعبا بلاي ستيشن على جهاز كبير أمامهما وهو يضحك. لم يدع أحد طارق للجلوس..

نظر رامي لسعيد: العميد طارق الجبالي الذي نفذ عملية الأمس، نظر سعيد لرامي وهو يخرج علبة مربعة ملفوفة من مكتبه وقال لرامي: أعطها له .. هذه مكافأته..

وعاود اللعب والضحك مع الطفلة.

أخذ طارق المكافأة وفي دقائق معدودة كان خارجًا من الشركة وهو يمشي في تؤدة مختالاً حتى وصل لسيارته، ركب سيارته وهو يتصل بحاتم:

حاتم.. سلموني المكافأة.

- كم يا طارق؟
- لم أفتحها إلى الآن.. سأنتظرك في البيت لا تتأخر.

وعندما وصل طارق.. ركن سيارته بإتقان ونزل وقبل أن يصعد قرر أن يفتح العلبة، دلف إلى مدخل العمارة.. صعد أول الدرج وهو يفتح العلبة يتلصص بما داخلها، لم يعرف ما هذا

الشيء أزاح كل الورق.. وجده ألبوم صور.. نظر أكثر وجده نفس الألبوم الذي اختفى مع الأشياء عقب حادثة دينا وفرار سعيد، فتحه وجده هو كما هو لم يتغير شيء، وكأن بداخله تمامًا أيضًا نفس السنين! إنه سعيد سعيد تهاوت قدماه بشدة.. نزل من السلم وهو يتهاوى.. حاول أن يقف يرتجف استند على الحائط وهو يقول: إنه سعيد..سعيد..

أمسك بالهاتف وجده فصل من آثار الاصطدام، خرج من العمارة.. ركب سيارته ولم يتحرك قرر أن ينتظر حاتم في السيارة، أشعل سيجارة وهو يفكر يقول لنفسه: سعيد.. وماذا يقصد بهذا أيريد أن يقول لي إن هذا عربون تصالح وصفحة جديدة، أم يريد أن يبلغني أني قد أصبحت متورطًا وعبدًا عنده، في كل الأحوال لابد أن أستمر معه لابد أن أحاول ألا أخسره فكل شيء أصبح معه، وما فائدة أن أظهر له أي ضجر، غير خسارة راتبي وقفل شركة الحراسة من جديد.

سمع نقرًا على زجاج السيارة، نظر وجد اثنين من ضباط الشرطة.. ظن أنهما أصدقاء يعرفونه، نزل وهو يصافحهما:

- أهلاً وسهلاً.
- أنت عميد متقاعد طارق الجبالي.
- نعم.
- اتفضل معنا.

- أين؟
- معنا أمر بالقبض عليك.

كان سعيد جالسًا على مكتبه أمامه كل الأوراق الخاصة بإقامة مشروعه الجديد، وهو عبارة عن جامعة بها معظم الكليات فضلاً عن مستشفى تعليمي كبيرة خاصة بكل كليات الطب بداخلها، ومدينة كبيرة لاستضافة الطلبة العرب، كان يراها صرحًا كبيرًا لم يسبق له مثيل، دخل عليه أحد أفراد حراسته وهو يضع له الجرائد على المكتب.. ثم انصرف، لمح سعيد إحدى الجرائد الموضوعة أمامه وهو يعمل كانت الجريدة التي أعلنت كل وسائل الإعلام عنها اليوم.. أنها ستغلق وأن هذا العدد هو الأخير لها.. جريدة حاولت أن تفعل شيئًا لكنها كُسرت هي وأقلامها في منتصف الطريق وكان هذا هو عددها الأخير، سحب سعيد الجريدة من بين مجموعة الصحف وأخذ يتفحصها وهو يتأملها مرات عدة، ثم استوقفته كلمات للراحل أسامة انور عكاشة.. أخذ يقرؤها..

س: بعيدًا عن سلبيات الحكومة وجرائمها، ما هي سلبيات المواطن المصري التي أدت بنا لما نحن فيه الآن؟

- سلبيات المواطن المصري البشرية: الخنوع: والصبر والتعود على الاستكانة، فدائمًا مقاومته أقل من الموقف.

- س: متى ظهر خنوع رهيب للمواطن المصري سجله التاريخ؟

- في عصر المماليك.. ثم العثمانيين خمسمائة عام متتالية.

- س: قارن لنا بين خنوع المصري الآن وخنوعه فيما سبق؟

- نفس السيناريو نحن الآن صابرين على عهد كارهينه، مثل سابق وأرجو ألا يكون صبرنا يصل إلى خمسمائة عام مثل ما سبق، فردود فعل الإنسان المصري بطيئة جدًا.

- س: وألم تنجح المسيحية أو الإسلام عندما دخلت على هذا الشعب أن تحرره من هذا القهر؟

- كيف وهم قهروا القهر بالقهر..

- س: كيف؟

- لأنك استبدلت قهر العرب بقهر الرومان، فلا يصح كي نقضي على قهر الرومان.. فنأتي بالعرب يقهرونا، فأولاً الرومان نقلوا المسيحية إلى مصربالقهر، ثم جاء عمرو بن العاص فكان حقيقة المثل الذي يقول من استجار من الرمداء بالنار، فانتزع قهر وجاء قهر آخر، والمصريون تحالفوا مع عمرو بن العاص هربًا من القهر الروماني وهم لايعلمون أنهم هربوا من نقره ووقعوا في دحديره.

والفترة الانتقالية أخذت ٣٠٠ عام ليتحول المصريون إلى الإسلام، فلم يدخل عمرو بن العاص اليوم فأصبح المصريون مسلمين الغد، غير أن هناك خيارات مهمة لابد أن تعلمها فعندما دخل عمرو بن العاص مصر كان أمام المصري ثلاثة خيارات:-

١- الإسلام ٢- السيف ٣- الجزية

فانظر إلى هذه الكلمة جيدًا.. فانظر إلى الرسالة التي أرسلها عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب بعدما فتح مصر.. فقال عمرو ابن العاص: إنني فتحت مصر وقد وجدتها كنزًا كبيرًا.. وفي نفس هذه الرسالة قال عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب: إنني فتحت مصر ووجدت شعبها"ذلول لمن ركب".. أي لا يقاوم.

- س: وهل تبدلت الأدوار حاليًا بين الفاتح وبين الحكومة المصرية؟

- المصريون محتلون من داخلهم..مصريون محتلون مصريين، لكن المحتل الفاعل وهم أقلية سيطروا على الأغلبية، بنفس منطق الاحتلال سيطروا على الأغلبية وعاملوا الشعب المصري معاملة الغازي القادم من الخارج، بل إن الغازي كانت ظروفه أرحم، فإذا انتهيت من مقاومته يتركك.. إنما هنا وفي هذه الفترة.. انعدام الرزق مصحوب بانعدام الحرية، بانعدام القدرة على الإفصاح.

- س: عمرو بن العاص يقول لعمر بن الخطاب إن المصريين شعب ذلول لمن ركب.. ومن يركب هذه الأيام؟

- النظام الحاكم..والشعب بنفس التراث الذي يحمله لم يتغير.
- س: هل الشعب المصري هو المسئول عن هذا النظام؟
- الصمت.. التحمل.. الانقياد.. مش قالوا لفرعون إيه اللى فرعنك قال لم أجد احدًا يردني.

عندما انتهى من القراءة ارتعشت الصحيفة فى يده.. ارتعشت أكثر ثم وقعت.. تركها ووقف.. تمشي خطوتين نحو مرآة موضوعة على حائط أمامه.. نظرلها ليرى نفسه أخذ يتأملها كثيرًا ثم في صمت ووجوم شديد ذهب للجريدة وبهيستريا شديدة أخذ يمزقها وهو يقول :حقًا لابد لكِ أن تغلقِ أبوابك.. أو يغلقوا لكِ أبوابك..

رن هاتفه المحمول كان رامى: أبشر يا صديقي من دقائق معدودة نطق القاضي بتلك الكلمات.. تحال أوراق المتهم طارق محمود الجبالي إلى مفتي الديار المصرية.. ارتعشت يده.. وقع الهاتف على الأرض وصوت رامي يأتيه سريعًا: سعيد... سعيد..

ثم غاب الصوت وتحول توت.. توت ثم صمت نهائيًا.. صمت كل شيء إلا نبضات قلبه كانت تزيد وترتفع، ثم رن الهاتف مرة أخرى، لم يعره أي اهتمام وكأنه لا يسمعه أوأنه غير موجود في هذه الحجرة، رن الهاتف مرات كثيرة حتى التقطه، كانت لي لي :

- متى ستأتي يا سعيد؟

- لا أعلم.
- أنا مشتاقة لك كثيرًا يا حبيبي.
- لا أعلم متى سآتي ..وربما لا آتي نهائيًا.
- لا ...هذه المرة لابد أن تأتي.. لابد أن ترى دنيتك الجديدة، فلك عندي مفاجأة العمر يا حبيبي، أنا قد أنجبت بنتًا.. ابنتنا وأصبحت أبًا يا سعيد، ولك طفلة جميلة تشبهك تمامًا نفس لون عينيك الزرقاء وشعر رأسك الكستنائي ومؤكد ستأخذ منك رومانسيتك وحنانك، تعال إذن سريعًا لترى سيلين ابنتك سيلين سعيد عبد الحي.
- ابنتي..

في لحظة تغير لون الدنيا أمام عينيه، كل شيء تغير شعر أن لجامًا شديدًا التف حوله، وفي ثوان معدودة أصبح شخصًا آخر أو ربما تمنى أن يكون شخصًا آخر، رفع سماعة الهاتف حدث سكرتيرته: احجزي لي في أول طائرة متجهة إلى باريس فورًا.

وضع السماعة... ينظر في شاشة المراقبة، وجد وفدًا كبيرًا من رجال الشرطة مقتحمين الشركة.

كانت شهيرة ترى دينا وهي تقرأ الجرائد وتبكي.. فتبكي معها .أخذتها دينا معها في إحدى المرات التي كانت تزور فيها طارق، وعندما نظرت شهيرة لطارق قالت له: أهلاً يا محمود..

اقتربت منها دينا وهي تقول لها:

- ده طارق يا ماما.. مش بابا.
- طارق مرات ديدي.. خد حذرك على نفسك يا ابني فأنت وأخوك تجعلان الحجر ينطق.

وفعلت شهيرة أفعالها المعهودة مما آثار حنكة طارق وجعله ينهي الزيارة وهو يُلح على دينا أن تجعل حاتم يزوره، وكان حاتم ومنذ بداية الواقعة لم يزره ولو مرة واحدة أو يحاول الاتصال به.. وبعد صدور الحكم قام طارق بتوسيط شخصيات كبيرة للتحدث مع حاتم كي يزوره، وأخيرًا في صباح يوم الثلاثاء.. جاءه حاتم .. تقدم نحوه يأخذه في حضنه.. نظر له طارق وهو يقول:

- أنتبرأ مني يا حاتم واستخدمت جبنك حتى معي بعد ما ظللت خلفي تقنعني.. وأنت تزج بي في قبري، لكن قبل ما أموت سوف أقتلك يا حاتم.. سوف أجعلك تموت في كل لحظة ألف مرة

من الخوف ؛ لأني أعلم ما مدى جبنك.. سعيد د.سعيد رئيس مجلس إدارة شركات لي لي هو سعيد يا حاتم.

- أي سعيد تقصد؟

- منال.. منال يا حاتم..

اقترب حاتم منه وهو يربت على كتفه يشعل سيجارة.. يضحك:

- وهل تعتقد أن الجبان أي أنا لا يعلم مع من يتعامل، أعلم وقبل منك يا أخي الذكي، أعلم أن سعيد هو منال، أعلم منذ قابلت رامي شريكه في مكتبه.. فهو ليس على درجة كبيرة من الذكاء .

منذ هذا اليوم اكتشفت حقيقة الأمر، وأن سعيد أصبح حية كبيرة صعب قتلها أو التخلص منها.. بل مؤكد إنه هو الذي سوف يتخلص منا ولن يستغرق الأمر معه أكثر من بضعة دقائق.. ويكون سحقنا.. لكني لم أتوقع أنك ستصل إلى هذا المكان، أردت فقط أن أعرف ماذا سيفعل معنا سعيد ،كي أدبر الأمر بتدبير وروية، خصوصًا ومؤكد أنه خطط لعمل زوجتي ثم أنا في شركاته، وهذا بداية لنهاية مفجعة لنا.

- آه.. كنت تريد أن تعرف نيته..، مثلما كنت تريد أن تتأكد إذا كانت ريم لعوبًا أما لا!

- أنا مقدر حالتك لكن ثق في كلامي لم أتوقع مطلقًا أن الحال سينتهي بك في هذا المكان كنت أعتقد أنك أذكى من هذا... على كل

حال ولتتأكد من كلامي، ساعات قليلة وسيكون سعيد شرف هنا معك، فقد كشفت خيوط لعبته في جريمة القتل بصفته محرضًا على القتل.

- أنت حقًا أفعى سمها لا يقتل.. ولايرحم أنت عذاب يا حاتم أنت الغضب الذي ضرب لنا الله به الأمثال أن يحيق بنا إذا بعدنا عنه وعن طريقه، تشهد أن سعيد حرضني على الجريمة لتؤكد قيامي بها.

- تمهل يا طارق فأنا مقدر موقفك، وثق في عقلي كما لابد أن تعلم أن سعيد خرج من جحره وسيلدغ من أمامه فلابد أن أتخلص منه قبل ما يسلخ جلدنا، ولن أقول لك إن الثمن كان لابد أن يدفعه واحد منا بدلاً من أن يدفعه اثنان، فأنا فكرت في أقل الخسائر وأكثر المكاسب فنحن أصبحنا أمام واقع لامفرمنه إما أن تنجي أنت وسعيد وبعدها لن يتركنا سعيد، أو ترحل أنت وسعيد، بدءًا ستأخذ الكلام على أنه صادر من جبان كما تقول ،لكن لوتفحصته ستجده خارجًا من حكيم، فاشتراك سعيد في الجريمة وشهادتي عليه أنه حرضني على قتل البحباح، وأنا رفضت.. فكرر نفس العرض عليك، هذا يعني أنه وقع تحت بند التدبير والروية لقتل آخر دون سبب، وهذا عقوبته الإعدام بلا نقاش، أما أنت فهذا حكم أول درجة أمامك درجات أخرى متبقية وقد اتفقت مع المحامي أنه سوف يثبت في المرافعة القادمة أن سعيد اتفق معك فقط على التفاوض مع

البحجاح وتهديده إن لزم الأمر، وفي الحقيقة هو خطط لقتله، فجعل أحد يُبلغ البحجاح أن واحدًا من حرس د.سعيد قادم ليقتله، وبذلك أخذ الرجل حذره وحاول التخلص منك وقتلك، عندما تأكد كلام من بلغه أنك ما جئت إلا لتأخذ روحه، فدافعت أنت عن نفسك لتدرأ الموت عنك، وأثناء ذلك مات البحجاح على سبيل الخطأ.. وهذا كلام لا يقبل النقاش يا طارق ولن تتعدى عقوبته بضع سنوات قليلة وسأجعلها أحلى سنوات عمرك، وفي أسوأ الفروض ولن يخفف الحكم عنك، ماذا تريد، تريد أن تموت، وسعيد ينجو منها ولايُعاقب، أما أنك تريد أن تموت وتتركه لي في الخارج كي يقتلني كما تقول ،عرفت أن ما فعلت هو الصواب، صدقني ستخرج... ستخرج بعدما يكون رحل سعيد، فبقاء سعيد حي يا طارق بعد كل ما وصل إليه من نفوذ وسلطان، وصفات جديدة في التدبير والتفكير، معناه أنه سوف يأتي يوم ويذلنا يمتطينا يا طارق مثلما امتطيناه، فهمت أم أنك مازلت لا ترى من هو سعيد الآن... بداية الأمر جعلنا نعمل عنده ليس أكثر من حارسين له، فقد أصبح من هؤلاء الذين تقول عنهم لا نفوذ ولا سلطان منا عليهم... فنحن الضعفاء إليهم. وأنا تحريت وتقصيت عنه يا طارق عن كل شيء، فأنت لا تعلم مدى اتصالاته داخل الدولة وأولاد من أصدقائه المقربين وشركائه من الباطن، سعيد أصبح مصر ليس من جزئها الخلفي والذي كنا نفعل فيها ما نريد، بل أصبح مصر من جزئها

الأمامي والذي يفعل هو فينا ما يريد ،وأصبح يعمل في شركاته أكثر من ٢٥٠ ألف شخص مصري ،عرفت مع من تحارب.. ليس مع منال بل مع أكبر مستثمر ليس في مصر فقط بل في الشرق الأوسط.

- وأنت متأكد من كلامك وخططك هذه.

- ثق في كلامي يا طارق كل الأمر أنا لا أريد أن نبذل قصارى جهدنا لنخرجك من هنا كي يلتهمك سعيد مجددًا، ولا تقلق يا طارق فحاتم من غيرك إنسان مشلول، ورغم ذلك لو حدث عكس كلامي وأعدموك وقتها افعل معي ما تشاء، ولن أرفع عيني فيك ستكون أنت على حق.

- لن تتغير يا حاتم.. ولن يتغير الزمن، فقد قتل قابيل هابيل، وأنت جئت اليوم لتقتلني، وهذا ليس جديدًا عليك يا حاتم فقد ذبحت ريم من قبل، وارتكبت أبشع الجرائم مع سعيد، وكنت السبب في موت أبيك وضياع أختك وأمك، وجعلتني أرتكب أبشع الجرائم بسببك، واليوم جئت لتقتل الإنسان الوحيد الذي ظل يحميك يا حاتم.

- عقلي وحده هو الذي يحميني يا طارق، ثم لا تلومني على أشياء لم أكن أنا فقط فيها السبب، وتنسى الطرف الآخر، لا تنس أن السبب الأكبر فيها خنوع واستسلام الطرف الآخر، فالحقيقة التي كان لابد أن تعلمها أن ريم هي التي سلمت نفسها لي بإرادتها كاملة.. فأنا لم أغتصبها، وسعيد لم يقاوم أو يبدي أي رد فعل سوى

الاستكانة والبكاء، واليوم الذي قرر فيه الانتقام والهرب تغلب علينا جميعًا رغم فارق القوى المتصارعة، وأنت.. فأنت دائمًا كنت عضلات بلا عقل يفكر ويدبر أمره قبل القدوم على أي فعل، وأبوك كان كالنعامة هرب من كل من حوله حتى لا يعيره أحد بتغير حاله، وأمك استسلمت لأوامر زوجها وحالة حتى أصبحت في سن مبكر غير متزنة نفسيًا ثم تحولت إلى مريضة نفسية وكانت سوف تقترب من منطقة الجريمة، فلماذا تسألني دومًا على أني الفاعل فأكون وحدي المجرم باعتبار أن المفعول به بريء.. وملاك.. ثم أنت تقول لن يتغير الزمن.. وقابيل قتل هابيل وأنا سوف أقتلك، ونسيت شيئًا مهمًا، أن هابيل قال لقابيل"لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك..."..أرأيت رحمة أكثر من هذا، أما أنت من بضع دقائق قليلة قلت لي إنك سوف تقتلني ألف مرة، وليس مرة واحدة.. من منا إذن قابيل، لكن وسترى يا طارق أني لن أقتلك بل تأكد أني سأنقذك..

- وكذلك أنت أيضًا نسيت شيئًا مهمًا، وسط كل الأشخاص المفعول بهم والذي عددتهم ذاكرًا مساوئهم نسيت شخصًا مهمًا لم تذكره يا حاتم أو تذكرخطيئته أوالذنب الذي اقترفه كي يحدث له بسببك كل هذا... إنها دينا... دينا أختك.

في تمام الثامنة إلا الربع جلست دينا على نفس المنضدة التي كانت تجلس عليها مع هشام.. خمس عشرة دقيقة ويتحدد كل شيء لتنتقل من الموت إلى الحياة، أم تظل دمية جميلة كما هي.. كانت الثواني ثقيلة تتحرك في بطء، وهي تشعر أنها تختنق.. وتنتظره أن يأتي فيفتح لها غرف الحياة.

أمر سعيد حارسه وسائقه الخاص أن ينتظره بالسيارة أمام البوابة الخلفية للشركة ثم أخذ السيارة وانطلق.. مازال متبقيًا سبع ساعات على طائرته التي يستقلها لفرنسا، سبع ساعات ويخرج من مصر أو يهرب من .. تجول بسيارته يتأمل الشوارع والتي أصبحت مليئة باللافتات والمكتوب عليها الهلع، والكل يعرف ويهرب من حقيقة.. من المسئول عن تزايده، شعور غريب بدأ يتملكه، شعور مؤجل كان لابد أن يتملكه من زمن مضى، شعور لابد أن يحسه أي كائن حي يدعي أنه إنسان، شعر للمرة الأولى أنه يكره الشوارع.. الشوارع محتمل.. أو من يمشون بها.. أو من صنعوها ربما، نظر للشوارع وكأنها المرة الأولى التي يراها ويكتشف حقيقة لونها، راح

يندس بسيارته بين الكل أي مصر.. المقاهي التي مازالت تزدرئ.. تنوء.. كادت أن تنفجر الشباب المكدس بداخلها فوق النرجيلة، يخبط قشاط الطاولة بصوت مرتفع مندمجًا مع ضحكاته الصاخبة، ضحكات خارجة من العمق، غيبوبة كاملة فرشت الشوارع، كست.. أغرقت عقول من بها تمامًا مثل المُخدر لإجراء جراحة له.. أو هم لا يشعرون بما يؤخذ من جسدهم أو ما يمر به وبعقولهم.. أم رباه هم يشعرون ولا يستطيعون أن ينطقونا كيف فقد نطق الحجر، أم هم حقًا لايشعرون، أسرع بسيارته ذعرًا يراوده يرسم له خطوطًا وعليك أن تختار لا تقلق كلها مؤدية لنفس المكان.. الموت الموحش .أسرع أكثر كسر كل إشارات المرور، لا بأس فعسكري المرور شارد هو الآخر، شرودًا كبيرًا يطل علينا، هو ذاهب لشارع الهرم.. أين المطار صوت الراقصات.. وخمور العاهرات يُغرق عقلك فلا تستطيع أن تميزعربي من صهيوني، فوق هذه الطرقات لافتات كبيرة لانتخابات وأحزاب طرق جديدة للنعاس وابتكارًا في السرقة، تُعلمك كيف تضع يدك في سترة الآخر دون أن يشعر بك.. وهو في نفس اللحظة يسرقك، من منا أحس؟ ومن منا لم يسرق.. حتى لحظات العمر تُسرق، أصبحت كدرًا وأحزانًا، ماذا يتبقى لنا لم يؤخذ يوأد ويضيع ماذا يتبقى لنا سوى متشات الكرة نفخر بها.. ماذا تبقى لنا يزحزحنا ويخرجنا من الوحل والعار.. نعم العار، كان يراه أمامه خاف أن ينظر لنفسه في مرآة السيارة، فيرى نفسه، فمن

يرى أي سعيد منهم سوف يراه باقي أربع ساعات على طائرته وقد وصل إلى المنوفية، هذا قبر جدتي.. وهذا قبر أمي.. وهذا أبي.. قبوراً متناثرة ونفس الشبه بين القبر ومن يحيون خارجه، لغة جديدة ليست بحاجة لترجمة، إنها لغة الأموات، باقي ٢٥ دقيقة وتقلع الطائرة، كان قد وصل المطار.. نزل من السيارة.. ختم الجواز انطلق من الممرات.. سمع صوتًا مرتفعًا ينادي: منال.. منال..

اهتزت قدمه.. ارتعش وهو ينظر خلفه ليجد سيدة تنادي على شقيقتها، وقع جواز السفر منه حاول أن ينتشله قبل أن تدوسه الأقدام.

كان يجلس حاتم على مقدمة سفرة طويلة، وبجانبه ابنه محمود والذي يدرس الآن في الصف الثالث الإعدادي، وأمامهما كانت تجلس نرمين والتي خطت أحزمة بيضاء كثيرة رأسها من المشيب، مثل حاتم والذي أطلق شاربه وكان المشيب بجانبي رأسه، كانوا يتناولون الغداء في صمت، عندما نادت نرمين على أيمن

الخادم الولد الصغير والذي يخدم عندهم منذ بضعة أشهر، أخذت تنادي وأيمن الخادم لا يجيب، وبعد عدة مرات جاءها أيمن، وهو في حالة هيستريا من البكاء، نظر له حاتم ونرمين بأعين تملؤها الدهشة والتعجب من كل هذا البكاء الهيستيري، ثم نظر له محمود ابن حاتم، وقال لأيمن: إنه الأمر إذن يا "بسمة" فقد منحتك الموبايل الذى كنت تريده..

وقعت المعلقة من يد حاتم.. وقف الأكل في حلقه وانفرجت شفتاه عن ابتسامة مليئة بالسخرية، عندما نظرت نرمين لمحمود ابنها وهي توبخه: لماذا تقول له بسمة هكذا، إنه ولد واسمه أيمن..

ضحك محمود وهو يكمل أكله ويجيبها: ألم ترِ يا أمي أن هذا الولد موزة.. وموزة جامدة قوي..

إيهاب عصمت